

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
قسم الثقافة الشعبية

مدرسة مازونة
"دراسة تاريخية فنية"

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفنون الشعبية

إعداد الطالب:
ميلود ميسوم

لجنة المناقشة:

الدكتور التيجيني بن عيسى: رئيسا

الأستاذ .د .عبد الحميد حاجيات: مشرفا ومقررا

الدكتور بلحاج معروف :مناقشا

الدكتور الغوثي بسنوسي :مناقشا

الدكتور محمد زمري : مناقشا

الموسم الجامعي 2002–2003


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى . . . الفاضلة أمي . . . .

حتى تتأكد أنها في قلبي و مهجتي.

و إلى . . . روح الوالد في برزخها

ما ذا أقول ؟ و هل تكفي الكلمات لرد الجميل ؟ أتساءل!

و إلى أولئك الذين ينطلقون باتجاه تحقيق لحظة الخلاص المتوجة بزمنية الشهود الحضاري . . . !

إليكم جميعا . . . ألف سلام و ألف محبة!!



شكر وتقدير

أتوجه بالشكر والعرفان إلى كل من ساهم من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا العمل، وأخص بالذكر.

السيد المشرف، الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات، الذي لم يدخر جهدا في توجيهي ونصحي، والذي كان لي بمثابة الأب الذي يحرص على نجاح إبنه.

والدكتور بلحاج معروف الذي فتح لي مكتبته الخاصة وساهم بقسط وفير في إخراج هذا البحث من خلال توجيهاته القيمة، فجزاك الله عني كل خير.

كما لا أنسى أستاذي وأخي عبد المجيد بوجلة، الذي أخذ بيدي، وتتبع كل مراحل العمل، فلك مني جزيل الشكر والعرفان.

المقدمة

مقدمة:

الحضارة أسمى وأبقى ما للأمة مـن تـراث، ولقـد كـان للعرب وللذيـن دخلـوا في الإسلام تراث ومشاركة وإبداع منذ عصور خلــت، ولكنـه لم يصبـح عميقـا وهّاجـا إلا بالإسلام ، الذي امتدت فتوحه من الهند شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، مستقرا في بعـض بلدانها، مارا أو مجاورا بعضها الآخر.

وفي ذلك عظمة حضـارة الإسـلام حـين جمعـت بـين الوحـدة والتنـوع، الوحـدة: وحدة الروح، والتنوع في العلوم والفنون المتصلة بالحضارات الغابرة حـين أخـذت عنهـا وتركت منها ما لا يتناسب معهـا، فـأنتجت دولـة بمقوماتهـا، وأضـافت للفنـون طـلاوة، وللصناعات نهضة واقتدارا، ولأسباب الحياة أمنا وتقدما.

و نعني بالحضارة المادية الآثار الباقية، وهـي أقـوى دليـلا مـن الحضـارة المرويـة أو المكتوبة، أو المأخوذة بالفهم و الإستنتاج...

وإذا كان علماء تاريخ الحضارة يعتمـدون في دراسـاتهم علـى مخلّفـات الأمـم مـن التحف المنقولة من المتعة والأدوات وما إليهـا، ليتعرّفـوا بهـا علـى أحوالهـا وعاداتهـا ومـا كانت عليه في حياتها ومعيشتها اليومية، ويقيسوا بها درجاتها مـن التقـدم والتخلـف، أو من الأصالة والتقليد،ومبلغ إتصال هذا كله بالقدرة على تجويد الصناعة، وتنويع حاجـات المعيشة وحسن الفطنة والذوق السليم والمهارة الفنية.

وإذا كانت التحف المنقولـة لهـا هـذا القـدر عنـد جمهـور المهتمـين بقضايـا تـاريخ الحضارة، فليس من شك في أن التحف الثابتة –ونعني بها العمائر والمباني– لها قـدر أكـبر في استنباط الحقائق الثابتة التي لا تهاب ولا تحـابي، ومـن ثـم فقـد أضحـت العمـارة ومـا يماثلها من آثـار قائمـة في مقدمـة مـا يحـرص علمـاء تـاريخ الحضـارات علـى ا ستنطاقها والإستماع إليها، والوقوف على ما تخفي وما تعلن عند تدوينهم تراث الأقدمين.

ولعل من روائع الفن الإسلامي الذي خلّفته الأجيال منـذ فجـر الإسـلام، التحـف

العمرانية سيما منها المساجد الجامعة، والمدارس والزوايا بنورها الوضّاء واشعاعها الحضاري والروحي الوهّاج، دليلا على حضور المدنية الإسلامية في شتى الأمصار تنير سيرورة الإنسانية وركبها الزاحف نحو الرقي الروحي والتقدم الحيوي...

فمنها أشرق نور الإيمان، وتجلى العلم بجلاله لطالبه من غير احتكار ولا تضييق ولا تقتير، وقد أفرغت في قالب الجمال يظهر رونق الفن وبديع الصنع.

وتعدّ مدينة مازونة الشهيرة، الواقعة في غرب المغرب الأوسط، من أهم عواصمه الأولى، وتوجد بمكان تبرعت فيه الطبيعة بكل ما يحلم به القاطن والزائر من مياه وزرع وضرع وفواكه وخضر...وآثار لا تزال شاهدة على عراقة المدينة وعمقها التاريخي من خلال معالمها الموروثة، من مساجد وزوايا، ومدرستها الفقهية، وحمامات وأسواق شعبية، وصناعات وحرف تقليدية تحتفظ بأصالتها العريقة وامتداد جذورها في عمق الماضي.

ومن يقف أمام أحد هذه المعالم التاريخية، كالمدرسة الفقهية، تُظهر له ماكان للعلم من قدر وقيمة، وتخبره بالتطور الذي عرفه الأسلاف في ميدان الفكر والدين والأدب، فهي أقل ما يقال عنها تشبه المعاهد العلمية المتخصصة في الجامعات الحديثة، وهذا يدعو للتأمل والتفكير في هذا النمط من المؤسسات الذي يختلف عن المسجد والزاوية والرباط، وغيره من المنشآت الأخرى.

وعند ذكر مدرسة مازونة تتبادر إلى الأذهان تساؤلات عدة ،كدورها العلمي والثقافي وانعكاسات ذلك محليا وإقليميا طيلة العهد العثماني، ودورها في بناء جيل مُشبَّع بالثقافة المحلية لمواجهة وإحباط السياسات الإستعمارية القائمة على طمس هوية الأمة ومقوماتها،وغرس بذور التغريب والإستئصال.

كما يقف البحث على تحديد الطراز المعماري للمدرسة، وشخصيتها التي تميزها ضمن المدارس المغربية، ومدى تأثرها بالتيارات الفنية السابقة لها كمدارس تلمسان ولا يتأتى ذلك إلا بالدراسة الميدانية لهذا المعلم الحضاري.

والحقيقة أن شهية البحث كانت تزداد كلما استزدت في الجانب التطبيقي منه، سيما ما تعلّق بالمخططات والصور الفوتوغرافية والمقاسات، مع العناية الكبرى بالجانب التاريخي الذي أنار لي الطريق في تحديد مسار رحلة التغيرات والتأثيرات المعمارية والفنية، ورصد حركتها، وذلك بتحديد دور المدرسة والهدف الذي أُنشئت من أجله، وأهم التطورات التي طرأت عليها منذ ظهور أول مدرسة بالمغرب الإسلامي إلى إنشاء مدرسة مازونة ومحاولة تحديد معالم وهوية هذه المدرسة.

وبما أن مدرسة مازونة هي الوحيدة الباقية كمعلم أثري في الإقليم الغربي التي تمثل الفئة المبنية زمنيا، فهي المعلم الوحيد الذي نستطيع من خلاله الإجابة عن التساؤلات السالفة الطرح.

اتبعت في هذه الدراسةالمنهج التاريخي الوثائقي المبني على دراسة الظاهرة بالعود إلى أصلها، وإعتماد الوصف الدقيق، وتسجيل التطورات الحاصلة بتحليلها وتفسيرها وفقا للمنهج العلمي الذي يربط النتائج بالأسباب والعوامل، والذي اعتمدت فيه على تقصي نشأة المدرسة في بلاد المغرب ومراحل تطورها حتى نهاية العهد العثماني، وإبراز تاريخ مدرسة مازونة ودورها العلمي والثقافي.

والمنهج الوصفي التحليلي، والمنهج المقارن في الدراسة الفنية، وذلك للتعمق في كشف أوجه التشابه والإختلاف بين طرازين مختلفين من المدارس.

ينقسم البحث إلى مدخل وثلاثة فصول.

يَعرِضُ المدخل جغرافية وتاريخ مازونة، و الحياة العامة (إقتصاديا، إجتماعيا) للمدينة حتى نهاية العهد العثماني.

ويعالج الفصل الأول المدرسة في بلاد المغرب: نشأتها وتطورها، حتى نهاية العهد العثماني ، وجذور المدرسة ونشأتها ثم تطورها ببلاد المغرب الإسلامي حتى نهاية الفترة العثمانية، وأخيرا مدرسة مازونة بين النشأة والتطور حتى نهاية العهد الإستعماري.

ويقف الفصل الثاني على التعليم والعلماء بمدرسة مازونة في العهد العثماني ونظام

التعليم في المدرسة، والحياة الثقافية والفكرية التي عرفتها المدرسة ثم أهم المراكز الثقافية التي توفرت عليها المدرسة إبان العهد العثماني، وأخيرا قراءة لأهم أساتذتها وشيوخها وعلمائها.

أما الفصل الثالث فكان للدراسة الوصفية لهياكل المدرسة، ثم دراسة تحليلية للعناصر المعمارية والزخرفية الموجودة فيها، ويخلص هذا الفصل بمقارنة بين مدرسة مازونة ومدرسة سيدي أبي مدين بتلمسان.

وينتهي البحث بخاتمة تتضمن النتائج المتوصل إليها، وبمجموعة من الملاحق المتصلة بموضوع البحث.

المدخل

التعريف بمازونة

I– الإطار الطبيعي لمدينة مازونة.

II–الإطار التاريخي لمدينة مازونة.

III– الحياة العامة لمازونةفي العهد العثماني.

1–الحياة الإقتصادية

2–الحياة الإجتماعية

شهد المغرب العربي بسقوط الأندلس عام 1492 م أحداثا سياسية و عسكرية خطيرة تندرج ضمن الحروب الصليبية في المشرق منذ ق 11 م.

و قد تعرض مسلموا الأندلس إلى مؤامرات الإبادة و السجن و التنصير بتخطيط من الكنيسة و ملوك الإسبان، الأمر الذي دفع بهم للإستنجاد بإخوانهم على الشواطئ المغربية المقابلة، فاندفعت السفن من المغرب الأوسط ،و مراكش إلى السواحل الإسبانية، مُلبية نداء الواجب المقدس.

وأصبح لتدفق الأندلسيين أثره على الحياة الإقتصادية و الفكرية و الثقافية لبلاد المغرب، حيث انتشرت الصناعة و الحرف التقليدية بامتزاجها بالصناعة المحلية، كما انتشرت المدارس و الزوايا و المساجد و الكتاتيب في معظم المناطق التي أهلها الأندلسيون، و أحدثوا ثورة فكرية و ثقافية في معظم الحواضر الجزائرية كتلمسان و معسكر و مستغانم و مازونة و الجزائر و بجاية و قسنطينة... و حملوا لواء التعليم بمراحله، حتى أصبح جل الجزائريين يحسنون القراءة و الكتابة و هو ما أثار حفيظة الفرنسيين.

I- الإطار الطبيعي لمدينة مازونة:

لم تنل الدراسة الجغرافية لمدينة مازونة ما نالته الدراسة التاريخية عند القدامى و المحدثين، و لعل ذلك يعود إلى تسارع الأحداث السياسية و عدم الإستقرار الذي ساد المنطقة لقرون عدة، و إلى اهتمام المفكرين بتدوين المستجدات في شكل كتابات تاريخية خوفا من ضياعها، أما الجانب الجغرافي فقد كان شبه غائبا باستثناء بعض الكتابات التي لم تتعد الوصف الطبيعي للمنطقة، و عليه فسيحاول هذا البحث إماطة اللثام عن بعض الخصائص الطبيعية كالموقع و التضاريس و المناخ.

1- موقع مدينة مازونة:

يعتبر الموقع من أهم الضوابط المؤثرة في دراسة المراكز العمرانية و غيرها من الدراسات، و لعل ذلك يرجع إلى التأثير المباشر للموقع على حياة الإنسان و إستقراره في

أماكن محددة.[1]

إن اختلاف سطح الأرض و تباينه يؤدي إلى إيجاد قيم مكانية متفاوتة يقوم الإنسان باختيار الأنسب منها لأغراضه السكنية، و يمكن دراسة موقع المدينة من حيث:

1-1 الموقع الفلكي:

يتحدد الموقع الفلكي في نقاط تقاطع خطوط الطول مع دوائر العرض ، و تتحدد مدينة مازونة فلكيا بين دائرتي عرض 36,03° و 36,07° شمال خط الإستواء و خطي طول 0,45° و 0,53°[2] شرق خط غرينتش، و هي بذلك تعد بوابة الإقليم الغربي الجزائري.

1-2. الموقع الإقليمي:

تتوسط مدينة مازونة بموقعها الفلكي الإقليمين الغربي و الأوسط للجزائر،وهي بذلك تمثل القسب النابض للإقليم، نظرا للدور المهم الذي تلعبه في فك العزلة عن المنطقة الجبلية و اعتبارها كمنفذ للمنطقة الغربية المتاخمة للمدينة ذات الطابع الريفي المحض، حيث تبعد عن مركز ولاية غليزان بـ 66 كلم،و حوالي 200 كلم عن عاصمة الإقليم الغربي وهران،و230 كلم عن عاصمة الإقليم الأوسط الجزائر العاصمة، كما أنها تبعد بمسافة 55 كلم عن قرية القلتة[3] الساحلية.

تتصل حدود البلدية بثلاث بلديات و هي : سيدي أمحمد بن علي من الشمال والقطار من الغرب و واريزان من الجنوب، إلى جانب بلدية عين امران التابعة لولاية الشلف. هذا ما يجعلها تحتل موقعا إقليميا استراتيجيا هاما في المنطقة[4] .

---

[1] محمد بن بلول، فتيحة جيلالي: دراسة عمرانية لمدينة عتيقة، حالة مازونة من التكامل و الإندماج إلى الفوضى العمرانية، مذكرة تخرج لنيل شهادة مهندس دولة في التهيئة العمرانية، سنة 1998، مكتبة قسم الجغرافيا و التهيئة العمرانية، جامعة وهران، ص14.

[2] مصطفى الظريف، خالد كرارمة : دراسة التوسعات العمرانية الحديثة لمدينة مازونة، مذكرة تخرج لنيل شهادة مهندس دولة في التهيئة العمرانية، سنة 2001، مكتبة قسم الجغرافيا و التهيئة العمرانية، جامعة وهران ، ص15.

[3] القلتة: قرية ساحلية تقع في أقصى الحدود الغربية لولاية الشلف، انظر الخريطة رقم (01)

[4] محمد بن بلول ، فتيحة جيلالي: مرجع سابق، ص15.

3-1. الموقع الإداري:

ظهرت بلدية مازونة على الساحة الجغرافية، نتيجة للتقسيم الإداري الصادر سنة 1974، و صنفت من بين البلديات المهمة آنذاك، و هذا نتيجة للموقع الجغرافي الإستراتيجي الذي تتميز به، و لامتداد نسيجها العمراني العتيق بالحديث، دون أن ننسى الدور التاريخي الذي تميزت به المدينة دون سواها من حواضر و مدن الإقليم الغربي، ثم ارتقت البلدية فيما بعد إلى صف دائرة من دوائر ولاية غيليزان بعد التقسيم الذي صدر سنة 1985.

تتربع مازونة على مساحة تقدر بحوالي 41 كلم^2، أي ما يعادل 0,86 %من المساحة الإجمالية للولاية، و التي تقدر بـ 4800 كلم^2، و عليه فإنها تتحدد جغرافيا في أقصى الجزء الشرقي لإقليم وهران المتواجد ضمن الإقليم الغربي الجزائري، أما موقعها بالنسبة للولاية فيتحدد في أقصى الشمال، و تتصل حدودها بثلاث بلديات و هي سيدي امحمد بن علي شمالا و القطار غربا، و وريزان جنوبا، وبلدية عين امران التابعة لولاية الشلف شرقا، هذا ما جعلها تحتل موقعا إقليميا استراتيجيا في المنطقة، باعتبارها منفذا حساسا للبلديات المجاورة[1] .

2-التضاريس:

يمكن تقسيم منطقة مازونة من حيث تركيبها السطحي إلى منطقتين:

1-2. المنطقة الجبلية:

المتتبع لمظاهر سطح مازونة يلاحظ أن حوالي 40% من مساحتها تتمثل في المنطقة الجبلية الوعرة خاصة في أقصى الشمال و الجنوب الشرقي، حيث يتراوح متوسط ارتفاع أعلى قمة ما بين 400 م إلى 700م، مما يدل على وجود انحدارات كبيرة، دفعت إلى ترافد عدة أودية، و التي تزيد في عملية إنجراف التربة، حيث أن هذه المرتفعات غير مستغلة

---

[1] انظر الخريطة رقم (02)

زراعيا، و هذا لطبيعة أراضيها من جهة، و شدة انحداراتها من جهة أخرى، إلا أنها تشكل مراعي هامة للحيوانات، لامتلاكها ثروة نباتية هائلة وتتمثل أساسا في الغابات التي تطغى عليها أشجار الكاليتوس، إلى جانب الأشجار المثمرة كالمشمش، و الرمان والزيتون و اللوز و غيرها، بينما هناك العكس في المنطقة الشرقية و الجنوبية الغربية التي تتواجد فيها السهول بارتفاع أقل من 350 م.[1]

2-2 المنطقة السهلية:

هي عبارة عن مجموعة من السهول المرتفعة تمتازبتوازن انحدارها ،و هدوء معالم سطحها، و تشمل سهل قري الشاسع الذي يتربع على مساحة قدرها 3237 هكتار، و يقع على ارتفاع 327 م، و هو محدد بتلال سيدي امحمد بن علي، و مازونة من الجهة الجنوبية و الجنوبية الغربية و الجنوبية الشرقية، و منحدر " كاف شكور" الذي يصل ارتفاعه إلى 578م، و بالتالي يشكل هذا السهل حوضا واسعا في الأسفل.[2]

II- الإطار التاريخي لمدينة مازونة:

هي بلدة عريقة عتيقة أسست في قلب جبال الظهرة منذ عدة قرون في موقع متميز وافر المياه، كثيف الغابات متحصن، يراقب الطريق بين المشرق و الغرب، و لهذا رنا إليها حكام المغرب عبر العصور، حتى مستها حروب تكاد لا تنتهي، فعانت من التصارع و التنازع منذ أيام ملوك أفريقية ،فالمرابطين و الموحدين و بني زيان أصحاب تلمسان، ثم أتراك الجزائر الذين خطوا منها أول بايلك لهم في غرب البلاد، و بعدهم قام الأمير عبد القادر وضمها لمملكته،ليستولي عليها الفرنسيون بعد سقوط دولة الأمير.[3]

---

[1] مصطفى الطريف، خالد كرامة: مرجع سابق، ص18.

[2] Djilali Sari: les villes precoloniales de l'Algérie anxidentale : Nedroma - Mazona- Kalaâ., 1978 Alger P22.

[3] مولاي بلحميسي: دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية و الثقافية من ق15 إلى منتصف ق20. في مجلة العصر ، ع11، 01 أكتوبر 1997 ، الجزائر، ص08.

1- لماذا سميت مازونة؟

ما تزال الإشكالية مطروحة حول مصدر تسمية كلمة " مازونة" ، شأنها في ذلك شأن معظم المدن التاريخية في شتى البقاع، مما أدى إلى ظهور عدة فرضيات تحاول إعطاء الأصول الحقيقية للتمسية.

فهناك من اعتبر كلمة مازونة مصطلح بربري يعني أرض الرجال الأقوياء، و هناك من يقول أنها "ماسينا"، و هي بذلك مدينة رومانية بسبب أثرين اكتشفا بها، بينما يرى آخرون أن مازونة أسسها "مانع" الذي تزوج أميرة بربرية تدعى " مازونا"، و تعني أسماء أخوين بربريين أحدهما " مازونا" و الآخر " مديونا"، أما بطليموس 146 ق م ، فيرى أنها مملكة كانت تابعة لنوميديا في عهد ماسينيسا[1] ،و يعتقد آخرون أن "مازونة" كلمة تعني " ماء زونة"، نسبة لإبنة ملك تسمى " زونة"، حيث حط الرحال بجبال المنطقة و طلب من رجاله أن يحضروا ماء لإبنته، فلما وجدوا المنبع حرموه على الغير، و قالوا هذا "ماء زونة".[2]

و يذهب آخرون في تأصيل كلمة مازونة إلى أميرة كانت تحكم المدينة و تملك كنزا كله من قطع نقدية تسمى " موزونة"[3] . فيما ينسب أحدهم المدينة لقبيلة زيانية وبالتحديد لأحد أسلافها يدعى " مازون".[4]

و يبقى الجدل قائما و الإحتمالات واردة عن مصدر و معنى تسمية " مازونة" نظرا لما ذكر في الكتابات،و ما جاء في الروايات الشفوية.

---

(1) م. بوغرارة: موعد للبحث عن الحلقة المفقودة في جريدة الخبر، 13 جوان 2001م، الجزائر ص 19 .

(2) محمد عباس: الدور العلمي و الاجتماعي السياسي لمدرسة مازونة الفقهية، دراسة مونوغرافية ما بين القرن 15 م و 19 م، مذكرة تخرج في علم الإجتماع السياسي، سنة 1997، مكتبة قسم علم إجتماع جامعة وهران، ص15.

(3) Youcef Loukil: MAZOUNA (Ancienne capitale de dahara), imprimerie Algérienne , 1919, P13.

(4) محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم و تحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر، ش، و ، ن ، ت 1978، ص55.

2- نشأة مدينة مازونة:

لم يجمع المؤرخون و الرحالة العرب و الجغرافيون على تحديد الفترة الزمنية والظروف التي ساعدت على تأسيس المدينة، و نجم عن ذلك بروز موقفين مختلفين.

فريق يرى أن مازونة مدينة تاريخية عايشت العهد الروماني، ويستدلون على ذلك بالعثور على آثار و قطع نقدية رومانية بالمنطقة، من طرف الرحالة الإسباني " مرمول" بعد قيامه بجولة عبر المغرب العربي خلال القرن 16م[1] ، و يؤيد هذا الطرح كثير من الرحالة العرب و الجغرافيين[2] ،و بعض المؤرخين المحدثين، الذين يستدلون على عراقة المدينة من خلال الكاتب اللاتيني" بلان" الذي عاش في القرن الأول من العهد المسيحي و ركز في كتاباته عن نوعية وجودة قمح الظهرة (منطقة مازونة")[3] .

أما الفريق الثاني من المؤرخين، فيرجعون تأسيس المدينة إلى ما بعد فترة الفتوحات الإسلامية في بلاد المغرب، فنجد عبد الرحمان بن خلدون يذكر تأسيسها خلال القرن الثاني عشر ميلادي على يد عبد الرحمان زعيم مغراوة،[4]ويوافقه في ذات الرأي عدة مؤرخين،ومما جاء في قول أحدهم : "... ثم سافرت أول صومي لـ "مازونة" مدينة مغراوة، بناها منديل بن عبد الرحمان منهم أول القرن السادس هـ/12م..."[5]

ومن جهة ثانية يذهب الكاتب الإنجليزي " شاو "في قوله أن مازونة أسست من طرف الأهالي، وذلك من خلال بناياتها التي تشبه القلعة، وهو بذلك يعارض المؤرخين الذين يرجعون تاريخ تأسيسها إلى العهد الروماني مشترطا وجود آثار وبنايات ترجع إلى

---

[1] محمد عبلي: مرجع سابق، ص16.

[2] أنظر الصفحة (13 وما بعدها) من هذا البحث.

[3]Moulay Belhamissi : op cit. p 28.

[4] عبد الرحمان بن محمد بن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج7 منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات، بيروت، لبنان، 1971، ص 64.

[5] محمد ابوراس الجزائري : فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته " حياة ابي راس الذاتية و العلمية " تحقيق وتعليق محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1990، ص 20.

هذا العهد،[1] إلا أن الإكتشافات التي تمت فيما بعد بيّنت أن " شاو" كان على خطأ، فالإدريسي بتحديداته وتفاصيله يبين أن المدينة كانت موجودة منذ القدم ببضعة قرون قبل الإسلام، كما توضح البقايا الأثرية التي ثم العثور عليها بالمنطقة، مؤكدة بذلك الطرح القائل بأن مازونة كانت مركزا بربريا، و إقامة قديمة لرئيس قبيلة " الماسون" المعروف باسم "رجيس ماسينغ جانتيس" و ذلك حسب ما عثر عليه من آثار و بقايا الصناعة الموستيرية بوادي تامدة ووزيران ،و كذلك أطلال بربرية تحت القمة الشمالية الغربية لجبل بسيدي سعيد الواقع غرب سيدي امحمد بن علي بـ 15 كلم، كما عثر أيضا على بقايا متنوعة من الفخار البربري بعين ابراهيم[2] .

و تبقى كل الاحتمالات واردة بشأن تأسيس المدينة بين العراقة و الحداثة، إلا أن الأدلة و شهادات الجغرافيين و الرحالة العرب توحي بأنها عاصرت التواجد الروماني و ملوك البربر.

3- تطور المدينة:

استطاعت الفترة العثمانية في الجزائر أن تغطي التاريخ الطويل الحافل لمدينة مازونة حتى أصبح الكثير يحصر عراقة المدينة بالفترة الحديثة من خلافة آل عثمان. بينما يؤكد جل المؤرخين أنها شهدت تعاقب عدة عصور و حضارات،و كانت مسرحا لكثير من الأحداث بين الملوك و القادة.

1-3. مازونة في العهد الروماني:

يرجع كثير من المؤرخين تأسيس المدينة إلى ما قبل التواجد الإسلامي في بلاد المغرب، إذ عرفت عاصمة الظهرة التواجد الروماني في كثير من مناطقها، و تشهد على ذلك تلك الآثار التي حفظها التاريخ[3] .

---

(1) Moulay Belhamissi : op cit. p 26.

(2) الطاهر م، مازونة مهد العلم و الحضارة في غليزان أحداث، ع7، ماي 1995، غليزان ، ص12.

(3) Marcel Flaurencier: Terre Algérienne (Mémoire d'un colon), Edition France Afrique- Alger 1932 -P38.

فيما يذهب آخرون إلى أنها كانت مركزا بربريا و مقرا قديما لرئيس قبيلة الماسون و ذلك من خلال المخلفات الآثرية للإنسان الموستيري،و الأسماء البربرية لثلاثة من أحياء المدينة و هي : تاسرت (Tasserte) و أحدير (Adjedir) و أدليل (Adelil)[1] و بفضل البربر و ما خلفوه وراءهم من حدائق الرمان و التين والخروب و الزيتون و كل ما تشتهيه النفس من فواكه، جعلت المؤرخين و الرحالة يهيمون بها، و ينزلونها أحسن المنزلة.

2-3. مازونة في العهد الإسلامي:

و صلت الفتوحات الإسلامية بلاد المغرب منذ القرن الأول الهجري، و كان ذلك على يد عقبة بن نافع الفهري، فاعتنق سكان مازونة الدين الجديد كباقي أهالي المنطقة[2]

كان للفتوحات الإسلامية في بلاد المغرب و قعها الكبير على المنطقة، إذ استطاعت مازونة أن تحدث قفزة علمية كبيرة من خلال المراكز العلمية و الزوايا التي بلغ عددها خمسة مراكز عليا، إضافة إلى الكتاتيب التي كانت منتشرة في معظم أحياء المدينة فنجم عن ذلك بروز علماء و شعراء و فقهاء في الدين، كما انتشرت المكتبات و تعددت حتى بلغت زهاء العشرين مكتبة[3] .

و في عهد الموحدين تذكر بعض المراجع أن مازونة ساهمت بإعداد الجنود الأقوياء لمساندة عبد المومن بن علي مما ساعد على امتداد نفوذ الموحدين على سهل شلف كله.

كما تذكر الكتابات التاريخية، أن بوفاة زعيم مغراوة " عبد الرحمان بن الأنعس" خلفه منديل الذي قتل بعد ذلك على يد "يحيى بن غانية" سنة 623 هـ /1225 م، و بعد هذه الفترة استولى أبناء منديل على زعامة مغراوة،و عينوا أخاهم الأكبر العباس الذي انتهج طريقة أبيه في الحكم، و في عام 645 هـ /1249 م تقلد أخوه محمد سدة الحكم فقاد قومه في حرب ضد ابن التوجين، فهزمهم هذا الأخير في جبل وانشريس

---

[1] Youcef Loukil, op, cit, P14.

[2] الطاهر .م: مرجع سابق، ص12.

[3] Youcef Loukil , op, cit, P16.

بضواحي المرية، و انقبضوا إلى مركزهم الحصين بمازونة التي تعد مكان استراتيجي و مكثوا فيها طويلا، حتى اعتبرهم الكثير أنهم السكان الأصليين للمدينة مع العرب المسلمين[1] . و حدث أن أضرمت نار العداوة بين آل زيان و مغراوة، فنهض إليهم " أبو ثابت" في شوال، و التقوا في عدوة " وادي ارهيو" ، فاقتتلوا،و كانت الهزيمة لمغراوة فاستولى القائد الزياني " أبو ثابت" على معسكرهم بمازونة و بعث بيعتها إلى أخيه السلطان " أبي سعيد"، و بهذا تسقط المدينة كعاصمة بزوال عرش مغراوة على يد بني زيان[2] .

3-3 مازونة في العهد العثماني:

لبثت مازونة تحت إمرة القبيلة البربرية القوية " مغراوة"لعدة قرون[3]، شأن معظم المدن المجاورة لها، و مع مطلع القرن السادس عشر عرفت المدينة تحولا سياسيا كبيرا بانتقالها كعاصمة للبايليك الغربي من خلال التقسيم الإداري في عهد البايلرباي حسن بن خير الدين بربروس، و عين ابن خديجة أول باي على البايلك الغربي عام 1563.[4]

تذكر بعض المراجع أن سكان مازونة لم يستسلموا للعثمانيين في بادئ الأمر بل ناضلوا و دافعوا عن حريتهم قرابة نصف قرن من الزمن ، و انتهى بتسليم المدينة، و إقامة الحكم العثماني و تعيين الباشا بدل المهال لمدة سنتين[5] ، و بمقتضى التقسيم الإداري القاضي بتقسيم البلاد إلى ثلاثة بايلكات، اعتبرت مازونة كعاصمة لبايلك الغرب.

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون : كتاب العبر، مصدر سابق، ص ص 66، 67.

[2] محمد بن عمرو الطمار : تلمسان عبر العصور ، دورها في سياسة و حضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص139.

[3] هاينرش فون مالستان : ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا، ترجمة أبو العيد دودو، ج1، ش، و، ن، ت، الجزائر 1976، ص234.

[4] محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم و تحقيق ، محمد بن عبد الكريم، ط2، ش،و،ن،ت، الجزائر 1981، ص36.

[5] Youcef Loukil , op. cit, P17.

لعبت المدينة دور هاما كعاصمة للإقليم، و ساهمت بعدة حملات عسكرية ضد الاحتلال الإسباني لوهران،و ذلك طيلة الفترة الممتدة من 1563 إلى غاية 1791، حيث توفي آخر باياتها – الباي شعبان – وهومحاصرا وهران 1696.[1]

ومما جاء في هذا الصدد قول أحدهم :" ... مازونة ،و أول باياتها حسن بن خير الدين باشا و سلم في وظيفه ، ثم أبو خديجة، ثم صواق و مات مسموما من سم سقته له زوجته، ثم السايح و بقي في الملك إحدى عشر سنة و مات، ثم ساعد، و منه إلى محمد بن عيسى، تولى بمازونة عشرة بايات،و ذهب عن حفظي ما تعلق به منهم، ثم محمد بن عيسى و هو السادس عشر من باياتها، ثم شعبان الزناقي الذي توفي بالجهاد في وهران."[2] ، و يفهم من هذا أن مازونة تداول على حكمها سبعة عشر بايا في زهاء قرن ونصف القرن.

وكان لمازونة خلال الإحتلال الإسباني للشواطئ الغربية من البلاد دورا رائدا في قيادة الجهاد ضد الإسبان، إذ تذكر المراجع بعض الحملات التي شارك فيها الأهالي للجهاد في وهران، و منها تلك التي قام بها " حسان باشا" عام 1568 و حملة " بوشلاغم عام 1708، وحملات أخرى في عهد " الباي عثمان" إستمرت إلى غاية طرد الإسبان من ميناء وهران.[3]

بقيت مازونة عاصمة بايلك الغرب إلى أواخر القرن 18م، بعدها قام " مصطفى بوشلاغم"[4] بنقل مقرها إلى معسكر ثم إلى وهران بعد تحريرها من الإسبان. و أصبحت

---

[1] فتيحة الواليش: الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال ق 18 ، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث 1994، مكتبة قسم التاريخ ، جامعة الجزائر، ص48.

[2] بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و إسبانيا و فرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق و دراسة يحيى بوعزيز، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان1990 ، ص271.

[3] الطاهر .م: مازونة مهد العلم و الحضارة ، في مجلة غيليزان الأحداث، ع8، جوان 1995، غيليزان ، ص11.

[4] هو يوسف المسراتي مصطفى الملقب ببوشلاغم، تربى في قصر الداي بكطاش خوجة ،داي الإيالة في تلك الفترة،و كان يكن محبة كبيرة لبوشلاغم، فانتقاه بايا لبايلك الغرب ، عرف بايلك الغرب عهدا جديدا مع مجيء بوشلاغم سنة 1700 حيث قام سنة 1701 بنقل مقر البايلك من مازونة إلى معسكر، وذلك لكونها مقرا يتوسط البايلك " بين مازونة و تلمسان". راجع

مازونة مقر " أغاليك" و هو مركز لدائرة إقليمية يترأسها " آغا" يتم تعيينه من طرف الباي.[1]

احتفظت المدينة طيلة العهد العثماني بطابعها الاقتصادي و الفكري و الديني حيث قام البايات بترميم و توسيع المدرسة، فازداد التوافد عليها للعديد من الطلبة من كل أنحاء البلاد حتى وصل عددهم القرابة 700 طالب لمتابعة دراستهم في عدد من التخصصات،[2] كما استفادت المدينة من مراكز ثقافية و علمية أخرى سواء على المستوى المحلي أو الخارجي،و يعكس هذا الإشعاع نموا و ازدهارا اقتصاديا و بروز فئات اجتماعية كان لها دور فعال في تنشيط الحياة الإقتصادية و النهوض بالحياة الثقافية و العلمية[3] ،و هنا لا بد من الإشارة إلى دور المدرسة الفقهية في إرساء الثقافة و العلم،و التي وصل الأمر بأحد المؤرخين الفرنسيين إلى إدراجها ضمن الجامعات المتخصصة في تدريس القانون الإسلامي،و التي كانت في صدارة المدارس و المراكز العلمية في كامل الإقليم الغربي الجزائري منذ القرن السادس عشر ميلادي، و إلى نهاية القرن الثامن عشر ميلادي[4] .

ربطت بعض المراجع بين سخط الأهالي على العثمانيين وتأسيس المدرسة، حيث عملت على استمالتهم بتأسيس مركز إسلامي على يد الشيخ الأندلسي سيدي محمد ابن الشارف، الذي أشرف على بناء قاعة واسعة تتسع لعدد هائل من الطلبة فوق الستين ودون الثمانين في بداية الأمر، ثم عملت السلطة على توسيع المدرسة في عدة مناسبات وإهداء عدة كتب من طرف البايات كعربون محبة، و جزاء وقوف الشيوخ إلى جانبها في تهدئة الوضع و حروبها ضد الإسبان، منها كتاب صحيح مسلم الذي أهداه الباي عثمان

ـذلك في يحي بوعزيز: مدن تاريخية – وهران– المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية 1985، ص22.

[1] الطاهر .م: مرجع سابق، ص11.

[2]Djilali Sari, op, cit, P48.

[3] فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص48.

[4]Onésime Reclus: Zaouia de Mazouna lerceau del'ordre des Senoussi -Algérie et tunisie, Librairie Hachette générale 1909, Paris P29.

1212 هـ /1801م[1] للشيخ أبي طالب المازوني.

و تبقى الأقوال متضاربة بشأن تأسيس المدرسة و الوضع العام السائد أثناء بداية التواجد العثماني في الجزائر،و هنا تجدر الإشارة أنه بغض النظر عن الدوافع و الأسباب التي أدت إلى تأسيسها، فإنها أحدثت قفزة علمية و فكرية في المنطقة بكاملها و استطاعت أن تخرج علماء و فقهاء ضاهوا بعلمهم خريجي الزيتونة و القرويين و حتى الأزهر، بل تفوقوا عليهم في كثير من الأحيان، مثل الشيخ أبي راس المعسكري و الشيخ محمد بن علي السنوسي...إلخ.

4-3 مازونة بعد 1830:

عند تعرض الجزائر للغزو الفرنسي عام 1830 شارك سكان مازونة في المقاومة الشعبية بقيادة الأمير عبد القادر، الذي أعاد النظر في التقسيم الإداري العثماني، حيث قسم الدولة إلى عدة مقاطعات إدارية تخضع إلى نظام تسلسلي: الخليفاليك – الأغاليك- القايدا- ثم الشيخة، فعينت مازونة مركزا " قايدا" يرأسها قايد[2] ، لتبدأ العمليات الجهادية ضد مصالح الاستعمار الفرنسي، ففي 1838 قاد الجيش المازوني سي قدور ابن هاسف تحت لواء الأمير عبد القادر، وبعد استشهاده خلفه سي عبد القادر 1840 في أكثر من مائتين بين فارس و راجل، لتستمر المقاومة في منطقة الظهرة حتى استسلام الأميرعبد القادر و نفيه إلى سوريا 1848.

لم تكتف السلطات الاستعمارية بنهاية المقاومة كتنظيم في منطقة الظهرة، بل عملت على طمس تاريخ المنطقة بإنشاء القرية الكولونالية " رونو" « Renault » على بعد أقل من 5 كلم من مازونة في الفترة الممتدة بين 1830 و 1882، و توفير المدارس و المرافق الضرورية بها حتى تستقطب الأهالي إليها، مع منع خريجي مدرسة مازونة من الوظائف

---

[1] Jaques Berque: Retour de Mazouna (annales, Economique, société, civilisations) , 27 ème Année N°1, janvier - Fevrier 1972, P153.

[2] الطاهر .م./: مازونة مهد العلم و الحضارة، مرجع سابق، ع8، ص11.

العمومية خاصة إذا علمنا أن الأميرال "ديبورمون" أصدر مرسوما يوم 08 سبتمبر 1830 يقضي بمصادرة الأوقاف الإسلامية و الإستيلاء عليها، ثم يوما بعده قرارا استفاد بموجبه من حق التصبرف في الأملاك الدينية بالتأجير و الكراء[1] .

و من جهة أخرى عمل عدة قادة عسكريين فرنسيين على استرضاء سكان المنطقة و شيوخ مدرستها كمحاولة منهم لإنهاء المقاومة بترميم المدرسة عدة مرات، مثل ما أقدمت عليه السلطات في عهدنا بليون الثالث بإعادة بناء المدرسة (1852–1870)[2] و الإهتمام بعلمائها، إلا أن هذه الإلتفاتة لم تشفع للفرنسيين كوارثهم في المنطقة، إذ شوهوا معالمها و قضوا على عدة رموز لحضارات تعاقبت عليها، كما أخضعوا مازونة للتقسيم العسكري شأنها شأن الجنوب الجزائري،و خربوا جل زواياها و مناراتها العلمية و مساجدها، مما أدى إلى تشويه كلي للروح و الطابع العمراني للمدينة التي كانت قبلة للعلم و الثقافة يقصدها العلماء و الطلبة من المشرق و المغرب لطلب العلم و الفقه الإسلامي بمساجدها و زواياها و مدارسها و كتاتيبها التي كانت متواجدة بكل حي[3]، و منها مسجد سيدي عيسى و عزوز، مسجد الغريب عودة، بوعلوفة، القصبة، بوماتع و الزاوية السنوسية و التيجانية و القادرية و الجيلانية و سيدي علي بلحسن...

4- مازونة في كتابات الجغرافيين والرحالة العرب:

نالت مازونة قسطا وافرا من اهتمامات القدامى العرب في كتاباتهم التي ظلت معلما راسخا يشهد على عراقتها، و الدور الهام الذي لعبته كمدينة، و كحضارة ساهمت في تغيير مجرى الأحداث،و في البناء الحضاري للأمة من خلال مراكزها العلمية و الثقافية وحتى السياسية،باحتضانها أكبر مركز سياسي في الإقليم طيلة قرن و نصف من الزمن.

---

[1] مصطفى الظريف، خالد كرارمة: مرجع سابق، ص33.

[2] مولاي بلحميسي: مرجع سابق، ص09.

[3] م. بوغرارة : مرجع سابق، ص19.

كتب عنها الجغرافي العربي الشهير بالشريف الإدريسي : " ... ويلي حوض فروج في البر مع الشرق مدينة مازونة على ستة أميال من البحر،و هي مدينة بين أجيل،و هي أسفل خندق و لها أنهار و مزارع و بساتين و أسواق عامرة،و مساكن مونقة و لسوقها يوم معلوم، يجتمع إليه أصناف من البربر بضروب من الفواكه و الألبان و السمن و العسل كثير بها، و هي من أحسن البلاد صفة و أكثرها فواكه و خصبا"[1] . يستشف من وصف مازونة بأنها مركزا مهما في المنطقة و معظم قاطنيها كانوا ميسوري الحال من خلال المساكن المونقة و المزارع و البساتين، كما يفهم من خلاله أن التجارة كانت نشيطة، و معروضات السوق الأسبوعي توحي بأن التجار كانوا يتوافدون إلى المدينة من مختلف المناطق لتسويق بضائعم، و هذا يدل على المكانة المرموقة التي حازتها المدينة في قلب جبال الظهرة.

أما الرحالة العربي المغربي المعروف بليون الإفريقي،فيصف المدينة :" ... مازونة مدينة أزلية بناها الرومان – حسب قول بعضهم – على بعد نحو أربعين ميلا من البحر، تمتد على مسافة شاسعة،و تحيط بها أسوار متينة، لكن دورها قبيحة فقيرة، و فيها جامع و بعض مساجد أخرى، لقد كانت مدينة متحضرة جدا في القديم، لكنها كثيرا ما تعرضت للتخريب من قبل ملوك تونس تارة و من قبل الثوار تارة أخرى، و بالتالي من الأعراب، حتى أصبحت اليوم قليلة السكان،و هم إما نساجون أو فلاحون، و جميعهم تقريبا فقراء، لأن الأعراب يثقلون كواهلهم بالإتاوات، و الأراضي المزروعة جيدة تعطي غلة حسنة، و يشاهد بقرب المدينة أماكن خربة مما كان بناه الرومان – لا تحمل أي إسم معروف لدينا – لكن يدل على أصلها الروماني العدد الوافر من الكتابات المنقوشة على

[1] محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالشريف الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، مصر 1994، ص ص ، 271،272.

أنظر أيضا – محمد حاج صادق: المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق للإدريسي، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص ص ، 128،129.

قطع الرخام، و لم يذكرها قط مؤرخونا الأفارقة "[1] ..

من خلال هذا الوصف نستنتج أن حسن الوزان زار المنطقة في الفترة التي أعقبت سقوط الموحدين،و انقسام بلاد المغرب إلى ثلاث دويلات متصارعة فيما بينها، فكانت مازونة مسرحا لعدة معارك خاصة بين مغراوة و الزيانيين، فنجم عن ذلك خراب كبير[2] ، لكن في المقابل يعترف بماضيها المجيد و بجذورها الرومانية.

ويذكرها أيضا الزياني في رحلته، قائلا "...إن إسم مازونة ينسب لقبيلةزيانةوبالتحديدلأحد أسلافها يدعي "مازون"...أما مدينة مازونة فأسسها أمير بني راشد عام ستين و مائة هـ ..وحطمتةعام 665 هـ..."[3]

ويفهم من كلام هذا الأخير أن المدينة لم تكن قائمة قبل مجيئ الإسلام، بل هي نتيجة للفتوحات الإسلامية في بلاد المغرب، و لم يتعرض إلىتاريخها الطويل،اكتفى بالنشأة وأفولها كحضارة عمرت قرابة الخمسة قرون.

فيما يتعرض إبن خلدون لتاريخ مازونة منذ نشأتها،والتي يرى أنها كانتما بين 623 هـ و647 هـ أثناء ولاية العباس بن منديل بن عبد الرحمان، وبعد وفاته 645 هـ،جاأخوه محمد و أتم بناء المدينة التي شهدت صراعات و حروب دامية بين آل مغراوة والزيانيين بتلمسان و الحفصيين بتونس[4] .

و هناك وصف دقيق لمازونة لمؤلف مجهول، كثيرون أنسبوه للوزاني ، لكن لم نجد له أثرا في كتاب"وصف إفريقيا "المتوفر بطبعته السالفة الذكر، و للإفادة إرتأينا أن نذكره كما وجدناه ، إذ يقول : "... إنها مدينة صغيرة و جميلة جدا، تجتمع فيها ملامح الجمال لأكثر من مدينة ، توجد فوق ضفتي واد يجري ينتهي إلى نهر الشلف بها بساتين جميلة

---

[1] الحسن محمد الوزان الفاسي : وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية، محمد حجي، محمد الأخضر ، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1983، ص36.

[2] الطاهر .م: مازونة مهد العلم و الحضارة، ع7، ص12.

[3] محمد بن يوسف الزياني: مصدر سابق، ص55 و مابعدها

[4] عبد الرحمان بن خلدون : كتاب العبر، ج7، ص 64 و ما بعدها.

جدا و خضر و فواكه متنوعة و نادرة وورود كثيرة ، تحيط بها أشجار الرمان ،الخروب الزيتون و التين ، تشبه الواحات ، منازلها يخيل لك أنها تسير وفق هندسة الأهرامات و قبب و منارات ، فهي أخت قسنطينة و ندرومة و قلعة بني راشد و تنس القديمة"[1] .

III- الحياة العامة لمازونة في العهد العثماني:

أثناء النزول العثماني بالجزائر جلبت مازونة أنظار الأتراك بسبب موقعها الجغرافي الهام و طاقتها الإقتصادية،و سمعتها الفكرية و الأدبية، و بموجب التنظيم الإداري الذي عرفته الجزائر في العهد العثماني عام 1563 القاضي بتقسيم البلاد إلى ثلاثة مقاطعات، عرفت بتسمية البايلك، فاختيرت قسنطينة عاصمة للبايلك الشرقي، و المدية عاصمة لبايلك التيطري، و مازونة عاصمة لبايلك الغرب.

أدى استقرار الإدارة العثمانية بالمدينة إلى تحديث المجتمع من طابعه التقليدي إلى المدني و التحضر،و تميزت العلاقات الاجتماعية بالتبادل بين الأفراد و الجماعات في إطار القواعد التي تحكم المجتمع الحضري و الهادفة إلى المحافظة على وجودهم و تحسين أحوالهم، و إلى إشباع حاجاتهم نتيجة لتقسيم العمل و الوظائف الإقتصادية في المجتمع.

1- الحياة الإقتصادية في مازونة:

شكلت الحياة الحرفية و الأنشطة التجارية الوظائف الإقتصادية الأساسية لبايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني، و كان ذلك نتيجة استمرارية توفر المواد المغذية لهذه الأنشطة، و تَرَبُّعُ المنطقة على أراضي فلاحية و رعوية تغذي أنشطة المدينة. علما أن كلا من المنتوج الفلاحي و الرعوي شكلا المقومات الأساسية لكل الأنشطة، و بقدر ماكانت هذه العوامل متوفرة و مردودها قوي و متنوع،بقدر ما نجد منتوجات المدينة سواء الحرفية أو التبادلات التجارية ثرية و متنوعة[2] .

---

[1] م بوغرارة: مرجع سابق، ص19.

[2] فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص59.

إن النشاط الحرفي بأنواعه ناجم و بصفة حتمية عن وجود فائض في الإنتاج الفلاحي و الرعوي المتوفر، حيث أن أغلبية الحرف الحضرية كانت تقوم بمعالجة المواد الأولية الناجمة عن النشاط الزراعي و الرعوي،و أكثر الإنتاج وفرة الجلود و الصوف[1] ، ثم الحبوب و مواد أخرى كالخشب لتوفر الغابات.

1-1 الوظائف الحرفية:

عرفت مازونة خلال العهد العثماني حياة حرفية غنية تمثلت في الصناعات الحرفية التالية، النسيج، صناعة الخشب، الجلود، الفخار، الطرز على مختلف المواد، المواد الغذائية، عصر الزيتون ، صناعة الحلي، البارود، الصابون[2] ، كما ازدهرت بها النشاطات الفلاحية و حرف أخرى كنسيج الحياك و البرانيس،و قد وجدت في كل بيت أكثر من حرفة،و قد أحصى ليون الإفريقي أثناء زيارته للمنطقة أكثر من 1400 حرفة للخياطة و كثير من الدباغين[3] ، إضافة إلى خصوبة أراضيها و ما تدره من زرع و ضرع.

1-1-1 صناعة النسيج:

كانت الصناعة النسيجية و دباغة الجلود[4] ، المهنة الأكثر توسعا و انتشارا،وابتداءا من القرن 17 على مستوى البحر الأبيض المتوسط حل الحرير محل منتوجات تجارية سابقة كالذهب، كما مثلت تجارة النسيج و الجلود محورا هاما في العلاقات الدولية التجارية ويعتبر إنتاج مازونة في هذا المجال هاما طيلة العهد العثماني باعتبارها مركزا سياسيا في الإقليم، إذ توفرت على أزيد من ألف و مائتي آلة نسيج بالمدينة وذلك دون إدراج ما كان يوجد بضواحيها و أحوازها[5] ، و هو ما جعل منها سوقا إقليمية يقصدها التجار

---

[1] Merad Boudia (A). la formation sociale Algérienne précoloniale O.P.U. Alger 1981 , P163.

[2] فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص59.

[3] م.الطاهر : مرجع سابق، ع8، ص11.

[4] ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830)، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر ، 1985، ص35.

[5] فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص60

وأرباب المال من مناطق عدة.

2-1-1. صناعة الحلي:

انتشرت صناعة الحلي في كامل حواضر البايلك الغربي، و قد شكل اليهود أهم صناع هذه الحرفة إلى جانب ممارستهم لحرف أخرى منها الخياطة، و توسع انتشار هذه الحرفة ناجم عن ذهنية اقتصادية، لأن الذهب يعتبر رصيدا ماليا مدخرا في غياب ادخار المال، و ذلك للإستعمال عند الحاجة[1] ، إضافة إلى وجود فئات اجتماعية ثرية تمثلها ارستقراطية المدينة و التي شكلت الزبون الرئيسي لهذه الصنعة.

إن صناعة الحلي مثلت الصناعة الحرفية الأكثر ازدهارا عبر مدن البايلك الغربي، إذ رغم مكانة تلمسان و ندرومة الحرفية، فإن إنتاج و صناعة الحلي بمدينة مازونة شكل موردا هاما لهذه المادة، و التي تعتبر من بين الصناعات المهيمنة و المسيطرة في المنطقة[2] .

3-1-1. صناعة الفخار و الجلود:

أدى توفر المواد الأولية في المنطقة إلى انتشار هذه الصناعة على نطاق واسع في الإقليم ، إذ توارثت بعض الأسر هذه الصنعة أبا عن جد، و التي شكلت فرعا من فروع النشاطات الإقتصادية في كامل حواضر البايلك.

كما أن التكوين المورفولوجي للظهرة يتميز بوفرة المادة الطينية و كثرتها[3] ، و هو ما ساعد على امتهان هذه الحرفة على نطاق واسع، دون أن تكلف أموالا كبيرة.

أما صناعة الجلود فهي الأخرى انتشرت عبر جل حواضر البايلك الغربي، و قد اشتهرت مازونة بدبغ الجلود[4] ، و كانت موزعة عبر كامل أحياء المدينة، و لاقت اهتماما كبيرا بها.

---

[1] Merad Boudia (A), op, cit, P164.

[2] فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص61.

[3] Djilali Sari, op , cit, P37.

[4] فتيحة الواليش: رجع سابق، ص62.

4-1-1. حرفة الطرز:

عرفت مازونة الطرز على الجلود و الأقمشة القطنية و الحريرية،و كان يستعمل لطرز خيوط الذهب و الفضة إضافة إلى الخيوط الحريرية، أما الأدوات التي كانت تزخرف بالطرز تمثلت في الأحذية و أكياس النقود و الطرابيش ، الألبسة الفاخرة الأحزمة، كما كانت تطرز السروج، و قد مثلت هذه أدوات فنية رائعة كانت تقدر بمبالغ باهضة، و إلى جانب احتراف الرجال لهذه الصنعة فإن فئة النساء اللواتي تتعاطين الطرز و غزل الصوف و فن النسيج نسبتهن عالية[1] .

2-1. الوظائف التجارية:

شكل الموقع الإستراتيجي لمازونة على الطريق الكبير بين شطري بلاد المغرب الأدنى و الأقصى- أثرا كبيرا على اقتصاد المنطقة، إذ كانت القوافل التجارية تنطلق من فاس ، مكناس، وجدة، تلمسان، القلعة، مازونة، مليانة، الجزائر، قسنطينة، إلى غاية تونس،الأمر الذي جعل من مازونة مركزا اقتصاديا كبيرا،يضاف إليه عوامل أخرى ساهمت في النمو، كالسوق الأسبوعي الذي شكّل مقر التقاء و تبادل بين أهل المنطقة والمناطق المجاورة و البعيدة يومي السبت و الأحد من كل أسبوع، تباع فيه المنتوجات الصوفية و القطنية[2] ، إضافة إلى مواد أخرى زراعية و حيوانية و مواد مصنعة.

كما أن العلاقات التكاملية التي سادت بين المدينة و الريف لم تكن فقط على مستوى الإنتاج بل حددتها وعكستها تنقلات الأشخاص ،فالحركة على مستوى السلع قابلتها حركات على المستوى البشري ،مما أفرز تأثيرات عديدة على جل جوانب الحياة الإجتماعيةوالثقافية .

إن تحليل العلاقات ما بين المدينة و الريف التي قام بها إبن خلدون في القرن 14م تؤكد علاقات التكامل والتبعية التي توجدعلى المستوى العقاري والتجاري والسياسي والديني ،

---

(1) Moulay Belhamissi: op, cit, P39.

(2) ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني.1792.1830،مرجع سابق،ص 34

حيث يرى "......إن إنتعاش المدينة ينعكس على الريف،حيث أنه متى زاد العمران،زادت الأعمال وزاد الترف و زاد الكسب ، و زادت عوائده وحاجاتها واستنبطت البضائع لتحصيلها،وزادت قيمتها وتضاعف الكسب ..."[1] ،فثراء المدينة ينعكس على الريف بشتى الطرق ،لأنه إذا كان للمدينة بادية يمدها العمران،فيكون حافظا

لوجودها واستمرارعمرها .

2-الحياةالاجتماعية في مازونة:

دراسة الحياة الإجتماية لمدينة مازونة خلال العهد العثماني تقتضي تناول الوضعية الإجتماعية لهذه المدينة بالوصف و التحليل السوسيولوجي لمختلف الطبقات و الفئات الحضرية. و ذلك من خلال المهن و النشاطات التي كانت تقوم بها الجماعات في إطار المجتمع. و تكمن الغاية من هذه المحاولة ربط الجانب الإجتماعي بالجانب الإقتصادي وإبراز مدى تأثرها ببعضها.

2-1. الميزات العامة للتركيبة الإجتماعية لمازونة:

طبع على الجزائريين طيلة العهد العثماني الطابع البدوي، فمعظمهم اتخذ من الريف مستقرا له، بينما المدن لايؤلف سكانها سوى أقلية ضعيفة لا تتعدى 05% من مجموع السكان[2] و رغم ذلك فإن نسبة التحضر و العمران كانت أكثر ارتفاعا في بايلك الغرب منها في باقي المناطق الأخرى، خاصة إذا علمنا أن الفترة الممتدة ما بين القرن 15 و 18 كان العالم يمثل بادية شاسعة، فما بين 80 إلى 85% من السكان كانوا يعيشون من مردود الأرض[3] .

لقد طبع التحضر ببايلك الغرب بميزات حضرية شكلت خصوصيته، حيث كان

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون :المقدمة ،جII،الدار التونسية للنشر، تونس 1984،ص436

[2] ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830 ، ط2،م، و، ك، 1985، ص41.

[3]Fernand Braudel : Civilisation matérielle, économie et capitalisme du Xv au XVIII, siecle, 3T, Paris,p32.

يمثل استمرارية لماض حضري عربي عكس المناطق الأخرى، كما أنه على مستوى القطاع لم تكن وهران هي المدينة،لأن استرجاعها النهائي تم فقط سنة 1791، بينما المتجه نحو الداخل يجد مدنا قديمة تشهد على ماض حضري، عسكري و تجاري مثل مازونة وندرومة...[1] قد كانت مسرحا و موطنا لحضارات غابرة.

أهم ميزة تميزت بها التركيبة الإجتماعية لمازونة هي التنوع و التعدد في عناصرها الإثنية و هي ميزة جل المدن و الحواضر، على عكس الريف الذي غالبا ما تميز بنوع من الإنسجام.

لقد تمثل هذا التعدد و التنوع في تباين العناصر الإثنية التي شكلت التركيبة الإجتماعية لمازونة،و نجد في مقدمة هذه العناصر، العنصر المحلي و هم الحضر، أو البلدية حيث هذا العنصر هو عبارة عن مجموعة صقلتها سنين التحضر إلى درجة أنها أصبحت تشكل نموذجا و نمطا إثنيا خاصا و مميزا.

إضافة إلى هذا العنصر،عرفت المدينة قدوم جاليات و طوائف متعددة و مختلفة، و لعل أهمها الجالية الأندلسية التي توافدت على المنطقة إثر قرارات الطرد منذ ق15 و تواصلت في توافدها طيلة ق 16 و 17[2]، و تعتبر هذه الأخيرة على رأس قائمة الجاليات،و ذلك نتيجة ارتفاع عددها و أهميتها في التركيبة الاجتماعية، و عليه يمكن الإشارة إلى أن الحضر و الأندلسيين تقاسموا النشاطات الحرفية و التجارية و الثقافية والفكرية، حيث كانت هذه الممارسات و الأنشطة هي الصفة الغالبة و المميزة لهذه العناصر[3] .

أما العنصر الثالث فتمثل في الفئة التركية بمختلف مستوياتها و انتماءاتها العرقية، حيث شغلت هذه الفئة المجالات الإدارية و السياسية و العسكرية، كما ضمت تجارا و عمالا

---

[1] فتيحة الواليش، مرجع سابق، ص105.

[2] عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1892، ص ص 13-15.

[3] فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص106.

يمارسون مهنا مختلفة،و بشكل عام كان للأتراك الصف الأول في الإدارة[1] .

نجم عن هذه العناصر إثر امتزاجها بالعناصر المحلية،وجود فئة جديدة،و هي فئة الكراغلة، التي تعتبر فئة حضرية، إذ تكاثر عدد هذه المجموعة مع مرور السنين نتيجة ارتباطهم بالعنصر المحلي، و بهذا شكل الكراغلة عنصر ربط بين المجتمع و العناصر الحاكمة[2] .

أما الأقليات التي كان لها دور، فنشير إلى الأقلية اليهودية التي كانت تتشكل من يهود قدموا من المشرق منذ أزمنة بعيدة، أو يهود قدموا من الأندلس، إضافة إلى يهود المغرب.

2-2-الطبقات و الفئات الإجتماعية:

عرفت حاضرة مازونة ثلاث طبقات رئيسية،و كل طبقة تحوي فئات متمايزة الوظائف، لكنها تتقارب من حيث الترتيب الإجتماعي و مستوى الدخل.

1-2-2. الطبقة الأرستقراطية:

الطبقة الأرستقراطية كانت ذات وظائف سياسية و اقتصادية و عسكرية و حضرية و تترادف مع الأرستقراطية الريفية ذات المهام الحربية،أكثر منها عسكرية.و دينية[3] .

تشكلت الطبقة الأرستقراطية من الفئات الحاكمة بمختلف انتماءاتها، حيث كانت تتشكل من الأقلية التركية إضافة إلى الكراغلة و البلدية ذوي الأصل الحضري؛ فهذه الفئات و المجموعات التي كانت تمثل الجهاز السياسي و الإداري و العسكري على أعلى مستوى يطلق عليها الأرستقراطية الحضرية، و قد كانت هذه الطبقة بمختلف فئاتها تتمتع بامتيازات هامة نتيجة لدورها الإقتصادي و الإجتماعي و مركزها في تسيير شؤون البلاد،

---

(1) أبو القاسم سعد الله ، بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني ، في جريدة البصائر ، ع1، 21-28 جانفي 2002، الجزائر ، ص13.

(2) Djilali Sari: op -cit , P49.

(3) السيد الباز العريني: تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت، لبنان، 1968، ص- ص 377-406

و كانت مشكلة من فئات واضحة المهام و المعالم تمثلت خاصة في :

– الفئة الحاكمة:

مثلت هذه الفئة ما كان يعرف بالخاصة، و لم تكن مرتفعة العدد، بل محصورة في مجموعة معينة و مشكلة في معظمها من العسكريين ذوي الأصل التركي، و اتصفت بأنها فئة ذات أصل أجنبي. و عليه فهي فئة عسكرية و أجنبية تمارس وظيفة سياسية[1] .

كانت الأرستقراطية التركية تتقاسم الوظائف مع الفئات الإجتماعية الأرستقراطية الأخرى من كراغلة و حضر و أجواد،ورغم تعدد هذه الفئات نجد الفئة ذات الأصل التركي تحتل الوظائف الإدارية العالية و الهامة في تسيير شؤون البايلك[2] ، أما الوظائف الأخرى فقد كانت تقوم بها الفئات الأخرى و السابقة الذكر.

– الفئة المخزنية:

الأرستقراطية المخزنية و هي ما كان يسمى في الشرق بنبلاء السيف، أما في الغرب الجزائري فعرفوا بالأجواد، وكانت هذه الفئة تقود معظم القبائل المخزنية[3] ، و تسمح بتحريك الرجال في حالة حمل السلاح داخل القبائل، إضافة إلى الإستغلال الضريبي على قبائل الرعية.

ضمن هذه الطبقة والفئات المشار إليها شغل الكراغلة و الحضر بعض المناصب الإدارية الهامة، بالإضافة إلى قيادة المخزن، حيث استطاعت بعض العناصر الكرغلية بفضل موقعها و امتيازاتها أن تصل إلى بعض المناصب العالية في السلطة و قيادة البايلك[4].كما أن وصول مجموعة الكراغلة إلى المراتب العليا على مستوى المدينة و البايلك لا يعني أنهم كانوا يتمتعون بنفس حقوق الأتراك، بل كان الحكم المركزي يرى فيهم مساعدين

---

(1) فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص113.

(2) محمد مزين : المصادر و الوثائق المغربية المتعلقة بالجزائر في العهد العثماني، في مجلة الدراسات التاريخية معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ع9، الجزائر 1995، ص ص 83- 102

(3) فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص113.

(4) أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ، 1500- 1830 ط1، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998، ص281

وأعوانا لإدارته.

مجمل القول ، فقد استغلت هذه الشريحة للعب دور الوساطة بين الفئة الحاكمة و بقية السكان[1] .

- الأرستقراطية الدينية:

لعبت الأرستقراطية الدينية المتمثلة في الأشراف و المرابطين دورا هاما على مستوى البايلك،حيث وقفت إلى جانب الفئة المخزنية و الباي في حروبهم الداخلية والخارجية خاصة في عهد الباي عثمان والباي محمد الكبير والحملات الجهادية التي قاداها ضد الوجود الإسباني، بإعطاء قيادة المتطوعين من العلماء و الطلبة لشيوخ المدارس والزوايا كالشيخ أبي طالب المازوني و هو في الثمانين من عمره[2] .

إن زوال الوجود الإسباني في الإقليم الوهراني جعل التحالف بين الفئات المخزنية و الدينية، يضعف و يتلاشى لأنه فقد سبب وجوده والمتمثل في حتمية الجهاد الإسباني وأكثر من ذلك تحول إلى تداخل و تضارب في المصالح بين الفئتين وولد ذلك صراعا، لم يحسم لأحد.

2-2-2. الطبقة البورجوازية:

كان للبورجوازية الحضرية دور فعال في مازونة في العهد العثماني، فشملت فئة العلماء و الإداريين و شكل هؤلاء الجهاز الإداري و التعليمي للمدينة ،كما لعبوا أيضا دور الوساطة بين السلطة و باقي سكان الحاضرة، أما الفئة الثانية في هذه الطبقة ،فتتمثل في فئة التجار و الحرفيين، و التي تعتبر الممثلة الرئيسية للنشاط الحضري[3] .

---

[1] René Galissot: AbdelKader et la nationalité Algérienne, in « R.H », T.89, 1965, P343.

[2] عبد القادر هني: التعريف بمازونة، بمناسبة انعقاد اجتماع إطارات الولاية المنعقد بمازونة، الإثنين 31 أكتوبر 1983، مازونة، ص03.

[3] عدل العين حباتلي: طبيعة أراضي للملك و العرش في جزائر ما قبل الإستعمار -في- مجلة التاريخ، المركز الوطني للدراسات التاريخية ، الجزائر ، النصف الأول من سنة 1986، ص ص 75-87

-العلماء و الإداريون:

شكلت هذه الفئة الجهازين الإداري و التعليمي، حيث ممارسة المهام الإدارية كانت توكل للبلدية من ذوي الأصل الحضري و الكراغلة، تضاف إليها بعض المهام كقائد السوق[1] و قائد الباب، و هذا الأخير مكلف بجمع حق الجمارك، أما البراح فكان يقوم بالإعلان عن قرارات الباي، وهذه الفئة هي التي تمثل علاقة الربط في المجال الإداري بين الفئة الحاكمة و باقي السكان،وقد منحتها هذه المناصب امتيازات هامة.

عرف على جمهرة العلماء أنها الفئة المنغلقة على نفسها، ومع ذلك دافعت عن امتيازاتها بكل ضراوة،حيث كان لأغلبيتهم أملاكا عقارية، و يشتركون في المصالح التجارية و الحرفية، و إضافة إلى ذلك احتكروا حق المعرفة فيما بينهم، خاصة في المهن التابعة لقطاعهم كالتدريس الذي، أصبح مهنة وراثية، و المدارس ملكا خاصا، و كان ذلك مدعما بعلاقات القربى بين العلماء ورجال الدولة.

و لم تكن فئة العلماء تشكل فئة منسجمة من حيث الثراء، و المكاسب، بل كانت عبارة عن شرائح مختلفة في المكانة و الدخل،حيث غالبا ما تشكل الشرائح المتوسطة أوالبسيطة من فئة العلماء الذين يمارسون وظائف ثانوية في هذا المجال كالتعليم والعدل والتوثيق و الكتابة، و هي الشريحة الأقل امتيازا[2] .

– فئة التجار و الحرفيين:

تقاسم كل من الحضر و الأندلسيين و الكراغلة و اليهود هذه الوظائف، حيث أن نسيج الصوف و القطن إضافة إلى الطرز و الصناعة الفخارية كانت أنشطة مخصصة للحضر بصفة عامة، و تقاسم هؤلاء مع اليهود نشاطات حرفية أخرى مثل صناعة الجلود و صناعة الأحذية، إضافة إلى الصناعات الخشبية و الخياطة، كما كان لليهود مساهمة واسعة في صناعة المعادن الثمينة[3] .

---

[1] قائد السوق هو ما كان يلقب بالمحتسب في المشرق العربي.

[2] أبو القاسم سعد الله : محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث "بداية الإحتلال" ، ط2، ش و ن ت ، الجزائر 1982، ص162.

[3] ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني(1792–1830) ،مرجع سابق، ص35.

ساهم عدم الإستقرارالذي عرفته المنطقة في تقهقر المنتوج الحرفي و تراجع التجارة لكن رغم ذلك وجدت بورجوازية تجارية و حرفية[1] ، حيث أن جل الأبحاث التي تناولت اقتصاد المجتمع الحضري المغاربي تكشف عن وجود مجال حرفي على مستوى التقني، كان متطورا و تجاريا رائجا، تنشطه بورجوازية تجارية و حرفية متفتحة على العالم.

كانت فئة التجار و الحرفيين مهيكلة على شكل وحدات حسب الحرف، حيث هناك الحدادين و العطارين و النجارين...إلخ، كما يلاحظ ضمن هذه الفئة – شريحة الحرفيين و التجار– أن النشاطات التجارية تتقدم على النشاطات الحرفية[2]، و هكذا فالتاجر يحتل مرتبة عالية بالمقارنة مع الحرفي سواء من ناحية الإعتبارات الإجتماعية أو الإقتصادية، وقد اتصفت هذه الفئة بأنها ذات ممتلكات عقارية و ريفية، ولا تطمح إلى المناصب السياسية رغم أن عددا هاما من الحضر و الكراغلة ،كانوا يشغلون مناصب إدارية و سياسية هامة.

3-3-2 الطبقة السفلى[3] :

تشكلت هذه الطبقة من بقية سكان المدينة وشملت الحضر و الكراغلة الأندلسيين و اليهود ذوي المستوى الإقتصادي البسيط، بالإضافة إلى الفئات التي توافدت على المدينة عبر فترات تاريخية ، فهناك من استقر، وهناك من أقام بصفة مؤقتة، وقد التحقت هذه الفئات بالمدينة بحثا عن العمل)وبهذا شكلت العامة بروليتاريا حقيقية كانت تعيش على هامش المجتمع، و لم تكن لها أي مساهمة في الحياة السياسية.

برزت العامة كطبقة اجتماعية مقسمة إلى فئات نتيجة الفوارق المهنية و كانت هذه الفئات من حضرية و مستقرة و مؤقتة الإقامة، تميل إلى بعض التخصص في ممارسة النشاطات، و احتراف المهن، إذ غالبا ما كان المتعلمون في الوحدات الحرفية ينتمون إلى

---

[1] فتيحة لوالش: مرجع سابق، ص120.

[2] ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق، ص37-38.

[3] الطبقة السفلى : و تعرف بالعامة،و هي تمثل أغلبية الشعب.

الكتلة الحضرية، و أصحاب المهن البسيطة و الثانوية سـواء بالمنـازل أو المحـلات العموميـة ينتمون إلى الفئة الدخيلة.

شكلت فئة البرانية[1] خزانا بشريا لليد العاملة في مختلـف الأنشـطة الحضريـة سـواء التجارية أو الحرفية أو الأشغال العموميـة، و كـانت فـترات الإسـتقرار و إنجـاز المشـاريع العمرانية و الإقتصادية تساهم في جلب عدد هام من البرانية و ذلك قصد الإنشغال بهـذه المشاريع دون سواها، لما تدره من ربح سريع.

مجمل القول أن هذه الطبقة سُخرت لخدمة الطبقات السالفة الذكر كالأرستقراطية و الحضرية، ورغم الخدمات التي كانت تقدمها، إلا أنها مثلت المجموعـة الإجتماعيـة الـتي لا تشارك في ممارسة السلطة، بل مثلت الطبقة المستغَلة و المسخرة لخدمة الطبقات العليا.

3-2. العلاقات التي سادت التركيبة الاجتماعية:

إن مختلـف العلاقـات الـتي تحكمـت في التركيبـة الاجتماعيــة حددتهــا الفــوارق الاقتصادية و الاجتماعية[2] ،ووضعت الخطوط العريضة لطبيعة العلاقات،وساعدت علـى ظهور نظام معقد يسوده التضامن و المصلحة، حيث أن المصالح المشتركة كثيرا ما دعمت العلاقات الاجتماعية، و تناقضها كثيرا ما عمق الهوة بين الفئات الاجتماعية.

و في هذا المجال نشير إلى العلاقة التي ربطـت الأرسـتقراطية المخزنيـة بالفئـة الدينيـة حيث اصطدمت المصالح و عظم بينهما التنافس على مراكـز النفـوذ، وذلـك بعـد مرحلـة ساد فيها التضامن بين الفئتين أثناء محاربة الوجـود الإسـباني[3]، لكـن زوال هـذا العـامل

---

[1] البراني هو عامل يتقدم سوق العمل بجرد من كل أدوات الإنتاج التقليدية ، حيث لم يسبق له أن ملك قطعة أرض أو كسب عملا حرفيا، ليس له إلا مجهوده العضلي يعرضه في سوق العمل، تتوافد هذه المجموعات على المدينة عبر المراحل و الفترات ...راجع ذلك في

Lemnouer Merouche « Lés berranis à l'époque turque et au debut de la période coloniale » Original d'une communication présentée au colloque sur la classe ouvrière dans le mondearabe, organisé par L.0.A.T. 1979

[2] ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق، ص44-45.

[3] عبد القادر هني: مرجع سابق، ص03.

أدى إلى اصطدام المصالح المتمثلة في توسيع مصادر الثروة و امتلاك الأرض الخصبة خاصة. هذا التنافس تجسد من خلال صراع القبائل المخزنية التي كانت تنعم بالقوة و الجاه مع القبائل المضطهدة ، والتي استغلت الفئات الدينية غضبها للتمرد و الحد من نفوذ الفئة المخزنية.

و من جهة ثانية كانت فئة الحرفيين تنشط تحت احتكار فئة التجار الكبارالتي تتحكم في النشاطات سواء الحرفية أو التجارية، لكن هذه الفئة كانت دوما تابعة لرجال السلطة و لا تستطيع الإنعتاق من هذه التبعية، مع أن ممارسة التجارة في حد ذاتها كانت تتطلب حماية من أصحاب السلطة السياسية[1] ، و هيمنة السلطة على النشاطات الإقتصادية ميزة طبعت الفترة العثمانية في الجزائر.

[1]Ali oumlil: « Ibn Khaldoun et la société urbaine » , in « la ville arabe dans l'islam », 1982, P42.

الفصل الأول

نشأة المدرسة وتطورها بالمغرب الإسلامي حتى نهاية العهد العثماني

I-جذور المدرسة ونشأتها ببلاد المغرب.

1-التعريف بالمدرسة

2-نشأة المدرسة في بلاد المغرب الإسلامي.

3-العلاقة بين المدرسة والزاوية والرباط.

II-تطور المدرسة ببلاد المغرب الإسلامي حتى نهاية العهد العثماني

1-في تونس

2-في المغرب

3-في الجزائر

III-مدرسة مازونة -النشأة والتطور-

1-النشأة

2-التطور

I-جذور المدرسة و نشأتها ببلاد المغرب:

أبرز ما يميز العمارة الإسلامية في شرق العالم الإسلامي وغربه، الإهتمام الكبير ببناء المدارس، إذ يعد إنشاؤها من المنجزات العظيمة في المجالين العلمي و الفكري بل حتى من الناحية المعمارية الفنية.

1-التعريف بالمدرسة:

بقيت بلاد المشرق السباقة في تشييد المدارس عن المغرب و الأندلس، لتوفر وملاءمة الظروف الدينية، السياسية و الإجتماعية، فظهرت المدرسة في القرن الخامس الهجري بالمشرق الإسلامي[1] .

و يعتبر أهل نيسابور بخراسان، السباقين في تشييد المدارس،و أشهر مدرسة بنيت كانت في عهدهم، و تعرف بالمدرسة النظامية ببغداد 459 هـ / 1046م، على عهد حكم و نظام الملك السلجوقي[2] .

ووصل نظام المدارس مصر أواخر العصر الفاطمي، ليتطور في عهد صلاح الدين الأيوبي، الذي بنى مدرستين : الناصرية و القمحية،و بعدها إلى بلاد المغرب في عهد حكم الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (555 هـ – 595 هـ / 1160 م – 1168 م).[3]

و جاء عند المقريزي بشأن المدرسة : " قال ابن سيدة : درس الكتاب درساً ودراسة،و دارسه، من ذلك كأنه عاوده حتى انقاد لحفظه... و المَدْرَسُ الموضع الذي يدرس به..."[4] .

---

[1] عبد العزيز لعرج: المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية- أطروحة دكتوراه،جامعة الجزائر ،1999 ،ص.303. أنظر أيضا: نقولا زيادة: المعلم(في)مجلة العربي، ع 56، الكويت نوفمبر 2001، ص- ص، 56-61.

[2] العربي لقريز: مدارس السلطان أبي الحسن علي مدرسة سيدي أبي مدين نموذجا – دراسة اثرية فنية - رسالة ماجستير، جامعة تلمسان ، 2001، ص10.

[3] عبد العزيز لعرج: مرجع سابق ، ص306.

[4] تقي الدين أحمد المقريزي: المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الاثار، ط1، دار الطباعة المصرية، بولاق، القاهرة، 1270 هـ، ص362.

و حسب المقريزي فإنّ أصل المدرسة إسلامي، و قبل ظهورها كان التعليم مقتصرا على المساجد، فجاءت المدرسة لإعطاء دفع للحركة العلمية و الثقافية، و التي هي في الأصل عبارة عن مؤسسة تعليمية، تشرف عليها الدولة و تتولى أعباء مصاريف الطلبة الوافدين إليها، و إيوائهم، و تتكفل بمصاريف المدرسين، و القائمين بشؤونها المختلفة.

كما تعرف المدرسة بأنها مشتقة من الدرس، و إنها من أجل ذلك تكسب طلابها حق الأولوية في تعويض الأوقاف دون الأساتذة، أما قاعات الصلاة التي أُلحقت بها فدفعا لوصف الفندقية عنها بدليل تعمد عدم بناء المآذن بجل المدارس[1] .

و جاء في المدرسة أيضا على أنها كل ما ينبى يهدف تحصيل العلم، أي لتعليمه و تعلُّمه[2] .

و يبدو أن ظهور المدرسة في تلك الفترة شكَّل ضرورة و تعبيرا عن صور الإزدهار والرقي، والنقلة النوعية في الحياة العلمية و الأدبية و الثقافية عامة، عند العرب و المسلمين. فأصبح المسجد قاصرا عن إيفاء متطلبات الحياة العلمية الجديدة القائمة على تفرع العلوم و تشعُّبها، كونه مؤسسة مفتوحة على عامة الناس، ودروسه تقف عند المواعظ، وتلقين الحديث... و لم تكن ترقى إلى حد المناظرة،و الجدل الذي قد يحيد أحيانا عن أخلاقيات الأدب بما يتعارض و حرمة بيت الله[3] .

2-نشأة المدرسة في بلاد المغرب الإسلامي:

لا يكاد المؤرخون يتفقون على تاريخ محدد يخص ظهور نظام المدارس في المغرب الإسلامي. فتشير النصوص التاريخية إلى وجود المدارس في مناطق مختلفة من بلاد المغرب

---

(1) عبد الهادي التازي: جامع القرويين، المسجد و الجامعة بمدينة فاس، مج 2، ط1، دار الكتاب اللبناني، 1973، ص361

(2) مسعود العيد: حركة التعليم في الجزائر في العهد العثماني في مجلة – سرتا ، ع3، السنة الثانية، قسنطينة، ماي 1980، ص65...نقلا عن مخطوط : عجائب الأسفار ، لأبي راس الناصري.

(3) آدم متز: الحضارة الإسلامية، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة، ج1، ط1، دار الكتاب العربي 1971، ص329.

الإسلامي، منذ عهد حكم الخليفة الموحدي يعقوب المنصور 555 هـ-595 هـ/1160-1198م[1] .

ويروي في ذلك ابن أبي زرع :" ... و حصن البلاد، و ضبط الثغور،و بنى المساجد و المدارس في بلاد المغرب و إفريقية و الأندلس..."[2]

من هنا ظهر فريقان متناقضان حول نشأة المدارس في بلاد المغرب:

فريق يرى أن ما ذهب إليه إبن ابي زرع يفتقر إلى المصداقية لانعدام الأدلة القاطعة و الحجج الساطعة، وأن إبن أبي زرع يخلط بين العهد الموحدي،و العهد الذي تبعه[3] .

بينما يويد فريق آخر النصوص التاريخية المشار إليها، معتبرا المدارس قد وُجدت بمدينة فاس في عهد المرابطين، و ذلك بعد ثلاث سنوات من ظهورها في العراق، وأن الأمير يوسف بن تاشفين هو الذي بناها بعد دخوله المدينة في حدود سنة 462 هـ/1069 م. و كان الطلاب يقصدونها و يتوافدون عليها من سائر الأصقاع، و أنهم ساهموا في مدافعة الموحدين عند دخولهم المدينة، و قاوموهم مقاومة شديدة،و صبروا في ذلك حتى قتلوا عن آخرهم، فسميت تلك المدرسة بمدرسة الصابرين، و أطلالها ما زالت قائمة إلى اليوم[4] .

إن معظم الآراء تكاد تتفق على أن قيام المدارس في المغرب الإسلامي، كان بعد سقوط الدولة الموحدية،و لا شك أن ذلك كان بتأثير من المشرق، ولاسيما من مصر لطبيعة دورها الحضاري على منطقة المغرب، و إلى العلاقة الطيبة التي كانت تربط البلاط الحفصي بالبلاط المملوكي.

---

[1] عبد العزيز لعرج: مرجع سابق، ص306.

[2] إبن أبي زرع: الأنيس المطرب، بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس، نشر Iornbergub 1843 C.J. Saline، ص143.

[3] عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص306.

[4] أنظر في ذلك : محمد محمد الكحلاوي: المدارس المغربية " دراسة أثرية معمارية" -في- مجلة العصور، مج6، ط1، دار المريخ لندن، جانفي 1991، ص71 و ما يليها. و ايضا : عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص307.

ففي إفريقية الحفصية، كان دور المدارس منحصرا في الحفاظ على المذهب الموحدي -مذهب ابن تومرت- و نشره، بعد أن تخلى عنه الموحدون أنفسهم في عهد الخليفة إدريس المأمون[1] ، خصوصا و أن قيام الدولة الحفصية، كان على المذهب نفسه.

أما الدولة المرينية بالمغرب الأقصى، فإن وظيفة المدرسة فيها ارتبطت بنشر العلوم والمعارف الدينية، اعتمادا على مذهب مالك، فضلا عن مقاومة بقايا مذهب ابن تومرت و الفكر الموحدي.

و لم يختلف الأمر في الدولة الزيانية من حيث وظيفة المدرسة فيها، فقد اختصت بالتعليم ونشر العلوم والمعارف، على اختلاف أنواعها،و خاصة العلوم الدينية على المذهب المالكي، فاشتهر خلالها علماء فطاحل أمثال ابني الإمام، و أبي عبد الله الشريف التلمساني و غيرهم[2] .

1-2. نشأة المدرسة في تونس:

يجمع جل المؤرخين على أن ظهور المدرسة بالمغرب الأدنى (إفريقية -تونس) كان خلال الحكم الحفصي (625-941 هـ/1218-1534م) و ذلك خلال عهد أبي زكريا الحفصي (624-647 هـ/1227-1249م) الذي بُني له فيها قصبة، عُرفت باسم قصبة الموحدين، فشيد فيها جامعا و مدرسة عُرفت بالشماعية[3] . وقد خصصت هذه الأخيرة لتلقين تعاليم الدين الإسلامي، على مذهب إمامهم " المهدي بن تومرت " وكان ذلك سنة 633 هـ- 1235م.

2-2. نشأة المدرسة في المغرب الأقصى :

أكد بعض المؤرخين أن المغرب الأقصى لم يعرف بناء المدارس إلا في أول النصف الثاني من القرن السابع الهجري/أوائل النصف الثاني من القرن الثالث عشر ميلادي على

---

[1] عبد الرحمان بن خلدون: كتاب العبر...ج7، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1999، ص594،595.

[2] عبد الحميد حاجيات : أبو حمو موسى الزياني، ط1، الجزائر، 1974، ص ص 44، 105، 162.

[3] العربي لقريز: مرجع سابق، ص20.

عهد المرينيين.[1] وذلك ما ذهب إليه ابن مرزوق، حينما أقر بأن إنشاء المدارس لم يكن معروفا بالمغرب الأقصى إلا بعد إنشاء السلطان أبي الحسن علي مدرسة الحلفائيين بمدينة فاس.[2] ويكاد يجمع على هذا الرأي كثير من المؤرخين و الباحثين العرب وحتى الأجانب حسب الكحلاوي.

لكن هناك من يرجع ظهور المدارس في المغرب الأقصى إلى أبعد من ذلك، أي منذ نهاية القرن الخامس الهجري/ أوائل القرن الحادي عشر ميلادي، بناء على الدلائل التاريخية التي دُوِّنت من قبل بعض المؤرخين المعاصرين لعمائر تلك المدارس زمانها، حيث انتشرت في عهد المرابطين، ومن أشهرها مدرسة " فاس" ومدرسة " سبتة " التي أنجبت العالم الجليل القاضي عياض، كما انتشرت المدارس المرابطية في طنجة، واغمات وسجلماسة وتلمسان ومراكش.[3] ومن الأرجح أن تكون تلك المدارس قد تعرضت على يد الموحدين للهدم والإتلاف، باعتبار ما كان يدرس فيها على يد فقهاء المرابطين في نظر ابن تومرت هو خروج عن تعاليم الدين الإسلامي، لما أظهره فقهاء المرابطين من تشدد كبير في معارضة تعاليم الإمام الغزالي، الذي يدين له ابن تومرت بالولاء، و كان حريصا على نشر تعاليمه في المغرب بعد عودته من المشرق[4] .

2-3.نشأة المدارس في المغرب الأوسط:

شهدت الفترة التي اعقبت سقوط الدولة الموحدية، بروز ثلاث دول وهي: المرينية بالمغرب الأقصى، الحفصية بتونس، و الزيانية بالجزائر.

و قد عَرفت الجزائر في العهد السابق للعثمانيين مدارس حظيت بشهرة كبيرة فكانت خمس منها بتلمسان حسنة التصميم، مزدانة بزخارف الفسيفساء، ووُجد في بجاية

---

[1] المرينيون : فخذ من زناتة وهم ولد مرين بن ورتاجن بن ماخوخ، حكموا من 616 هـ- 831 هـ/ 1219 م- 1426م.

[2] محمد بن مرزوق التلمساني : المسند الصحيح الحسن في مآثرومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق مارياخيسوس بغيرا ش.و.ن.ت، الجزائر 1981، ص 405.

[3] محمد محمد الكحلاوي : مرجع سابق، ص 73.

[4] نفسه، الصفحة نفسها.

عدد هام من المدارس، و في قسنطينة مدرستين[1] .

و لما كانت تلمسان عاصمة الزيانيين، فقد حضيت بقدر أوفر من العناية من طرف سلاطينها و أمرائها في البناء و التشييد، فلم تشذ عن جاريتها في الإهتمام الحضاري بنشر العلم و ما يتطلبه ذلك من تشييد المؤسسات العلمية، غير أن الصراع بين الزيانيين و جيرانهم خاصة المرينيين، كان غالبا ما ينتهي بحصار تلمسان، و تهديم البنايات و المنشآت و التنكيل بالسكان و الأهالي و ملاحقة الأمراء و رجالات الدولة... فانشغل الحكام عن التعمير بتأمين وجودهم،و في هذا الصدد يقول شارل أندري جوليان:"...و لم يكن بنو عبد الواد، و بنو مرين على اتفاق، رغم انحدارهم من أصل واحد... قضى أبو سعيد عثمان الزياني ملكه في المعارك..."[2]

و بالرغم من ذلك كله،فإن ملوك الزيانيين لم يَدَّخِروا جُهدا في الظهور بمظهر الحكام المولعين بالعلم، و المقدّرين للعلماء كلما سنحت الظروف بذلك، وترجم اهتمامهم ببناء بعض المدارس، بلغ عددها ثلاثة، كلها في مدينة تلمسان، تضاف إليها المدرستان اللتان شيدهما بنو مرين في ربضي المدينة بالعباد و سيدي الحلوي[3] .

و كانت أول مدرسة بنيت في عهد الزيانيين، تلك التي بناها السلطان أبو حمو موسى الأول (707-718 هـ/ 1308-1318 م) للعالمين الجليلين و الفقيهين أبي زيد عبد الرحمان و أبي موسى عيسى ابني الإمام الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الإمام من برشك سنة 710 هـ/1310 م[4] .

و جاء ذكر المدرسة في قول ابن مريم في القرن 10 هـ /16 م: "... و هذان الأخوان فأوصلهما إلى أبي حمو و أثنى عليهما، فاغتبط بهما أبو حمو و اختط لهما

---

[1] مسعود العيد: مرجع سابق، ص65.

[2] شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا الشمالية، ترجمة محمد مزالي و البشير بن سلامة، ج2، ط2، الدار التونسية للنشر، تونس 1978، ص203،204.

[3] عبد العزيز لعرج: مرجع سابق، ص320.

[4] عبد الحميد حاجيات: مرجع سابق، ص 44، 46.

بتلمسان المدرسة المسماة بهما الآن، داخل باب كشوط..."[1] ،و هو ما يدل على بقاء المدرسة حتى القرن العاشر هجري / السادس عشر ميلادي.

3- العلاقة بين المدرسة و الزاوية و الرباط:

يبدو الإختلاف واضحا بين جمهرة المؤرخين في الفرق بين مفاهيم الرباط و الزاوية من جهة،و بين الزاوية و المدرسة من جهة ثانية.

فنجد ابن مريم يدمج بين المؤسستين، فتارة يذكرها زاوية، وتارة أخرى مدرسة وأخرى مدرسة الزاوية[2] .

أما ابن خلدون، و ابن أبي زرع فيبدو الإختلاف واضحا بينهما في التعبير الإصطلاحي للمبنى الذي شيّده أبو يوسف يعقوب سنة 684 هـ/1285 م.
إذ نجد ابن خلدون يسميه رباطا[3] ،و ابن أبي زرع يسميه زاوية[4] .

و من هنا يبدو من اللائق أن نتساءل عن معاني المصطلحات الثلاثة (الزاوية، الرباط، المدرسة) ، ودلالاتها اللغوية و الوظيفية.

1-3. الزاوية:

الزاوية لغة تعني الركن أو المكان المنعزل، و تسمية الزاوية يدل ابتداء على أنها بقعة من الأرض جاءت من انزوائها بعيدا عن بقية المناطق المتقاربة من بعضها[5] .
و هي في الأصل ركن البناء، و كانت تطلق بادي الأمر على صومعة الراهب المسيحي ثم أطلقت على المسجد الصغير أو على المصلى، و لا تزال اللفظة هذه تحتفظ بنفس المعنى عند المسلمين في الشرق، ذلك أنهم يفرقون بينها و بين المسجد الذي يفوقها شأنا، على أن مصطلح الزاوية ظل محتفظا في شمال إفريقيا بمعنى أكثر شمولا من ذلك، إذ يطلق على

---

[1] ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص126.

[2] نفسه، ص ص23، 33، 35.

[3] عبد الرحمان بن خلدون: كتاب العبر...، ص435.

[4] ابن أبي زرع : مصدر سابق، ص257.

[5] قدور إبراهيم عمار: زاوية سيدي محمد بن عمر ، تاريخها و نشأتها، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران ، 1997 ص28.

بناء أو طائفة من الأبنية ذات طابع ديني، و هي تشبه الدير أو المدرسة، فنجد في الزاوية جميع الأشياء التالية، أوالكثير منها، غرفة للصلاة بها محراب، ضريح لأحد المرابطين أو وليا من الأشراف تعلوه قبة، غرفة قُصِرت على تلاوة القرآن، مكتبا أو مدرسة لتحفيظ القرآن، ثم غرفا مخصصة لضيوف الزاوية و للحجاج و المسافرين والطلبة، و يلحق بالزاوية عادة قرافة تشمل قبور أولئك الذين أوصوا في حياتهم بأن يدفنوا فيها[1] .

على أن المصطلح أطلق أيضا على الحلقة التي يُشكِّلها الطلبة حول مُدَرِّس أو شيخ في أي جامع،سواء كانت الحلقة في زاوية المسجد بالفعل أو في صدره أو في جانب منه، فكلها تدل على حلقة تدريس واحدة، متباعدة عن الحلقات الأخرى و لا يحق في كثير من الأحيان شغلها من مُدَرِّس أو شيخ غير مُدَرِّسها أو شيخها[2] .

يتضح مما سبق أن مصطلح الزاوية يقصد به مكانا معينا منعزلا بعيدا عن الضوضاء في جامع، و يختص بمُدرِّس أو مذهب أو دروس معينة، و كان بعضها يحظى بأوقاف لإعانة الطلبة و دفع رواتب المدرِّسين، و الزاوية بهذا المعنى قريبة من وظيفة المدرسة، من حيث الأوقاف عليها، و من جهة فإنها تتفق مع المؤسسات الأخرى المعروفة بالزاوية كونها تتخذ مكانا لها منعزلا في الجامع بعيدا عن الحركة، أما بناء الزوايا في الأماكن المنعزلة خارج المدن و على طرقاتها العامة، فكان في أغلبه لاستقبال الغرباء و عابري السبيل[3] .

وللإشارة فإن أغلب الزوايا بنيت إلى جانب ضريح رجل صالح، أو عالم مشهور أوضريح مؤسسها، ولا نجدها بالقرب من أضرحة الحكام أو الأمراء[4] .

يرى جورج مارسيه أن تطور الزاوية ارتبط بتطور الحركة الصوفية في بداية القرن

---

(1) محمد نسيب: زوايا العلم و القرءان بالجزائر، ط1، دار الفكر الجزائر (ب .ت) ص27، 28 و أيضا : دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد 10 ،ص ص331،332، 333.

(2) عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص331.

(3) نفسه ، ص325..

(4) العربي لقريز، مرجع سابق، ص14

السابع الهجري / الثالث عشر ميلادي[1] .

ويذكر أيضا بأن الزاوية في المغرب الإسلامي، ما هي إلا أربطة فقدت وظيفتها الحربية،و تمسكت بالجانب الديني التعبدي[2] .

و يمكن تصنيف الزوايا في نوعين:

3-1-1. زوايا الأرياف:

هي عبارة عن مؤسسة تكوّنت في بدايتها حول مسجد أو ضريح لأحد الأولياء أو الصلحاء، تجتمع فيها قبيلة أو عرش، و يخصص فيها من يتولى أمرها لإطعام المترددين عليها... واستقبال من يأتيها بالهبات و العطايا ، دون أن يكون لها طابع اللزوم والدوام. و يتولى مسؤولية الزاوية أكثر الشخصيات علما و حكمة من المرابطين بها والمقيمين فيها، وتعمل معظمها علىتعميم الضيافة، واستقبال الغرباء و المسافرين وعابري السبيل.

و إلى جانب الوظيفة الإجتماعية و الخيرية فهي مؤسسة تعليمية يقبل عليها الطلبة بمختلف الأعمار لتلقي العلوم الأولية من فقه ولغة، أو دراسات عليا، و يكون ذلك تحت إشراف أولئك المعلمين و المدرسين و المشائخ المقيمين بالزاوية[3] .

3-1-2. زوايا المدن:

وهي عبارة عن مؤسسة أو مبنى ذو حجم كبير أو متوسط ، يحتوي على عدد من الغرف لإيواء الطلبة و العلماء و الغرباء عن البلد، و تلحق بها ميضآت و أسبلة (عيون عمومية)، كما يعين لها أساتذة " للدراسات العليا" بحيث تصبح المؤسسة في هذه الحالة مدرسة أكثر منها زاوية، و هو ما أدى إلى عدم التمييز في المصطلح، فكانت زاوية سيدي الحلوي وزاوية المدرسة التاشفينية ضمن هذا النوع من الزوايا المتواجدة بداخل المدن[4] .

---

[1] George, Marçais L'art musulman, presses universitaire de France , Paris 1962, P129.

[2] George Marçais: L'architecture musulmane d'occident, Paris 1954, P284.

[3] عبد العزيز لعرج، مرجع سابق، ص326.

[4] نفسه ، الصفحة نفسها.

و كما اتصلت الزاوية بالمدرسة من حيث الوظيفة، فقد اتصلت من جهة أخرى بالرباط،و علاقتها به تكمن في نظامها المعماري. و تخطيطها الهندسي، فضلا عن علاقتها التاريخية،مثلما أورده إبن خلدون و ابن أبي زرع.

2-3. الرباط:

الرُّباط لغة من الفعل رَابَطَ، يُرَابِطُ،و الموضع الرِّبَاطُ،و القائم فيه يسمى مُرَابِطاً و هو في اصطلاح الفقهاء من احتبس نفسه للجهاد و الحراسة[1] .

و يدل أيضا على نوع من العمارات العسكرية و الدينية، لذلك شُبِهت لدى بعض الغربيين بالأديرة المحصَّنة، وأكثر ما نشأت في شمال إفريقيا لصد محاولات الغزو البحري الأروبي و إعداد حملات المجاهدين، و يجتمع في الرباط أتباع طريقة دينية، للتعبد و الإستعداد للجهاد، و أكثر الرباطات كان في تونس، منها رباط مدينة سوسة الذي تم إنشاؤه عام 821 م على يد الأغالبة، و يشتغل المرابطون بحراسة الثغور، فيكلفون منهم حرسا دائما في المنارة تراقب قدوم أسطول العدو، و حرسا مستعدا للعمل على أسطحة الرباط[2] .

عرف المغرب الإسلامي نظام الأربطة ، خاصة عند المرابطين [3]، الذين اتخذوها حصونا ونشروا دعوتهم منها، ومن ثم جاءت تسميتهم مشتقة من الرباط و المرابطة ليستمر بعدهم الموحدون في تشييدها والإهتمام بنائها[4].

مزج المسلمون بين الطبيعة الحربية للرباط والوازع الديني، وذلك لطبيعة الحرب التي يقودونها، فالجهاد يحتاج إلى جانب الجيش دعاة وفقهاء،للمواعظ وتقوية العزائم فصارت الأربطة تجمع بين القوة المادية (الجيش) والقوة الروحية (الفقهاء).

---

[1] إبن مرزوق: مصدر سابق، ص441

[2] أنور الرفاعي: تاريخ الفن عند العرب و المسلمين، ط2، دار الفكر ، 1977، ص107،108.

[3] المرابطون: سموا كذلك لاجتماعهم مع شيخهم عبد الله بن ياسين في رباط أنشأه لهم في صحراء مراكش، وكان من قبائل لمتونة البربرية، ويعرفون كذلك بالملثمين لأنهم كانوا يتلثمون كالنساء.

[4] حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، ج3، ط1، القاهرة 1968م، ص 437.

أصل الرباط المرابطة وملازمة ثغر العدو، و الذود عن حمى الإسلام مصداقا لقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ [1].

وقوله ﷺ في فضل الرباط : " رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل ".

وبمرور الزمن، وبعد استتباب الأمن و السلم، أخذت تلك الأربطة تفقد مهمتها الحربية شيئا فشيئا، لتتحول إلى مأوى للزهاد، و المتصوفة. وربما كان ذلك بداية لظهور الزاوية، أو تحولها هي نفسها إلى زاوية.

وبعد أن أصبح الرباط موضعا للتزهد و التصوف أخذ يفقد الدور العسكري الذي وجد لأجله كما جاء على لسان أحدهم :" شرائط ساكن الرباط قطع المعاملة مع الخلق ودفع المعاملة مع الحق ".[2]

3-3. المدرسة :

جاء ظهور المدرسة كمؤسسة مع نهاية العهد الموحدي،[3] وظهور حكام تونس وفاس وتلمسان، ممن اهتموا ببناء وتشييد هذه المؤسسات، فازداد عدد طلبة العلم بتوفير المأوى و الغذاء، وإيجاد كل الأسباب لذلك.[4]

فكانت الدولة هي الكفيلة بجميع المصاريف المترتبة عن طالب العلم طيلة الفترة الدراسية المحددة له، وفي هذا يقول حسن الوزان :"... وكان الطالب من طلبة هذه المدارس، وفي الزمن الماضي معفى من مصاريفه، وملابسه لمدة سبع سنوات..."[5]

أما عن انضمام الطلبة إلى المدرسة، فكان لايتم إلا إذا تحققت شروط، ولعل

---

[1] الآية 200، سورة آل عمران.

[2] ابن مرزوق، مصدر سابق، ص 412.

[3] الموحدون : من بربر المصامدة، كانوا يقطنون جبال الأطلس الكبير، والتفوا حول رجل يدعى محمد بن تومرت، استطاع أن يجمع من حوله مجموعة كبيرة منهم، نجحوا في القضاء على حكم المرابطين، واستولى على مراكش في 541هـ.

[4] العربي، لقريز : مرجع سابق، ص 15.

[5] حسن الوزان : وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضر، ج2، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ص27.

أهمها: الموافقة الرسمية للسلطات، ثم يأتي التأهيل العلمي، و الخصال التي تميّز الطالب في الدرجة الثانية، على عكس الزاوية التي ينظر إليها كمؤسسة رسمية تهتم بتكوين الوزراء و القضاة، والكتاب والقناصلة وغير ذلك من المناصب الهامة في الدولة.

كما وجدت في معظم المدارس قاعات للصلاة، دفعا لوصف الفندقية عنها بدليل تعمّد عدم بناء المآذن بجل المدارس، لأن المدارس مشتقة من الدرس وأنها من أجل ذلك.[1]

وتتميز المدرسة عن الزاوية بفروق منها :

أن الزاوية – وهي بديل متطور للرباط في العصور الأولى للإسلام – انتشرت في الجبال والسهول و الواحات، حيث نمت وكتب لها الإستمرار في مناخ اجتماعي ملائم، لا تتوفر لها في المدينة، أما المدرسة، فهي مؤسسة علمية أنشئت أساسا في المدن .

كما أن الزاوية مؤسسة حرة، بينما تصطبغ المدرسة بشكل أو بآخر بالصبغة الحكومية، فالزاوية تقوم على أساس مايسمى بالتعليم الحر،أما المدرسة فتلتزم بالإتجاه السياسي للدولة .

ومن الفوارق أيضا: أن الزاوية، تعتمد في مواردها على الأوقاف التي حبسها عليها أهل الخير، وعلى الصداقات التي تجمع من الأتباع والموريدين، سواء كانت الزاويا مرابطية أو طرقية، أما المدرسة فتعتمد في مواردها على الأوقاف التي حبسها عليها الحكام، وتديرها الحكومة بشكل مباشر أو غير مباشر .

ومنها: أن الزاوية تضطلع– إلى جانب وظيفة التعليم – بنشاطات آخرى في مختلف نواحي الحياة، بينما تقتصر المدرسة على التعليم فقط.[2]

ويبدو مما سبق أن العلاقة بين المؤسسات الثلاث وطيدة من حيث الوظيفة والنظام المعماري، باعتبار أسبقية الرباط في الظهور، لتليه الزاوية، فالمدرسة التي تعتبر تطورا

---

[1] عبد الهادي التازي : مرجع سابق، ص 361.

[2] مسعود العيد،مرجع سابق، ص69.

تدريجيا للزاوية وظيفيا ومعماريا، غير أنه يُرجَّحُ أن ذلك التحول كان تدريجيا، وهو ماتدل عليه الربط القديمة كرباط سوسة،و المنستير بإفريقية (تونس) مما أدى إلى اختلاط الأمر على المؤرخين والدارسين، فأطلقو إسم الزاوية على الرباط، وتساوت أسماؤهما مثلماكانت عليه الحال في زاوية أورباط تافرطاست المرينية[1]

II-تطور المدرسة ببلاد المغرب الإسلامي حتى نهاية العهد العثماني :

تعتبر المدرسة النظامية ببغداد المنشأة سنة457هـ/1065م السباقة في الظهور ثم تلتها مدارس أخرى في شتى الأقطار و الأمصار، إلى أن وجدت ببلاد المغرب في العهد الموحدي أيام حكم الخليفة أبي يعقوب المنصور(555-595هـ/1160-1198م)[2]

1-تطور المدرسة في تونس حتى نهاية العهد العثماني:

كانت تونس منذ الفتح الإسلامي مركزا علميا كبيرا، واستمرت كذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر بسقوط آخر رموز الخلافة الإسلامية في المنطقة، واشتهرت بمدارسها العلمية والفقهية منذ نهاية العهد الموحدي، وبداية العهد الحفصي .

1-1.المدرسة في العهد الحفصي :

شهدت مرحلة حكم بني حفص الممتدة من (624-647 هـ/1227-1249م) قفزة كبيرة للعلم و رجالاته، إذ يجمع جل المؤرخين أن أول مدرسة بنيت بالمغرب الإسلامي تعود إلى العهد الحفصي، بناها أبو زكريا الأمير في تونس سنة 636 هـ/1238 م، وسميت بالمدرسة الشماعية[3] .

وفي عهد أبي زكريا الحفصي (624-647 هـ/1227-1249م) شيدت مدرسة عرفت بالمدرسة الشماعية لتلقين تعاليم الدين الإسلامي على مذهب إمامهم المهدي بن

[1] عبد العزيز لعرج، مرجع سابق،ص330.

[2] إبن أبي زرع: مصدر سابق،ص143.

[3] Lucien , Golvin: la madarsa mediévale, Paris 1995, P175.

تومرت،و ذلك عام 633 هـ / 1235 م[1] .

توالى بعد ذلك بناء المدارس في إفريقية (تونس) لتدريس العلوم النفعية و الدينية منذ منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر ميلادي، حتى نهاية القرن الثامن هجري / الرابع عشر ميلادي،و قد فاق عددها العشر مدارس.

ففي حوالي 650 هـ /1252م، أنشأت الأميرة الحفصية عطف أم المستنصر، و زوجة أبي زكريا المدرسة التوفيقية[2] المعروفة بمدرسة الهواء، و تلتها مدارس أخرى، مازالت آثارها شاهدة إلى الآن، كالمدرسة العنقية، و مدرسة ابن تافراكين التي تنسب إلى الإمام ابن تافراكين[3] .

و يعتبر أبو محمد بن تافراكين من رجالات الدولة الحفصية، تقلب في العديد من المناصب حتى تولى الوزارة،و قد ساهم في الحركة المعمارية للمدارس إلى أن توفي سنة 766هـ/ 1364م، و دفن بالمدرسة التي كان قد شرع في تشييدها قبل وفاته بجوار مسكنه داخل قصبة تونس، و خصّصها لجمع العلم[4] .

و ازداد تشييد المدارس خلال القرن 9 هـ/15 م، ليتعدى عددها الستة، بناها سلاطين و قادة الدولة الحفصية، و ألحقت ببعضها زوايا أو مساجد، أو أسبلة فظهر بذلك نمط معماري جديد للمدارس، هو المدرسة الزاوية، مثل مدرسة باب البحر التي شيدها أبو فارس عبد العزيز سنة 799 هـ/1396 م، و شرع السلطان المستنصر بالله في بناء مدرسة أكملها أخوه وولي عهده أبو عمرو عثمان سنة 841 هـ/1437م[5] .

2-1. المدرسة في العهد المرادي:

بانقضاء الحكم الحفصي، تراجعت الحياة الثقافية بتونس بشكل كبير، خاصة و أن

---

(1) عبد العزيز لعرج: مرجع سابق، ص309.

(2) العربي لقريز: مرجع سابق، ص20.

(3)Lucien, Golvin, Op, cit, P182.

(4) عبد الرحمان بن خلدون : كتاب العبر...، ص 856.

(5) عبد العزيز لعرج، مرجع سابق: ص311.

من تولوا بعدهم دخلوا تحت إمرة الدولة العثمانية، فضلا عما شهدته المنطقة من صراعات و حروب بين القادة و كبار المسؤولين.

كما كانت العهدة المرادية[1] نقطة تحول كبيرة في تاريخ تونس الحديثة و أحوالها السياسية ، الاجتماعية و الإقتصادية، خاصة فيما أصبح يعرف بالجهاد البحري الذي تبنته الجزائر وتونس في حوض المتوسط، و كان لهذا التحول أثره في الجانب الثقافي الذي شهد تراجعا كبيرا إذا ما قورن بما كانت عليه أيام الحفصيين، و ذلك ربما راجع لانشغالات القادة بالفتن الداخلية و الحروب الخارجية.

و بقطع النظر عن ذلك، فقد شهدت الفترة ظهور بعض المدارس في مناطق مختلفة أهمها المدرسة اليوسفية بسوق البشامقية في عهد يوسف الداي (1610م-1019 هـ/1637م-1047هـ) و كان الشيخ رمضان أفندي أول من درّس بها، و أول من أفتى فيها بمذهب الإمام أبي حنيفة، و في عهد مراد باي بن حمودة باشا بن مراد (1076هـ-1666م/1086هـ-1675م)، جرى تهديم فندق كانت تقطنه طائفة من جند الترك، و ابتنى مكانه مدرسة سميت بالمدرسة المرادية في سوق القماش[2] .

و في عهد محمد باي (1086 هـ/1675م) انتعشت الحركة المعمارية للمدارس وانتعش معها الإهتمام بالعلم و الدين، و في هذا يصف ابن أبي الضياف أهم مآثر هذا الباي العلمية فيقول :"...ومنها مدرسة للعلم،و المسجد بالكاف،و مدرسة الجامع للحنيفة بباجة،و المدرسة والمسجد بقفصة،ومدرسة بتوزر، ومدرسة بقابس مجاورة لمقام السيد الصحابي أ بي لبادة الأنصاري رضي ا لله عنه، ومدرسة وجامع للحنفية بالقيروان، بناهما أيام تخليه بها، وأوقف على أثارهم أوقافا نافعة "[3].

---

[1] المراديون:حكموا تونس بعد الحفصيين...أنظر www.maghrebmed.com

[2] أحمد بن أبي الضياف: إتحاد أهل الزمان في أخبار ملوك تونس و عهد الأمان ، ط2، ج2، الدار التونسية للنشر – تونس 1977، ص55.

[3]نفسه، ص77

1-3. المدرسة في العهد الحسيني :

بانقضاء العهد المرادي، يظهر الحسينيون[1] على الساحة السياسية في نفس ظروف من سبقهم، بتبعيتهم لسلطة الباب العالي.

وتستمر المدرسة في الظهور و التطور، لتضرب موعدا مع الباي حسين بن علي الذي بدأ حكمه سنة 1117هـ/1705م ببنائه للمدرسة الغربية من جامع الزيتونةو والمدرسة المعروفة بالنخلة، التي أول من إشتغل بالتدريس فيها كان العلامة أبو عبد الله محمد بن محمد الخضراوي سنة 1126هـ/1714م، ومدرسة "ساباط عجم" المعروفة الأن بالحسينية الصغيرة ، و أول مدرّس بها كان الفقيه المفتي أبا عبد الله محمد جعيط[2] .كما قام بإنشاء مدارس أخرى خارج الحاضرة منها مدرسة بصفاقس، و أُخَرْ بالقيروان و نفطة و سوسة وفي هذا الصدد يقول شارل أندري جوليان "... و أعلى حسين الباي سور القيروان وأعطاه شكله الحالي، و بنى عدة مدارس".[3]

كما تعتبر عهدة علي باشا (1153هـ-1740م/ 1169هـ-1756م) حافلة بالإنجازات العمرانية التي أخذت منها المدارس القسط الوافر، و لعل أهمها المدرسة الباشية و مدرسة بير الحجار، و مدرسة حوانيت عاشور، و هم مخصصون جميعهم لطلبة العلم على المذهب المالكي[4] ...الخ

أما علي باشا باي الثاني(1172هـ-1759م/1196هـ-1782)،فقد شهدت فترة حكمه ظهور مدرسة جديدة، سهر بنفسه على بنائها وتعرف بمدرسة الجديدة[5] .

2- تطور المدرسة في المغرب الأقصى حتى العهد العلوي:

لا شك أن تطور المدرسة في المغرب الأقصى يختلف عن تطورها في تونس

---

(1) الحسينيون:حاوّروا بعد المراديين في تونس في ظل الخلافة العثمانية.-في- www.edumet.tn

(2) أحمد بن أبي الضياف: نفسه ، ص 125.

(3) شارل أندري جوليان :مرجع سابق، ص382

(4) نفسه،ص383.

(5) أحمد بن أبي الضياف: مصدر سابق، ص211.

والجزائر نتيجة الظروف السياسية التي شهدتها المنطقة عقب انقضاء زمن الدويلات المتبقية من العهد الموحدي.

1-2. المدرسة في العهد المريني:

تعتبر المرحلة المرينية[1] (616 هـ -1219م/831 هـ -1426م) أزهى فترات المغرب الأقصى علميا وثقافيا، لما شهدته من نقلة نوعية في مجال الفكر و الدين، فما زال التاريخ يسجل إنجازات هذا العصر صنعها ملوك و أمراء و قادة، بذلوا جهدا في سبيل العلم ورجالاته، وما المراكز و المؤسسات العلمية و الثقافية الممثلة بالزوايا و المدارس و الجوامع إلا دليلا ساطعا و برهانا قاطعا على مظاهر الرقي الفكري و الحضاري لأمة خلدت إسمها كي تتعاقبه الأجيال.

يرى مارسيه أن الدولة المرينية هي أكثر دويلات بلاد المغرب نشاطا و حيوية في مجال التشييد المعراني ، سيما فيما اتصل ببناء المدارس، فجاءت على درجة كبيرة من الأبهة و الفخامة[2] .

تعتبر مدرسة الصفارين التي شيدها أبو يعقوب بن عبد الحق (657-685 هـ / 1258-1286م) أولى المدارس التي أنشئت بالمغرب الأقصى، سنة 670هـ/1271 م[3] وأوقف عليها عدة أوقاف .

كما عُرف القرن 8 هـ/14م بهمة سلاطين بني مرين في مجال العمران والتشييد وكان قد وصل الفن المريني قمة ازدهاره ورقيه، حيث شيدت في تلك الفترة معظم المدارس المرينية، التي تقاسم انشاءها كل من السلطان أبي سعيد بن يوسف، وابنه السلطان أبي الحسن بن سعيد بن يوسف الذي يعد بحق، الرائد الأول في إنشاء المدارس

---

(1) المرينيون:قامت دولتهم في المغرب الأقصى بعد سقوط الموحدين.

(2)George Marçais: l'architecture muslmane , op, cit, P285.

(3) عبد الهادي التازي: مرجع سابق، ص 357، و انظر أيضا: محمد محمد الكحلاوي، مرجع سابق، ص37. و أيضا : عبد العزيز لعرج: مرجع سابق، ص312.

لما أظهره من ولع كبير بعمارتها وتشييدها منذ أن كان وليّا للعهد في فترة حكم والده[1]

فابن مرزوق يذكر أن أبا الحسن(732هـ-749هـ/1331م-1348م) أنشأ في كثير من حواضر بلاد المغرب الأقصى والأوسط مدارس [2] ، منها على وجه الخصوص مدرسة سيدي أبي مدين بتلمسان، ومدرستا الواد والمصباحية بفاس، ومدارس أخرى في تازة،وسلا، ومراكش،ومكناس[3] .

أما السلطان أبي عنان فارس المتوكل (749-759هـ/1348 -1357م)،فقد أنشئت في عهده مدارس عدّة أهمها المدرسة البوعنانية واحدة بفاس، وأخرى بمكناس ...الخ[4]

وتعدّ المدرسة البوعنانية بفاس التي انشئت سنة756هـ/1350م أجمل مدرسةفي المغرب من الناحية المعمارية و الفنية، كما أنّها تعد آخر المدارس العظيمة التي شُيدت في المغرب[5] .

2-2.المدرسة في العهدالسعدي:

اكتفى السعديون[6] (915هـ- 1510م/1069هـ-1658م) بما أنشأه أسلافهم المرينيون من مدارس، استمرت تؤدي وظيفتها كمنشأة تعليمية طول فترة حكمهم ...فعنوا بترميم ما تداعى منها، فبإلى عبد الله الغالب المتوفي في 981هـ/ 1574م يرجع فضل إعادة بناء مدرسة أبي يوسف بمراكش سنة 972هـ / 1564م، وقد حظيت مدينة مراكش في العصر السعدي مثلما حظيت به نظيرتها فاس في العصر المريني، حيث اهتم السعديون بمراكش أيمًا اهتمام وعناية، لكونها دار ملكهم، فشيدوا بها المدارس الكبرى مثل مدرسة قصبة مراكش و مدرسة "جامع باب الدكالة الكبير" و مدرسة " حومة ابن

---

(1) محمد محمد الكحلاوي: مرجع سابق، ص77.

(2) ابن مرزوق : مصدر سابق، ص406.

(3) شارل أندري جوليان: مرجع سابق، ص233.

(4) عبد العزيز لعرج: مرجع سابق ، ص315.

(5) محمد محمد الكحلاوي: مرجع سابق، ص79.

(6) السعديون:تأسست دولتهم على يد أسرة علوية من الأشراف، وامتدت من 1549-1654، وبلغت أوج قوتها في عهد المنصور الذهبي، عام 1603م،ووصلت جنوبا إلى دولة صنغاي في غرب افريقيا...انظر الموسوعة العربية العالمية، ج3،ط2،موسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع،1999، ص261.

صالح " بمراكش ، و مما شيدو في مدينة تارودانت مدرسة على يد محمد المهدي بن محمد القائم المتوفي في 646هـ/1557م ، وكانت تقع بجوار الجامع الأعظم.[1]

كما شارك العامّة حكّام السعديين في بناء وإقامة المدارس، حيث بنوا مدرسة "أقا" المنسوبة إلى الشيخ محمد بن مبارك المتوفي سنة 920هـ/1514م ، ومدرسة الحسن ابن علي التاملي بتيوت قرب تارودانت [2] .

3-2.المدرسة في العهد العلوي :

شهدت الفترة العلوية [3] من تاريخ المغرب الأقصى، فترة حروب و صراعات، وربما كانت عاملا أساسيا في العزوف عن البناء والتشييد ، نظراً للظروف السياسية والتحولات التي كانت شهدتها المنطقة ، خاصة في ظل التحرش الجزائري ، والحملات العسكرية الغربية ، وظهور حركات داخلية مناهضة للقصر.

ففي الجانب العلمي حافظ العلويون على ما توارثوه عن أسلافهم من مدارس و زوايا ومساجد ، و لم يُكلفُّوا أنفسهم عناء البناء و التشييد إلاّ القليل.

ففي عهد مولاي الرشيد (1666-1672) مؤسّس الدولة العلوية ، شهدت فاس بناء مدرسة "الشراطين" على أنقاض مدرسة قديمة بدعوى أن الطلبة دنّسوها بمجونهم ويلاحظ على الفن المعماري لهذه المدرسة أنه لم يرق إلى صفاء الفن المريني [4] .

أما مولاي اسماعيل (1672-1717م) فقد أعاد بعث المدرسة البوعنانية الجميلة التي بنيت في أواسط ق14 [5] .

كما تم إنشاء مدرسة باب قيرة في عهد سيدي محمد بن عبد الله(1757-1790م) [6] .

---

[1] محمد محمد الكحلاوي: مرجع سابق، ص79.

[2] نفسه ، ص78، 79.

[3] العلويون:تأسست دولتهم عام 1640، وتمكنوا من إعادة وحدة البلاد بعد السعديين...انظر: الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق،ج16، ص548.

[4] شارل أندري جوليان: مرجع سابق،ص291

[5] نفسه،ص303.

[6] نفسه،ص311.

3-تطور المدرسة في الجزائر حتى نهاية العهد العثماني:

كان للنهضة الفكرية التي عرفتها المغرب وتونس أثرها على الجزائر، حيث شهدت هذه الأخيرة منذ العهد الزياني اهتماما بليغا بالعلماء، وتجسد ذلك في بناء وتشييد مدارس عبر جل حواضرها، واستمر الأمر كذلك في عهد العثمانيين وعلى نطاق أوسع.

3-1.المدرسة في العهد الزياني:

لم يدَّخِر ملوك الزيانين جهدا في الظهور بمظهر الحكام المولعين بالعلم والمقدرين للعلماء، وترجم إهتمامهم ذلك ببناء بعض المدارس،وبعث الحياة الفكرية و الثقافية والدينية على مذهب الإمام مالك[1]،حتى أصبحت تلمسان-كما يقول إبن خلدون-قبلة طلبة العلم ومقصدهم[2]

وقد برزت في الجزائر أثناء الحكم الزياني مدارس حظيت بشهرة كبيرة، منها خمس بتلمسان، وأخر ببجاية و قسنطينة،وهي مزدانة بزخارف الفسيفساء[3].

و تلمسان باعتبارها عاصمة الزيانيين و مستقر ملوكها و أمرائها و سلاطينها، قد حظيت بنصيب أوفر، وبقسط أكبر، و اهتمام أبلغ في مجال العلم و مراكزه. فبعد مدرسة "إبني الإمام" السالفة الذكر، جاء دور المدرسة التاشفينية التي تأسست في عهد أبي تاشفين (718-737 هـ/1318-1336م)[4] و كانت تضاهي مدارس فاس.

و في عهد أبي حمو موسى الثاني (760-791 هـ /1358-1388 م) بُنِيت المدرسة اليعقوبية الزيانية ما بين سنتي 763-765 هـ/1361-1363 م[5].

و جاء ذكرها عند ابن مريم في قوله:" ... فانطلق إلى تلمسان و تلقاه أبو حمو

---

(1) المذهب المالكي:نسبة لمالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، ولد بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع، ويعتبر مالك صاحب مذهب فردي مستقل جاء نتيجة احتهاده..انظر الموسوعة العربية العالمية، مرجع سابق، ج22، ص120.

(2) عبد الرحمان بن خلدون:كتاب العبر ....،ص80.

(3) مسعود العيد : مرجع سابق ، ص65.

(4) العربي لقريز: مرجع سابق، ص24.

(5) عبد العزيز لعرج: مرجع سابق، ص322.

براحتيه و أصهرَ له في ابنته فزوجها إياه و بنى له مدرسة..."[1] .

أما سبب تسميتها باليعقوبية فيذكر عبد الحميد حاجيات أنها نسبة إلى والده يعقوب الذي دفن بها[2] .

و تضاف إلى هذه المدارس الثلاث التي تركها الزيانيون،مدرستان بناهما بنو مرين في تلمسان هما: مدرسة " العباد"، و مدرسة " سيدي الحلوي".

لكن المؤسف في كل هذا هو اندثار و زوال جل المدارس المذكورة، و التي لم يبق منها سوى مدرسة العباد التي تبقى رمزا خالدا و شامخا و معلما راسخاً في بلد العلم و الحضارة.

كما كانت حركة الثقافة و التعليم في الجزائر قبل دخول العثمانيين تتركز في ثلاث حواضر أساسية هي: مدينة تلمسان في الغرب الجزائري، مدينتي بجاية و قسنطينة في الشرق الجزائري،و كانت هذه الحواضر تعد بحق مراكز للتعليم و الثقافة و الإشعاع الفكري، فقد ظهرت فيها العلوم و الآداب و الفنون لعدة قرون، كما اشتهرت بها أسر علمية، توارثت العلم و المعرفة، و تقلب أفرادها في مناصب التدريس و الإفتاء و القضاء و الإمامة منها أسرة ابن مرزوق، و المقري، و العقباني في تلمسان، و أسرة ابن باديس وابن قنفد، و الفكون في قسنطينة، و أسرة المشدالي،و الغبريني في بجاية[3] .

2-3-المدرسة في العهد العثماني:

ما كاد يهل القرن السادس عشر، و يبسط ظلاله على ربوع الجزائر، حتى أخذت حركة التعليم و الثقافة منحى جديدا، فلم تعد مراكز التعليم محصورة في الحواضر، و إنما أخذت تنتقل إلى الريف، و تنتشر في كافة أنحاء البلاد، في الجبال والسهول و الصحاري، فتأسست الزوايا العلمية و الدينية،و المدارس الفقهية و العلمية

---

[1] ابن مريم: مصدر سابق، ص165،166.

[2] عبد الحميد حاجيات: مرجع سابق، ص105.

[3] مسعود العيد: مرجع سابق، ص58.

ويقول المهدي البوعبدلي في هذا الصدد :" ... إن العصر العثماني امتاز في الجزائر بانتقال المراكز الثقافية من المدن إلى الجبال و القرى، و اشتهرت عدة معاهد إذ ذاك في كامل القطر، كمعاهد ، بني يعلى العجيسي،و عبد الرحمان اليلولي... ثم معاهد الراشدية ومازونة، و وانشريس ،و اليعقوبي..."[1] .

لقد كثرت المدارس في الجزائر حتى كاد لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن ولا قرية من القرى في الريف، بل إنها كانت منتشرة حتى عند أهل البادية و الجبال النائية وهيما جعل الكثير ممن زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينتبهون لكثرة المدارس بها وانتشار التعليم، و ندرة الأمية بين السكان، وقد عد بعضهم العشرات من هذه المدارس في البايلك الواحد[2]

أجمع جل المورخين على كثرة المدارس ،وتعددية المناهج والطروحات ،لكن ما يحسب عليها أنها انحصرت برابحها العلمية في اتقان مواد الشريعة، كالعقيدة والحديث والسيرة والتفسير...الخ،ولم تعرف المدارس الجزائرية باقي العلوم الأخرى، كالطب والهندسة والفلك ...إلا ما جاء نادرا ،وإن وجدت بعضها كالحساب فلمعرفة الفرائض وأمور الدين.[3]

كان الدين و التعليم في الجزائر العثمانية صنوين متلازمين،وكان التعليم قضية أهلية قلما تدخلت الحكومة فيها، و قد ورث العثمانيون هذه الحالة عن أسلافهم، وربما كان الفرق بينهم و بين من سبقوهم، أن هؤلاء كانوا من أهل الديار في إسهامهم في تشجيع المدارس وتقريب العلماء و تكريمهم و استقبال المادحين من الأدباء و الشعراء، أما العثمانيون فلم يهتموا بذلك ... بقدر ما ساهموا في دفع التعليم برصد الأوقاف، وصيانة المساجد و تشييد المدارس و إرضاء رجال الدين[4] .

---

[1] المهدي بوعبدلي: الثقافة و التوجيه بالجزائر– في- أشغال مؤتمر الفكر الإسلامي، الجزائر، 1970، ص07.

[2] أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي (1500–1830)، ج1،ط3،دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998،ص274

[3] عبد المجيد مزيان :الموسسات الثقافية في الجزائر قبل الاستعمار ،في ،مجلة التاريخ ،ع2،الجزائر 1986،ص14

[4] أبو القاسم سعد الله: بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني (1518 1830) في البصائر ع81،=

وأصبح التعليم بمرور السنين مقتصرا تقريبا على التعليم الديني و المتمثل في تحفيظ القرآن الكريم،و تعليم القراءة و الكتابة و مبادئ الحساب و الإنشاء و حفظ المتون الفقهية و النحوية و العروضية و الفرضية[1] .

عرفت قسنطينة عاصمة بايلك الشرق- المدارس بنوعيها الإبتدائية و الثانوية، فقد بلغت حوالي تسعين مدرسة ابتدائية في الفترة التي سبقت العهد الإستعماري، يتمدرس فيها حوالي 1350 تلميذ[2] .

أما التعليم الثانوي و العالي فقد أُحْصِيت سبع مدارس، منها مدرسة ابن الفكون و مدرسة ابن أفوناس، و المدرسة الكتانية التي كانت تعتبر من أهم المدارس الجزائرية في تلك الفترة، و التي تأسست في عهد صالح باي (1771-1792)،و هي اليوم تستغيث من ويلات الإهمال و اللامبالاة[3] .

يعد عهد صالح باي في قسنطينة من أزهر عصور العلم و الثقافة، لما أعطاه من أهمية بالغة لهذا المجال ،فأسس مدرسة سيدي لخضر عام 1193ه/1779م، والمدرسة الكتانية أو سيدي الكتاني عام 1190هـ/1776م لتعليم مختلف الفنون ،وجعل لها نظاما خاصا ومحكما وهي ما تزال قائمة إلى يومنا هذا، كما قام بتشييد مدارس أخرى في عنابة والقل وجيجل وكان يلحق بكل منها جامعا وكتابا ودار كتب.[4]

أما في العاصمة ،فلم يحص عدد ثابت للمدارس ،ومع ذلك اشتهرت ببعضها كالمدرسة القشاشية التي أشاد بها أبو راس الناصري أثناء زيارته للجزائر سنة 1214هـ/1800م، ومدرسة الجامع الكبير بالعاصمة التي نزل بها الشيخ أحمد الورززي

-(28 جانفي-04 فيفري)، الجزائر 2002، ص13.

[1] نفسه، الصفحة نفسها.

[2] أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الإحتلال) ط3، ش،و،ن،ت الجزائر، 1982، ص163.

[3] م زتيلي، المدرسة الكتانية بقسنطينة في الخبر اليومي ع 3390(05 فيفري)، الجزائر 2002، ص19. و أنظر أيضا : عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج3، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1992، ص537.

[4] مسعود العيد :مرجع سابق ،ص65

التطواني في منتصف القرن 18م،12هـ[1]

يذكر بعض المؤرخين أن مدينة الجزائر قد تطورت خلال العهد العثماني تطورا ملحوظا في المجالات السياسية التجارية و التعليمية، مما جعلها تستقطب العلماء و الطلبة من الأرياف كما من المدن ، و إذا ما قورن حال التعليم فيها مع باقي الحواضر، فإنه كان لا يرق إلى المستوى العام، فقليل من كان يهتم بالعلم و التعليم قبيل مجيئ العثمانيين[2] لكن بحلول القرن السادس عشر توسع عمران مدينة الجزائر، فأصبحت تضم بالإضافة إلى الجامع الكبير الذي بني قبل الفترة العثمانية جوامع و زوايا و مدارس كثيرة.

تعد المدرسة الحسينية بالعاصمة من أهم المدارس في الفترة العثمانية، وكان من علمائها الشيخ محمد بن القاضي، الذي عرُف بغزارة علمه، و تبحره في الفقه و علوم الحديث، و بها كانت وفاته سنة 1242 هـ/1730 م. أما مدرسة سيدي رمضان فقد خرجت عن عادة مدارس عهدها بتخصصها إلى جانب العلوم الدينية، في العلوم الرياضية كالحساب و الفلك و الهندسة و الفرائض...[3]

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، هناك مدرستين اشتهرتا في العهد العثماني هما مدرسة الأندلسيين و مدرسة شيخ البلاد، و قد وصفتا بمستواهما العالي .خاصة الاولى باعتبار الاندلسيين عرفوا بمنهجهم في التدريس و حسن التربية ومراعاة التطور العقلي للتلاميذ، أما مدرسة شيخ البلاد فيشير إسمها إلى إسم الحي الذي تقع فيه، كون مؤسسها هو الحاج محمد خوجة في أواخر القرن 12 هـ/18م[4] .

وفي الغرب الجزائري اهتم الباي محمد الكبير فاتح وهران بتشييد دور العلم، من مساجد ومدارس وزوايا، حيث بنى المدرسة المحمدية بمعسكر، و التي كانت في درجة

---

[1] أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، ص164.

[2] أبو القاسم سعد الله : بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني (1518-1830) في البصائر - ع82، (4 فيفري)، الجزائر 2002، ص13.

[3] عبد الرحمان الجيلالي: مرجع سابق، ص538.

[4] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي... مرجع سابق، ص282.

ثانية بالنسبة للجامع، كما قام ببناء وترميم مدارس أخرى في وهران و مازونة...[1]

و كان محمد الكبير بايا على معسكر ثم و هران، ومعاصرا لصالح باي ، باي قسنطينة،و هما من أبناء الأتراك الذين تزوجوا نساء جزائريات فأطلق عليهم إسم "الكراغلة" و كان من مواليد الجزائر و العارفين بمتطلبات العلماء و رجال الدين، و قد ركز في حكمه على فتح وهران و استعادتها من الإسبان، و جند من أجل ذلك العلماء و رجال الدين، فكانوا يدرسون بالليل و يحاربون بالنهار عند جبل المائدة المطل على وهران[2] . وإرضاء للعلماء، اهتم بالمدارس و المساجد، فبنى المدرسة المحمدية بمعسكر ومسجد الباي... و كانت المدرسة التي بناها محمد الكبير تضم أربعة مدرسين،و عددا هاما من الطلبة، و قد خصص فيه أحمد بن سحنون كتابا سماه " الثغر الجماني" و ابن زرفة كتابا " الرحلة القمرية"، كما أثنى عليه المورخ أبو راس في كتابه " عجائب الأسفار"[3] .

وتعد مدرسة الشيخ مصطفى الشيخ بن المختار الراشدي التي تخرج منها حفيده الأمير عبد القادر مركزا علميا وثقافيا بحق، و التي تأسست في أواخر القرن 12 هـ/17م وأصبحت تسمى بمعهد القيطنة[4] .

III- مدرسة مازونة النشأة و التطور:

لعبت مازونة دورا رياديا في مجال العلم و الفكر و الثقافة، حتى أصبحت قبلة يحج إليها طلبة العلم من كل حدب و صوب طيلة العهد العثماني و معظم الفترة الإستعمارية،و كان لمدرستها الفضل في هذا الصيت الواسع، و السمعة الطيبة.

---

[1] مسعود العيد: مرجع سابق، ص65.

[2] أبو القاسم سعد الله : بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني...مرجع سابق، ع83، ص13.

[3] نفسه، الصفحة نفسها.

[4] ناصر الدين سعيدوني – المهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ – العهد العثماني – ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص228.

1- نشأة مدرسة مازونة:

تعتبر مدرسة مازونة رمزا حضاريا و معلما ثقافيا للجزائر طيلة قرون عدة من الزمن تناولتها المصادر بإسهاب، ثم المؤرخون المعاصرون بإنتاجات جمة، إذ كانت تقارن أيامها حسب بعضهم بالمعاهد العليا في فاس، و تونس و مصر، لما كانت تتوفر عليه من أساتذة و علماء ذاع صيتهم في المغرب و المشرق...[1]

إن المؤكد هو أن مازونة كانت تحوي أكثر من معلم ثقافي و علمي، خاصة منها الزوايا و المساجد، كلها ساهمت في بعث الحركة العلمية طيلة العهد العثماني، و فترة من عهد الإحتلال الفرنسي، لكنها اشتهرت بمدرستها الفقهية التي بلغ صيتها عنان السماء وفي هذا الصدد يقول أبو القاسم سعد الله:"... وهناك مدن أخرى في غرب البلاد كان وضعها غير مستقر أيضا، و لكن حظها من التعليم كان أفضل من حظ وهران... وكانت مدرسة مازونة مقصد مقصد العديد من الطلاب..."[2] .

وحول تاريخ تأسيس مدرسة مازونة،أسال جمع من المؤرخين و الباحثين الكثير من الحبر ملأت إنتاجاتهم رفوف المكتبات،فنجد أبا القاسم سعد الله يصف ذلك بقوله:"... لم تكن للجزائر العثمانية مدرسة مستقلة للتعليم المحض...باستثناء مدارس تلمسان التي تعود إلى العهد الزياني و كذلك مدرسة مازونة التي تأسست أواخر القرن 10هـ/16م[3] .

أما المهدي بوعبدلي فيرجح الرأي الأول، و يرى أن المدرسة تأسست حوالي سنة 1000هـ / 1590 م من طرف الشيخ محمد الشارف سليل عبد العزيز البلداوي. ويؤيد ذلك العيد مسعود[4] ،و جل المؤرخين المحدثين، و مما جاء في قول أحدهم:"...مدرسة

---

[1] ناصر الدين سعيدوني: عصر الأمير عبد القادر،ط1، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت 2000، ص133.

[2] أبو القاسم سعد الله: بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني... مرجع سابق، ع1، ص13.

[3] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي... مرجع سابق، ص280.

[4] ناصر الدين سعيدوني- المهدي، بوعبدلي: مرجع سابق، ص196.

مازونة ذات الشهرة المغاربية، والتي شيدت في نهاية القرن 16م، من طرف الشيخ محمد بن الشريف الأندلسي..."[1].

و هناك موقف ثان، يرى أن تأسيس المدرسة يرجع إلى ما قبل التواجد العثماني بالجزائر، و يتضح ذلك جليا عند عبد المجيد مزيان حيث يربط مدرسة مازونة بمدرستي العباد و التاشفينية بتلمسان، و يضعهم في نفس النهج، في قوله:"... و نذكر بأن أشهر المدارس التي تبنتها الدولة مع مساندة الجماعات كانت التاشفينية و مدرسة العباد ... مدرسة مازونة و هي نموذج مصغر لمدارس تلمسان"[2].

بتسليط الضوء على الأوضاع العامة في الجزائر خلال القرن العاشر الهجري، السادس عشر ميلادي، نجدها تحت سلطة الخلافة العثمانية منذ 1519 بصفة رسمية، ومازونة عاصمة للبايلك الغربي منذ 1565 و طيلة قرن و نصف من الزمن[3].

و من خلال الطرحين السابقين حول تأسيس المدرسة، و من خلال الأوضاع العامة في تلك الفترة، نرجح الرأي القائل بتأسيسها خلال القرنين العاشر و الحادي عشر هجري/ السادس عشر ميلادي، لأسباب عدة أهمها:

1-غياب الأدلة القاطعة بوجود مدرسة بمازونة أيام العهد الزياني في المصادر التي تناولت الفترة، و أخص بالذكر، كتاب العبر لابن خلدون، و البستان لابن مريم و وصف إفريقيا للوزان، نزهة المشتاق للإدريسي...إلخ.

2- حالة الاضطراب و غياب الاستقرار التي عرفتها مازونة أيام الزيانيين، بسبب مواقف حكامها إزاء دولة بني زيان، فتارة يعلنون و لاءهم،و تارة يكسرون عصا الطاعة

---

[1] فتيحة الواليش: الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، معهد التاريخ، جامعة الجزائر 1994، ص169، أنظر أيضا ، العيد مسعود، مرجع سابق، ص ص 65، 71.

[2] عبد المجيد مزيان: مرجع سابق، ص14.

[3] يحي بوعزيز: مدن تاريخية – وهران –ط1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر 1985، ص76، أنظر أيضا ، بن عودة المزاري: طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و إسبانيا و فرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، تحقيق و دراسة يحيى بوعزيز، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي، لبنان 1990، ص271–272.

ويتحالفون مع الحفصيين ضدهم، و هذا ما أدى إلى عـدم الإستقرار الـذي تمخض عنه هجرة العلماء و المشايخ من زواياهم و جوامعهم، إلى حواضر أخرى خاصة تلمسان.

3- دخول الجزائر تحت سلطة آل عثمـان، تولد عنه اختيار مازونة كعاصمة للبايلك الغربي منذ 1565 و الذي استمر حتى مستهل القرن 18 أي 1700م[1] ، حكمها عدة بايات، منذ عهد حسن بن خير الدين باشا، كان أولهم أبو خديجة ، فالسايح الذي حكم إحدى عشر سنة، ثم الباي ساعد،و خلفه الباي محمد بن عيسى...إلخ[2] .

و كان لهذه المكانة السياسية لمازونة وقعها العلمي و الثقافي، فشيدت فيها مدرسة من طرف الشيخ محمد بن الشارف الأندلسي، أصبحت خلال العهد العثماني قبلة لطلبة العلم من شتى البقاع و الأصقاع.

4- تأكيد جل المورخين الجزائريين، ومنهم أبو القاسم سعد الله، في أكثر من كتاب على ذلك ،كقوله :"... وقد بنى أحد المهاجرين الأندلسيين مدرسة مازونة المشهورة التي تخرج منها عدد من الفقهاء خلال العهد العثماني، وهو محمد بن الشارف البولداوي، وظلت هذه المدرسة محافظة على سمعتها حتى بعد انتقال كرسي الحكم من مازونة إلى معسكر"[3] .

5-تأكيد الدراسات الحديثة لبعض باحثي المنطقة إلى تأسيس المدرسة الفقهية و المسجد على يد الشيخ محمد بن الشارف في أوائل القرن الحادي عشر الهجري، و الذي درّس فيها حوالي أربعة و ستين سنة إلى أن توفي سنة 1164 هـ[4] .

1-1. ظروف تأسيس المدرسة:

يعود تاريخ نشأة المدرسة إلى مطلع القرن السادس عشر ميلادي و العاشر

---

[1] فتيحة الوالش: مرجع سابق، ص16.

[2] بن عودة المزاري: مصدر سابق، ص271.

[3] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص183.

[4] إبراهيم خرباش: مونوغرافيا حول أرشيف مازونة، مذكرة ليسانس في علم المكتبات و العلوم الوثائقية معهد المكتبات و العلوم الوثائقية، جامعة وهران 1993، ص46.

و الحادي عشر هجري، على يد الشيخ محمد بن الشارف الأندلسي. حيث كان لهجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب و منها الجزائر و قعها الخاص على المنطقة و في شتى المجالات منها السياسية و الإقتصادية و الثقافية. إذ احتكروا ميدان التعليم و لا سيما في الحواضر. و نقلوا مناهجهم التعليمية إليها، و من ذلك عدم الإقتصار في التعليم على حفظ القرآن بل أضافوا إليه تعليم الحديث و القواعد العامة لمختلف العلوم و تدارس بعضها. كما علّموا روايات القرآن و أنواع قراءاته...[1]

كانت السلطة تعيّن للمدارس كبار العلماء الأندلسيين و غيرهم،و تجري عليهم المرتبات تشجيعا منها لدفع عجلة التعليم إلى الأمام،و من بين حواضر الجزائر في العهد العثماني مازونة التي شهدت أيامها عزّا لم تشهده قبل و لا بعد، بوصفها عاصمة للعثمانيين في المنطقة، و امتلاكها لمدرسة بلغ صيتها عنان السماء بعدما أسسها بعض الأندلسيين بغية نشر العلم و الدين[2] ، حيث تذكر الروايات أن الشيخ محمد بن الشارف الأندلسي، كان يملك قطعة أرض خارج المدينة مساحتها 20 هكتارا، اشتغل فيها طيلة تواجده في المنطقة، وبقيت تشكل مصدر عيشه، حتى رأى ضرورة وجود مركز للعلم و التعليم تتماشى و متطلبات العصر، نظرا لوجود زوايا و مساجد لم تنل طرائق تعليمها رضى الشيخ الأندلسي، فاضطر إلى بيع القطعة بثمن قدره ثلاثين دورو[3] ، كخطوة أولى، لتقع عيناه على رقعة متوسطة الحجم داخل المدينة مقسمة إلى ثلاثة أجزاء مما يعني أنها كانت لثلاثة أشخاص مختلفين،فقرر شراءها،وسأل عن أصحابها، فوجدهن نساء فاشتراها منهن مقابل ثلاثة دورو لكل جزء،و بمجموع تسعة دورو، ثم قام بتسوية القطعة و تهيئتها، لبناء مدرسة مهمتها تلقين العلم و الفقه، لكن بعد معرفة النسوة الثلاث بنوايا الشيخ سعين لإهدائها إياه، فرفض ذلك وحرص على دفع ثمن القطعة لأصحابها،و من

---

[1] أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص47.

[2] أبو القاسم سعد الله : بعض التحولات في مسيرة التعليم بالجزائر خلال العهد العثماني: مرجع سابق، ع81، ص13.

[3] دورو: عملة جزائرية كانت متداولة أيام العثمانيين و لفترة من العهد الإستعماري.

حينها انطلقت الأشغال في بناء مدرسة و مسجد،و ساهمَ في ذلك الدفعة الأولى من الطلبة التي كان يقدر عددها بنحو عشرين طالبا، تكفلوا بنقل الديس و الخشب من الغابات المجاورة على ظهر الحمير و البغال[1] .

و للإعتقاد بقرب الرواية إلى الحقيقة، وتماشيها و الطرح العقلي كان اعتمادها على حساب الروايات الأخرى التي لا تنم إلى المنطق و العقل بشيء.

كان تأسيس المدرسة في بدايتها بشكل بسيط و بأدوات ومواد تقليدية، تمثلت في الطين و الديس، و الخشب و الحجارة... إلخ لكن يبدوا أن السلطات تكفّلت بأمرها فيما بعد، و عملت على إعادة بنائها و توسيعها وفق المكانة السياسية التي أصبحت تحتلها مازونة منذ 1565 م و إلى غاية [2] 1700م. و من خلال الطراز المعماري للمدرسة يتضح جليا التأثير العثماني خاصة في القباب.

2- تطور مدرسة مازونة:

كان القرن السادس عشر نقطة تحول كبيرة في الحياة العامة لبلاد المغرب الإسلامي، منها قدوم العثمانيين و تأسيسهم لدولة عاصمتها الجزائر، و اشتد الصراع بين المسلمين و المسيحيين برا و بحرا، و شرع حينها العثمانيون في تنظيم البلاد، فاختاروا مازونة أول مقر لبايلك الغرب قبل معسكر ووهران ، فزاد بذلك الإختيار إشعاع البلدة سياسيا و ثقافيا.

2-1. تطور مدرسة مازونة في العهد العثماني:

امتازت الجزائر بظهور مدرسة فقهية في نهاية القرن السادس عشر نالت شهرة كبيرة، والتحق بها الطلاب من شتى البقاع، وكان لموسسها محمد بن الشارف الأندلسي الفضل في اختيار مازونة موقعا لها.

---

[1] إبراهيم خرباش: مرجع سابق، ص46.

[2] بن عودة المزاري: مصدر سابق، ص ص 271-272. أنظر أيضا:يحيى بوعزيز: مرجع سابق ، ص76. و أيضا : فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص196.

و ذكر المهدي بوعبدلي أن مدرسة مازونة شهدت رقيا علميا طيلة الفترة العثمانية فكان إقبال طلبة العلم عليها كبيرا خاصة في عهد أبي راس الناصري[1] ، الذي عايش الفترة الأخيرة من الحكم العثماني في الجزائر، فأقام بمازونة ثلاث سنوات[2] طالبا للعلم، ثم معلما.

و تذكر بعض المراجع أن المدرسة استمرت تشع بالمعرفة حتى بعد انتقال العاصمة الإقليمية من مازونة إلى معسكر ثم إلى وهران،و كانت مقصدا لطلاب النواحي الغربية ولا سيما ندرومة و مستغانم و تنس و تلمسان ووهران[3] .

و يبدوا أن المدرسة بلغت شهرتها مدى بعيدا لتصل إلى المغرب الأقصى، فالتحق بها الطلاب و خاصة من إقليم الريف ومن مدينة فاس بالتحديد، واستمر هذا التوافد طيلة الخمسمائة سنة التي عاشتها المدرسة[4] .

ونظرا للمكانة العلمية التي كانت تحظى بها المدرسة، فقد كان يقصدها فقط المتفوقون عن أقرانهم في زوايا و مدارس بلدانهم، كما هو الشأن عند أبي راس الناصري ومحمد بن علي السنوسي[5] ، الذي تعتبر حركته –التي انطلقت من مدرسة مازونة – من أهم الحركات في بلاد المغرب و إفريقيا جنوب الصحراء.

يرى الجيلالي صاري أن مدرسة عاصمة البايلك الغربي ظلت تحتل مكانة هامة

---

[1] أبو راس الناصري: أديب و مؤرخ جزائري من مدينة معسكر، ولد حوالي 1165 هـ و توفي سنة 1233 هـ أو 1238 م – راجع ذلك في – محمد أبوراس الناصري فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمته حياة أبي راس الذاتية و العلمية– تحقيق محمد بن الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990.

[2] ناصر الدين سعيدوني،المهدي بوعبدلي: مرجع سابق، ص195.

[3] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،مرجع سابق، ص285.

[4] ناصر الدين سعيدوني،المهدي بوعبدلي: مرجع سابق، ص191.

[5] محمد بن علي السنوسي: ولد سنة 1202 هـ/1706م بمنطقة الواسطة بمستغانم،و توفي سنة 1286 هـ/1791م، درس بمازونة على يد الشيخ أبي طالب، و حفيده أحمد بن هني ... أصبح له أتباعا يسيرون وفق منهجه، لتتطور بعد وفاته إلى طريقة صوفية نادت بالجهاد في صحاري الجزائر و تشاد و ليبيا... راجع ذلك في : عبد المالك بن عبد القادر بن علي: الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية الحاكمة بليبيا، ج1 و ج2، ط1، مطبعة دار الجزائر العربية، دمشق مسكية 1966.

ووحيدة في الغرب الجزائري. إذ كانت موقعا ساميا للثقافة و العدل طيلة ثلاثة قرون من الزمن. و لعبت دورين أساسيين في المنقطة.

- دور ديني، يتمثل في العبادة وفق النهج السليم على مذهب الإمام مالك.

-دور ثقافي، يتمثل في تعليم اللغة العربية، و تحفيظ القرآن، و إلقاء المحاضرات من طرف العلماء[1] .

لم تكتف مدرسة مازونة في العهد العثماني بالجانب العلمي و الثقافي،و الذي ساهمت من خلاله في بعث الحركة العلمية في المنطقة التي كادت تندثر، بل تعدت ذلك و ساهمت في الدفاع عن الوطن و إعلان الجهاد على الإسبان في المرسى الكبير بوهران، في إطار حملة منظمةقادها شيوخ و طلبة الزوايا و المدارس، فانطلق من مازونة الشيخ أبو طالب و إبنه سيدي هني رفقة عشرين طالبا، فرابطوا أمام وهران وخاضوا معارك ضارية ضد الإسبان[2] . كلفتهم فقدان العديد من الطلبة و المشائخ، و لعل أبرزهم سيدي هني نجل الشيخ أبي طالب الذي استشهد في قلب المعركة و نقلت جثته إلى مسقط رأسه بمازونة، و إرضاءا لشيوخ المدرسة و عرفانا بجميلهم جدد البايات بناء المدرسة أكثر من مرة[3] .

و هناك رأي آخر يرى أن الباي محمد الكبير كانت له حسابات مع رجال الدين و العلم نظرا للإنتقادات التي طالما كانوا يوجهونها له، فاستغل الفرصة سنة 1205 هـ/ ليضع العلماء في فوهة مدفع، حتى يسكتهم، إذ جعلهم في طليعة المحاربين ضد الإسبان فإذا تحقق النصر كسب وكسبوا، أو سكت و سكتوا،و إذا كتبت الهزيمة تخلص من نقدهم، فأمرهم أن يتوقفوا عن التدريس في المدن و ان يدرسوا بدلا من ذلك في

---

[1] Djilali Sari : Les villes précoloniales de l'Algérie occidentale -Nédroma - Mazouna - Kalla,S.N.E.D. Alger 1978- P48.

[2] إبراهيم خريلش: مرجع سابق، ص47.

[3] مولاي بلحميسي: دور مدرسة مازونة في الحركة العلمية و الثقافية من القرن 15 إلى منتصف القرن العشرين في – العصر- ع11 (01 أكتوبر)، الجزائر 1997، ص08.

الرباطات و المراكز الأمامية مثل جبل المائدة المطل على وهران للتضييق على العدو، وكان الهدف من ذلك فرض الجهاد عليهم، لأن عليهم في هذه الحالة أن يدافعوا عن أنفسهم قبل مهاجمة الإسبان في المدينة، و عندما كثر الطلبة أمّر عليهم الشيخ محمد بن الموفق بوجلال و الطاهر بن حواء قاضي معسكر، و الشيخ محمد بن علي الشارف المازوني، و قد تجاوز عدد الطلبة المائتين و أعطاهم الباي السلاح و العدة، و أمرهم بقتال الكفار و المسلمين المنحازين إليهم، لكن هزيمة الطلبة كانت شبه مؤكدة، كونهم غير معتادين على حمل السلاح و لا يعرفون فن الحرب، و كانوا سيقعون في قبضة العدو لولا فرارهم في الوقت المناسب[1] .

و من هنا يستشف الدور الذي لعبه علماء و شيوخ مازونة في مواجهة العدو الإستعماري و شحن الجماهير للدفاع عن وطنهم، كما يتضح أن العلماء كانت لهم مكانتهم و هيبتهم عند البايات و الحكام. فنجاح الباي أو فشله مرهون بمدى خدمته للعلم و مراكزه من مساجد و زوايا و مدارس.

و لعل أهم شخصية ميزت مدرسة مازونة في العهد العثماني هي الشيخ محمد بن علي أبي طالب.الذي بغض النظر عن مكانته العلمية و الدينية، و قيادته لجموع الطلبة في حربهم ضد الإسبان بقطعه الطريق من مازونة إلى وهران مشيا على الأقدام و قد جاوز الثمانين من عمره دون كلل أو ملل[2] . قد حظي بمكانة في نفوس كل من تتلمذوا على يديه أو من عايشوه، و كان أبرزهم الفقيه عبد القادر بن المختار الخطابي المجاهري دفين مصر و المتوفي سنة 1336 هـ الذي أشاد بعلمه و اخلاقه في تأليف سماه " الكوكب الثاقب في أسانيد الشيخ أبي طالب"[3] .

و في القرن السابع عشر اشتهرت عائلة آل سيدي علي الكتروسي الشريف

---

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ، مرجع سابق، ص207.

[2] إبراهيم خريلش: مرجع سابق، ص47.

[3] ناصر الدين سعيدوني: المهدي بوعبدلي: مرجع سابق، ص197.

الحسني، هذا ما جعل باشا الجزائر أحمد أبو العباس يعين الشيخ أحمد الكتروسي مفتيا بمازونة و إماما لجامع سيدي عيسى وعزوز بحي بوماتع مع الأمر للسلطات بحمايته وإعفائه من كل الإلتزامات[1] .

كان معظم شيوخ و أساتذة مدرسة مازونة من أهل البلدة، الشيء الذي ضمن الإستقرار و المواصلة في التلقين، ولازم ذلك سعة الحال عند معظمهم، لما يملكونه من بساتين وأراضي فلاحية...[2]، و بما أن الثقافة كانت في كثير من الأحيان تحت مسؤولية الدولة فإن حراس العقيدة من رجال الشريعة و التوحيد أساتذة و مشايخ يدافعون بأقلامهم و دروسهم عن العقيدة الرسمية في المدارس و في حلقات الدروس العمومية بالجوامع،و قد حصل كما يرى عبد المجيد مزيان في كثير من الفترات انسجام بين رجال الدين و الفكر و رجال السياسة أدى إلى التساند في تثبيت العلم و العقيدة معا[3] .

ب-2. تطور مدرسة مازونة بعد 1830:

تغيرت الأحوال السياسية في الجزائر بدخول الفرنسيين وزوال الحكم العثماني بمقتضى معاهدة الإستسلام بين داي الجزائر و القيادة العسكرية الفرنسية في الخامس من جويلية عام 1830، و رغم التقلبات و المضايقات واصلت المدرسة مهمتها، وتواصل توافد الطلبة من عدة أماكن و حتى من المغرب الأقصى[4] .

إن الوجود الإستعماري الفرنسي على أرض الجزائر عرقل كثيرا التعليم العربي في المساجد و الزوايا و المدارس،لاعتقاده الجازم بدور المؤسسات المذكورة في إيقاض العقول و محاربة التواجد الفرنسي و استئصاله من على ارض الجزائر،و في هذا المضمار يقول المهدي بوعبدلي "... بقيت مدرسة مازونة محط رحال طلبة المغرب الأقصى إلى الحرب العالمية الثانية، حيث حورب التعليم الديني التقليدي في المدن و البوادي، إلا أن مدرسة

---

[1] مولاي بلحميسي: مرجع سابق، ص09.

[2] نفسه، نفس الصفحة.

[3] عبد المجيد مزيان: مرجع سابق، ص11.

[4] مولاي بلحميسي: مرجع سابق،ص198.

مازونة و لو تدهور و ضعف فيها التعليم، فإنها امتازت بالتخصص في دراسة الفقه"[1] .

إن حال مدرسة مازونة لم يكن مختلفا عن نظيراتها في باقي أرض الوطن خلال العهد الإستعماري، إذ عملت فرنسا على تجهيل هذا الشعب الذي رفض الإعتراف بواقعه الجديد فحاربت رجال الدين و علماء و شيوخ المدارس و الزوايا و المساجد،و هذا ما يؤكده المؤرخ الفرنسي بولار – نقلا عن عبد الرحمان الجيلالي– في مناسبتين، فيقول "...لقد كان بالجزائر في القرنين الرابع عشر و الخامس عشر مراكز ثقافية مزدهرة، وكان فيها أساتذة متمكنين من علوم الفلسفة و الفقه و الأدب... و كانت المدارس الكثيرة العدد منتشرة في ربوع البلاد، و التعليم فيها شرعي وديني و مدني"[2] . و هذا يوحي بأن حال التعليم في الجزائر كان متطورا لقرون قبل مجيء المغتصب الفرنسي الذي أخذ الأرض وهتك العرض، ونفس المؤرخ الفرنسي يؤكد ذلك في قوله :"... إن وصول الفرنسيين في الجزائر أحدث بلبلةعميقة في عالم المفكرين و الأدباء،لقد ترك أغلب العلماء كراسي تدريسهم، و تفرق التلامذة، و عوضا عن الدروس العامة التي تؤخذ في الاجتماعات أخذ أولئك يبحثون عن فك معميات العلوم في دروس منعزلة و بمدارس من الدرجة الثانية أو في الزوايا البعيدة وقد وضعت إدارة المساجد و المدارس في يد طماعين يحولون مصارف الأوقاف لجيوبهم ،و منذ ذلك الوقت أهملت كل المدارس تقريبا..."[3] .

و هذه الشهادة تؤكده غطرسة السلطات الإستعمارية في حق رجال العلم والدين في الجزائر بشكل عام ، و كيف أنها حاربت التعليم الديني و العربي لارتباطه الوثيق بنفوس الجزائريين و ذلك حتى تصل إلى مبتغاها و تضمن بقاءها أطول مدة زمنية ممكنة.

لقد كان نصيب مدرسة مازونة و علماتها نفس نصيب غيرها في أرض الجزائر

---

[1] ناصر الدين سعيدوني– المهدي بوعبدلي: مرجع سابق، ص198.

[2] عبد الرحمان الجيلالي: مرجع سابق، ص534.

[3] نفسه، ص535.

المستعمرة، فعانت الكثير من المضايقات و لفترات عدة، كان آخرها تدمير معظم هياكلها في نهاية الحرب العالمية الثانية[1].

لكن الأمر الذي يجب الإعتراف به هو تعامل السلطات الإستعمارية في بداية عهدها في الجزائر مع مدرسة مازونة تعاملا إيجابيا، و لا أحد كان متأكدا من النوايا الحقيقية في ذلك،كان أهمها توسيع المدرسة على ما هي عليه اليوم، على عهد الإمبراطور الفرنسي نابليون الثالث (1852-1870) عام 1852[2] .و لعل المراد من التوسيع كان كسب العلماء و المشايخ و من ثمة كسب ثقة الشعب، لاعتقادهم الجازم بسلطة العلماء و الشيوخ الروحية،و بتبعية الرعية لهم و الإمتثال إلى آرائهم.

و تذكر المراجع أنه بعد استفادة المدرسة من التوسيع حظيت بأحباس كثيرة، مما ساعدها على الإستقرار، وزادها شهرة في كامل الاقليم الغربي الجزائري، حتى أنهم كانوا إذا أرادوا أن يفتخروا بطالب لغزارة علمه عظموه بقولهم:" لقد درس بمازونة"[3] .

و كان العصر الذهبي للمدرسة في الحقبة الإستعمارية عهد الشيخ أبي راس المازوني أحد أحفاد الشيخ أبو طالب الذي توفي عام 1916 [4]، الذي أعاد لها مكانتها التي كادت تفقدها.

رغم المشاكل و زحزحة المدرسة الفرنسية النشيطة استمر التعليم إلى منتصف القرن الماضي على يد الشيخ أحمد بن أبي راس المتوفي سنة 1958، و هي السنة التي انطفأ فيها بريق المدرسة التي ظلت لقرون شمعة تحترق لتضيئ لروادها[5] .

إن مدرسة مازونة ظلت تلعب دورها كراع للعلم و الدين منذ تأسيسها في القرن السادس عشر، فوقفت في وجه كل من حاول طمس الهوية الجزائرية و علّمت النلس

---

[1] ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: مرجع سابق، ص197.

[2] مولاي بلحميسي: مرجع سابق، ص09.

[3]نفسه، الصفحة نفسها.

[4] إبراهيم خرباش: مرجع سابق، ص48، أنظر أيضا مولاي بلحميسي: مرجع سابق، ص09.

[5] نفسه: الصفحة نفسها.

أمور دينهم على مذهب أجدادهم - المذهب المالكي- فكونت علماء فطاحل أمثال الشيخ أبو طالب، و أبو راس الناصري، و محمد بن علي السنوسي.. إلخ قادوا حركة التعليم و الجهاد في بلدانهم و خارجها. وبعد الإحتلال الفرنسي حافظت على طبيعتها و أضافت أهدافا اقتضتها المرحلة، فوقفت في وجه الإستعمار و فرضت عليه مواقفها و مبادئها،و استمرت في وظيفتها رغم العراقيل و الحواجز، و ظلت شامخة حتى أراد لها الله أن تأفل، و هي اليوم تئن من تقاعس أبنائها، و تنتظر الزمن الذي تبعث فيه من جديد في عهد لم تعشه بعد،وهو عهد الجزائر المستقلة.

الفصل الثاني

التعليم والعلماء بمدرسة مازونة في العهد العثماني

I–نظام التعليم في مدرسة مازونة في العهد العثماني

1–طبيعته

2–وسائله

3–مناهجه

II–الحياة الثقافية بمدرسة مازونة في العهد العثماني

1–العلوم المدرسة

2–تعليم المرأة

3–مكانة المدرسة وأهميتها

III–المراكز الثقافية بمدرسة مازونة في العهد العثماني

1–المسجد

2–الكُتّاب

3–المكتبة

IV–أهم شيوخ مدرسة مازونة

التعليم والعلماء بمدرسة مازونة في العهد العثماني.

_لم يكن للسلطة العثمانية في الجزائر سياسة واضحة للتعليم،بل عملت على عدم التدخل في شؤونه، فإذا انتشرأو تقلص فالأمرعندها سيان، فلم يكن للجزائر حينها وزيرا لشؤون التعليم، ولا مديرا أو وكيلا، حيث كان همّ السلطة منحصرا في المحافظة على الإستقرار السياسي، والدفاع عن الحدود، وجمع الضرائب لفائدة خزينة الدولة، والتي بدل أن تستغل في نشر التعليم وترقيته وتنمية الثقافة وتنشيطها، كانت تنفق في أجور الجنود والمعدات الحربية، وتوزيع الهدايا والعطايا على السلطان العثماني وموظفي دولته.

كان التعليم إذن يقوم على جهود الأفراد والمؤسسات الخيرية، ويدخل في هذا العموم رجال الدولة أيضا ولكن كأفراد مثل محمد الكبير وصالح باي، رغم أن المدارس التي أسساها كانت تابعة للمساجد وذلك تلبية للشعور الديني عندهما، وليس خدمة للعلم وكانت محاولتهما تهدف إلى جلب الشهرة والمدح، ولا سيما عند الباي محمد الكبير الذي أحاط نفسه بالأدباء والشعراء و الكتاب المخلصين له، وأرسل بالمال إلى بعض علماء المغرب والمشرق، طلبا للثناء والسمعة، كما فعل مع محمد مرتضى الزبيدي، وعليه يمكن القول أن الدولة ورجالها كانوا غائبين عن خدمة العلم و التعليم إلاّ ما جاء نادرا.

I. نظام التعليم في مدرسة مازونة في العهد العثماني:

لم يكن واقع التعليم في مازونة يختلف عن باقي الحواضر من حيث موقف السلطة المركزية منه، إذ لم يحظ باهتمام البايات طيلة الفترة التي قضتها المدينة عاصمة للبايلك الغربي، أي زهاء قرن ونصف، ولا حتى بعد ذلك .

كان التعليم في مازونة قائما على جهود وشجاعة أساتذة أفنوا زهور أعمارهم في سبيل تقديم الأحسن علميا، لأولئك الوافدين من مختلف أنحاء الوطن وخارجه.

1- طبيعة التعليم في مدرسة مازونة:

بفضل نشاط مدرسة مازونة عرفت المنطقة نهضة فكرية تميزت بالمحافظة، وواقعا ثقافيا

اتصف بالتقليد خلال العهد العثماني ويقوم بالمحافظة على تراث الفنون الإسلامية السابقة و العمل لتأصيله عن طريق أساليب التعليم و التربية المتوارثة، والإعتماد على الحفظ في تلقين مضمون مصنفات متعارفة ومؤلفات متداولة في علوم التفسير والحديث و الفقه والفرائض والأصول وعلم الكلام و التوحيد...[1]

1-1-مجانية التعليم:

كانت المراكز العلمية و الثقافية الجزائرية خلال العهد العثماني مستقلة عن السلطة المركزية وتابعة للأحباس الدينية، فكانت هذه الأخيرة هي التي تتحمل الإنفاق على هذه المؤسسات وسير وظائفها، أمّا الأحباس فهي عبارة عن بنايات، أراضي وبساتين ومحلات حرفية و تجارية إضافة إلى الحمامات و المخابز، وكان يديرها وكلاء، يقوم بتعيينهم الداي والباي، و لم تكن لهم مرتبات محددة، بل كانوا يتقاضون مبالغ رمزية [2]

وما كان يميز مدرسة مازونة عن باقي المدارس الجزائرية الأخرى هو وجود أساتذة ومدرسين من أهل البلدة، الشيئ الذي ضمن الإستقرار و المواصلة في التدريس دون انقطاع، وكانوا مستورين ماديا ويملكون ما يعيشون به من بساتين وحقول، وكان التعليم مجانا، مما شجع على الإقبال والإقامة [3].

إن المساهمة في تمويل التعليم كانت مفتوحة أمام الجميع حكاما و محكومين، وكانت الأوقاف مصدرا لتنشيط التعليم من إبتدائه إلى نهايته، وكان جل المدرسين و الخطباء والأئمة يعيشون من هذه الأوقاف[4].

مجانية التعليم في مدرسة مازونة جعلها مقصد العديد من الطلبة من كل الأرجاء خاصة من المغرب الأقصى، حيث كانوا يقيمون طيلة سنوات الدراسة بالمدرسة، ولا يرجعون إلى أهلهم إلاّ بعد تحصيلهم على الإجازة، وكان الكثير منهم فقراء، فيلقون المبرة

---

[1] -ناصر الدين سعيدوني: مرجع سابق،ص133

[2] -فتيحة الواليش: مرجع سابق،ص174

[3] -مولاي بلحمسي: مرجع سابق،ص09

[4] -أبو القاسم سعد الله : بعض التحولات في مسيرة التعليم ...مرجع سابق، ع5، ص13

والإكرام من سكان المنطقة، حيث يُصلّون بهم التراويح في شهر رمضان، ويعلّمون أبناءهم في العطل الصيفية مقابل زرع قنطار أو اثنين لكل طالب فيستعين بها على شراء الكتب والملابس.[1]

كان القرآن أساسا للتعليم في الجزائر، سواء في مراحله الإبتدائية أو اللاحقة على مختلف مستوياتها تموّل وتغذّى بالأوقاف، والتي يحبسها أهل الصلاح و الخير من الرجال والنساء ،وأحيانا يحبسها موظفون سامون في الدولة كعمل من أعمال الخير و التي تشمل الأملاك الخاصة و العقارات و الأراضي، فيذهب ريعها لتوظيف الأساتذة وتوفير المساكن للطلبة، وعليه فالأوقاف كانت الأساس في تدعيم التعليم و حماية الطلبة والأساتذة، أما التعليم فكان مجانا، بينما يتقاضى الأساتذة مقابل تأدية مهامهم في التدريس و التربية أجرة غير قارة وذلك حسب مداخيل الأوقاف و الصدقات [2]

كا ن التعليم والدين في الجزائر العثمانية صنوين متلازمين، فالدرس والصلاة أوالمدرسة و الجامع، أو المدرس و الإمام كانا شيئا واحدا تقريبا، وبهذا المفهوم كان التعليم أساسا لخدمة الدين، ولحفظ القرآن، ومعرفة العبادات و المعاملات، وحماية الآداب، وتربية الأخلاق الفاضلة و حفظ الصحة، بل حتى معرفة اللغة و قواعدها كان لخدمة الدين و فهم معاني وبلاغة القرآن الكريم، أما شؤون الدنيا من حرب وسلم ومعاش واقتصاد و زراعة و تجارة و علوم فلم تكن مجال اهتمام التعليم [3].

ومما سبق نستنتج أن لمدرسة مازونة من المميزات و الخصائص ما أهلها لأن تكون مركز اشعاع علمي وثقافي يقصده ويحج إليه طلبة العلم من شتى البقاع والأصقاع ولعل ما بوّأها لذلك هو توّفرها على أساتذة و مشائخ ذوي الإختصاص وجلهم من البلدة وبعضهم ممن قدم طالبا للعلم ولما ارتوى منه فضل المكوث للتدريس عرفانا بالفضل ومن

---

[1] –ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي– مرجع سابق،ص198

[2] – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، مرجع سابق، ص

[3] – أبو القاسم سعد الله: بعض التحولات في مسيرة التعليم ...مرجع سابق، ع6،ص13

بين هؤلاء الشيخ أبي راس الناصري و الشيخ محمد بن علي السنوسي.

بالإضافة إلى الأساتذة ومكانتهم العلمية حظيت المدرسة بميزة كانت الأهم حينها وتتمثل في مجانية التعليم، فأصبح التعليم على عكس أيام الزيانيين، أين كان مقتصرا على الحواضر، في حين انتشرت الأمية و الجهل في كامل الأرجاء الأخرى، لكن العهد العثماني شهد نقلة نوعية في هذا المجال، إذ انتشرت المدارس و الزوايا و الأربطة والمساجد في كل مكان [1] منها مدرسة مازونة التي شهدت إقبالا لا نظير له من الطلبة، وكان السكان يتولون مصاريفهم مقابل خدمات يقدمونها وكان أهمها تعليم أبنائهم في العطل وصلاة التراويح أيام رمضان[2]

أما الميزة الثالثة فتتمثل في الأوقاف وما كانت تدرّه من أموال توظف في تمويل التعليم ونشر الثقافة، فكانت مدرسة مازونة وباقي المراكز العلمية و الثقافية الأخرى في المدينة من مساجد ومكتبة تلحق بأحباس وتؤدي دورا هاما في استمرارية الحياة الثقافية وتنشيطها و العناية بمؤسساتها على غرار ماكانت تتمتع به مساجد مركز المدينة بصفة عامة كما أنّه غالبا ما كانت المؤسسات المحيطة بها من مكتبة و حمامات وفنادق ومحلات تجارية،ومخابر ...موقوفة لصالح المسجد و المدرسة [3]

2-1. مراحل التكوين:

لم تعرف مدرسة مازونة كغيرها من المراكز العلمية المنتشرة في أرض الجزائر في العهد العثماني نظاما واضحا أو استراتيجية مدروسة المعالم في منهجية التكوين، فكثير من الطلاب كانوا لا يصلون بدراستهم إلى نهايتها، ذلك أن البرنامج نفسه غير محدد، كما أنه ليس كل الطلاب في الدرس الواحد كانوا في مستوى واحد من العلم، وليس هناك تدرج محكم في التعليم يراعي مستوى الطلبة و قواهم العقلية، فقد يحضر الدرس الطالب

---

[1] – العيد مسعود:مرجع سابق، ص60

[2] – ناصر الدين سعيدوني، المهدي البوعبدلي، مرجع سابق، ص198

[3] – فتيحة الواليش: مرجع سابق،ص174

الصغير بجنب من يكبره سنا والذي قضى فترة في التلقي مع الذي جاء لتوه، على أن هـذا النوع من التعليم في القرنين الأوليـين مـن العهـد العثمـاني لم يكـن ينتـه صاحبـه بشـهادة أونحوها،وأقصى ما يطمح إليه الطالب المجتهـد شـهادة معنويـة مـن قبـل أسـتاذه كمؤهـل علمي [1] .

إن غياب الدقة في المصادر المتوفرة عن مدة التكوين ومراحله في مدرسة مازونـة جعلـت القارئ يعتقد أن الإجازة لم تكـن مرتبطـة بمـدة زمنيـة معينـة، إذ ينـال الطـالب في نهايـة دراسته إجازة تشهد له بأنّه درس جميع العلوم الـتي تدخـل في نطـاق تخصصـه،و الإجـازة ليست شهادة مكتوبة ولكنها تعبير شفوي من المـدرس إلى الطـالب ومتـى حصـل عيهـا يصبح شيخا يستطيع تعليم القرآن و تولي وظيفة سامية[2]

تبقى مدة التكوين في مدرسة مازونة وعدد السـنوات الـتي يمكثهـا الطـالب في المدرسـة نسبية وغير محددة، فهي متوقفة على فطنة ونجابة الطالب وقدرتـه علـى الحفـظ فنجـد أبـا راس الناصري قد مكث ثلاث سنوات بمدرسة مازونة دارسا ومدرسا وتجدر الإشارة هنا أن الطالب لا يمكنه الإلتحاق بالمدرسة قبل حفظ القرآن الكريم واتقان أحكامه.[3]

وفي هذا الصدد يقول أبو راس الناصري "...ولما ذكر لي الطلبة مازونة وكثرة مجالسـها ونجابة طلبتها، سافرت إليها أول صومي ....وقد مررت في طريقي بالشيخ الكـامل أبـي عبد ا لله محمد بن لبنة فوجدته قائما على عمله ... فسألني عن وجهتي... فقلت له ذاهبـا لمازونة، قال : لم ؟ قلت : لقـراءة الفقـه، فقـال : والقـرآن؟ فقلـت لـه : نعرفـه بأحكامـه وأنصاصه وما يتعلق به ...فامتلأ –رضي ا لله عنه– سرورا و عجبا..."[4]

و لم تكن الدراسة بمدرسة مازونة تتعدى مدّتها الســت سنوات كحد أقصى وتتخلـل هذه المدّة مراحل في التكوين، فهذا أبو راس يتحدث عن نفسـه أنّـه مكـث بهـا ثـلاث

---

[1] –أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...مرجع سابق،ص348

[2] –أبو القاسم سعد الله : محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق،ص165

[3] – ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: مرجع سابق، ص 195

[4] –محمد أبو راس الجزائري: مصدر سابق، ص20

سنوات ، حيث في عامه الأوّل قرأ للطلبة الفرائض، وفي عامه الثاني من أول الجزء الثاني إلى المجنون من كتاب النكاح، وفي عامه الثالث صار في المصنف لا يشق له غبار.[1]

و السؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام هو : هل كان طلبة مازونة يدرسون الفرائض طيلة السنة الواحدة ؟ ونفس السؤال عن كتاب النكاح ،والمصنف...

من زاوية أخرى يجيب محمد بن علي السنوسي في قوله: "...ومنهم شيخنا وشيخ مشائخنا أبو راس المعسكري ، كنت أتردد إليه كثيرا، واستفيد منه استفادة عظيمة، وله الملكة في مختصر خليل، حيث يلقيه على طلبته في أربعين يوما كل سنة، يتحين بذلك وقت الخريف فإذا جاء وقته كتب كتبا لأهل قطره فيأتونه لذلك، فيختمه لهم في المدة المذكورة يقتصر في ذلك على تقرير المتن منطوقا و مفهوما..."[2]

إن مدة إقامة أبو راس في مازونة دارسا، كانت تتخللها فترات يقبل فيها على التدريس، فقد تخصص في علوم كثيرة، أهمها(مختصر خليل في الفقه)و(الألفية في اللغة وصحيح مسلمٍ في الحديث ...حيث كان يرتقب نهاية الخريف أو بداية الشتاء من كُل عام قضاه في المدينة فيرسل إلى طلبته فيأتونه فيختم لهم في أربعين يوما مختصر خليل، بمعدل درسين في اليوم ، فيجعل من طلوع الشمس أو قبلها أو بعدها إلى قرب الزوال درسا واحدا وبعد انقضاء صلاة الظهر إلى قبيل المغرب درسا،حتّى ينتهي منه في حدود الأربعين يوما والشيئ نفسه مع الألفية في غضون عشرة أيام .[3]

وإذا كان أبو راس قد استقر ثلاث سنوات في مازونة، وكل عام يفعل ما فعله في عامه الأول من تحين الخريف واستدعاء الطلبة وختم دراسة مختصر خليل و الألفية في ظرف خمسين يوما، ثم يشرع في دراسة علوم أخرى حتى نهاية العام،لتتكرر كل سنة وعلى نفس المنوال، فإن القارئ يعتقد أن مدة التكوين لم تكن لتتعدى السنة الواحدة لكن

---

(1) محمد أبو راس الجزائري: مصدر سابق، ص21

(2) - ناصر الدين سعيدوني، للهدي بوعبدلي: مرجع سابق، ص201

(3) - نفسه ،ص208

المتفحص لسيرة أبي راس في كتاباته يعرف أن مدرسة مازونة كانت بالفعل بمثابة جامعة أو معهد عال، تدرس فيه العلوم وفق مراحل بواسطة مناهج مختلفة، إذ تستقبل كل سنة دفعة جديدة، فتدرس علوم معينة، ثم تنتقل إلى المرحلة الثانية لتفسح المجال للدفعة الجديدة، ومن لم يسعفه الحظ في تحصيل بعض المواد أو التحق متأخرا عن الدفعة، يستدرك ذلك مع الدفعة الموالية، وما يؤكد ذلك هو عدد الأساتذة الذين درس عليهم أبو راس في مازونة خلال ثلاث سنوات، إذ تجاوز عددهم الإثنا عشر بين بوعلوفة[1] ومازونة[2]

إن الدراسة و التكوين بمدرسة مازونة لم يكن صاحبها لينهيها قبل ثلاث سنوات كحد أدنى، فمنهم من يستمر حتى لخمس أو ست سنوات، وذلك حسب درجة الاستعاب و القدرة على الحفظ ، فإذا انتهى صاحبها من التحصيل ظفر باجازة، وهي مباركة الأستاذ لطالبه وإظهار الرضى عليه .لكن سرعان مما تحولت إلى شهادة كتابية يقدمها الأستاذ لطالبه عقب تحصيله لكل العلوم المدروسة، وقد كانت في البداية مقننة لا ينالها أي طالب، ولكن بتوالي الزمن: أصبح منح الاجازات سهلا وشائعا، وكثيرا ما كان يمنح الطالب الاجازة سواء كان يستحقها أو لا يستحقها، بل أصبحت تعطى عن طريق المراسلة دون أن يرى الطالب المدرس أو يأخذ عنه شيئا من العلوم ، وكان للإجازة الفقهية لمدرسة مازونة اعتبارًاكبيرًا، حيث يحظى حاملوها بوظائف في التدريس و القضاء خاصة في شرق بلاد المغرب الأقصى وشماله ،كبلاد الريف ونواحي تازة ووجدة [3]، وفي مستغانم و تنس وندرومة ومعسكر ببلاد الجزائر. لكن بدخول الإستعمار الفرنسي الجزائر منعت السلطات الإستعمارية المتخرّجين من مدرسة مازونة من نيل وظائف الدولة التي خصصتها للمدارس الرسمية التي أحدثتها لتوظيف خرجيها بدلا من خريجي المعاهد

---

[1] –بوعلوفة:هي قرية تابعة لبلدية مازونة.

[2] –محمد أبو راس الجزائري: مصدر سابق،ص ص،43-44

[3] – أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي .... مرجع سابق، ص348

التقليدية كالزوايا و المعاهد ومن بينها مدرسة مازونة، ثم إن المتخرج منها يحفظ متن خليل على ظهر قلب، ويمتاز عن المتخرجين من القرويين بإصدار الفتاوي و الأحكام بمجالس الأسواق، فيهرع المتخاصمون إليه بدلا من زميله الذي لا يصدر الأحكام والنوازل (الفتاوي)[1]

2- وسائل التعليم :

عرفت حركة التعليم في مدرسة مازونة رقيا كبيرا طيلة العهد العثماني وإلى فترة متقدمة من الإحتلال الفرنسي، ولم يتأتى لها ذلك إلاّ بعد تظافر الجهود و تكوين أساتذة أخذوا على عاتقهم مسؤولية التعليم، وضمنوا من خلاله استمرارية الإشعاع العلمي والثقافي للمدرسة، مما أكسبها شهرة، فقصدها الطلبة من كل مكان .

1-2- الأستاذ :

يعتبر المعلّم عمدة التعليم، ويعد بمثابة القلب النابض في الجسد، إن صلح نهض وارتقى المجتمع،وإن فسد أفل وتاه.فهو المثل الأعلى للتلميذ من خلال كل أطوار عمره،ونجده ينشر العلم بين الناس بلسانه وانتاجه وسلوكه، وهو كذلك موجّه التعليم إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ورغم أن مهنته كانت من أشرف المهن وأقربها إلى الدين و الجهاد في سبيل الله،فإنّهاكانت أيضا من أكثر المهن فقرا لصاحبها وجلبا للتعاسة و البؤس .[2]

إن المدرس أو الأستاذ في المدارس كان يعين من طرف الباي باقتراح من الناظر ويتلقى المدرس أجرته من الأوقاف، وكان يسكن مجانا، وغالبا ما يجمع إلى وظيفة التدريس وظائف أخرى كالقضاء أو الإفتاء، وساد الإعتقاد أيامها أن المدرس يقضي وقته بتحضير الدروس،و لذلك يأتيه الناس بالضروريات كالماء و الزيت للمصباح، كما كانوا يأتونه بحلويات رمضان، وملابس العيد وشتى أنواع الأطعمة [3]

---

[1] – أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي...مرجع سابق،ص 198

[2] –نفسه، ص322

[3] – أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص163

إن أستاذ مدرسة مازونة، وعلى غرار مدارس الحواضر الأخرى كان متخصصا في علمه، فكان أحدهم له اليد الطولى في الجزء الأول من مختصر خليل، وآخر في الثاني وثالث في الميراث...[1]

كان لسقوط وهران في يد الإسبان في مطلع القرن السادس عشر أثره الكبير على الحياة العلمية و الثقافية في مازونة ، إذ شهدت تدفق سيل من نخبة علماء البلاد[2] ، أسسوا بها عدة معاهد ومدارس، وعملوا على بعث الحياة العلمية و الفكرية في المنطقة كلها.

إن العلاقة التي كانت تربط الأستاذ بالطلاب علاقة مثيلة بعلاقة الأب مع أبنائه، إذ كان الأستاذ يحرص كل الحرص على مستقبل طلابه، فيقضي كثيرا من وقته في إفادتهم ويستزيدهم نصحا وتوجيها في تكوينهم، ويأخذ بأيديهم حتى يتشبّعوا ببحور المعرفة حتى أنهم كانوا يخصصون الساعات الطوال في الإستماع إلى أسئلتهم دون ملل أو كلل.

هذه الإعتبارات وغيرها كان الأساتذة وعلماء مدرسة مازونة يحظون بالمنزلة الطيبة ولعل ذلك ما يفسر نفوذهم على الطبقة الشعبية، فكان كل فرد من الرعية يجد الشرف في أن يستقبل أحدهم وينزل عليه ضيفا في بيته، حتى معلّم القرية ومؤدّب التلاميذ كان لهما شأن في حياة الناس، ولا يقل منزلة عن شأن العالم في محيط المدرسة أو المدينة إن لم يزد عليه[3]

ولعل المكانة التي كان يحظى بها أساتذة مازونة انعكست على صرامة كبيرة أبداها أولئك العلماء وتفانيهم في مهمتهم،ما جعل من مازونة مركز إشعاع حضاري لطيلة أزيد من ثلاثة قرون.[4]

أما العلاقات بين العلماء أنفسهم وبأعضاء هيئات التدريس، فقد كانت تقوم في الغالب على أساس الود و الإحترام المتبادل، واعتراف كل منهم للأخر بكفاءته العلمية

---

(1) –مولاي بلحميسي: مرجع سابق،ص9

(2) –ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: مرجع سابق، ص195

(3) – العيد مسعود : مرجع سابق،ص68

(4) djilali sari: op cit, p 48.

ولا يعني ذلك أن جميع العلماء كانوا على درجة واحدة من النزاهة والمثالية، أو أنهم برأوامن كل النواقص والعيوب، حيث أنه لا يخلو الأمر من حدوث خلافات ونزاعات بين بعض العلماء إما بسبب الحسد لشهرة أو بسبب التنافس على منصب، أو غيره[1] ويلتمس ذلك الخلاف جليا في سيرة أبي راس وحديثه عن الشيخ أبي طالب في قوله : "...وقد حضرت حلقة الشيخ محمد أبي طالب من نسل الشيخ عبد العزيز البلداوي... فأعرضت عنه مع ما يدّعيه من إشارات غيب...وحكيت لي عنه فلتات وهنات،ومثالب لمثله آفات .."[2]

إن شهرة مدرسة مازونة ارتبطت بشهرة أساتذتها وضلوعهم في تخصصاتهم كالفقه و اللغة والتفسير والحديث...،كما لعبت الفصاحة اللغوية والتبحر في قواعد اللغة والعلوم دورا هاما في جلب الطلبة، حتى أصبحت حلقات بعضهم متزاحمةمن كثرة الإقبال عليها.[3]

كما لم تكن وظيفة الأستاذ تعطى لكل مؤهل في مدرسة مازونة، بل هي ثمرة عمل وجهد لسنوات طويلة ينفقها الطالب منقطعا عن غير العلم من أمور الدنيا، ثم يخضع لإمتحانات عسيرة يراعى فيها إلى جانب المستوى العلمي جوانب أخرى،كحسن المعاملة مع غيره،ومدى كسب وُدِّهم،وقوة الشخصية،ودرجة الذكاء، فإذا نجح فيها جميعا يصبح أستاذا ويحظى بحقوقه كاملة، وذلك بعد تعيينه من طرف الباي وموافقة الناظرعلى ذلك [4]

وقد اشتهر المدرسون بالتنافس فيما بينهم فنتجم عن ذلك انتعاشا للحركة التعليمية التي انفتح من خلالها للطلبة مجالا للإختيار و الحكم على أساتذتهم، فأصبحت العلاقة بين الطلبة وبعض الأساتذة مباشرة وغير منقطعة إلى درجة كسر كل الحواجز والطابوهات

---

(1) –العيد مسعود :مرجع سابق، ص69

(2) –محمد أبو راس الجزائري : مصدر سابق، ص46،47

(3) –ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي:مرجع سابق، ص196

(4) – أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث،مرجع سابق،ص163

بينهم ،فكانوا حتى إذا خرج أحدهم إلى ضيعته يرافقونه إليها ذهابا وإيابا وهو على ظهر دابته يدرّس لهم دون ملل أو كلل[1]

2-2- الطالب:

التعليم في المدرسة الجزائرية في العهد العثماني كان مجانا، ومنها مدرسة مازونة مما جعل وفود الطلبة تقصدها خلال كامل أيام السنة طيلة العهد العثماني، وإلى زمن متأخر من الفترة الإستعمارية، كما جاء في قول مولاي بلحميسي:"...ورغم المشاكل وزحزحة المدرسة الفرنسية النشطة استمر التعليم إلى منتصف هذا القرن على يد الشيخ أحمد ولد أبي راس المتوفي 1958 ثمّ انطفأت بعده شمعة المدرسة الفقهية ."[2]

لقد كانت مدرسة مازونة على درجة كبيرة من الأهمية، فمن حيث الحجم كانت قاعة مدرستها تسع مابين ستين (60) إلى(80) طالبا،ويعتبر هذا العدد مقياس المراحل الزاهرة أيام العثمانيين في ظل وجود أساتذة وعلماء فطاحل[3] .أما في العهد الإستعماري فتذكر المراجع تضاعف عدد الطلبة في المدرسة والقادمين من مختلف جهات البلاد وكذلك من المغرب الأقصى ليصل حسب بعض المراجع إلى سبعمائة طالب (700) يتلقون المساعدات و الكفالة التامة من طرف المواطنين.[4]

كان الطالب في مدرسة مازونة المستفيد الأول خلال مرحلة دراسته، فإلى جانب قيمة العلوم التي كان يتلقاها،و الشهادة التي يصحبها بعد إتمامه لتعليمه،والتي تؤهله لأي مركز سامي يتقاضى بموجبه أجرة محترمة، كان يحصل في تعليمه على السكن والماء والزيت و الحلوى والأكل مجّانا[5]،كما كان يتقاضى بعض النقود في مناسبات دينية

---

[1] -أبو القاسم سعد الله :تاريخ الجزائر الثقافي... مرجع سابق،ص326

[2] -مولاي بلحميسي: مرجع سابق، ص09

[3] -فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص164

[4] djilali sari: op cit, p 48.

[5] -أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث...مرجع سابق،ص163

يدّخرها في سفرياته أو اقتنائه لحاجياته كالملبس و الكتب.

أما عن العلاقة التي كانت تربط الطالب بأستاذه، فكان يحيطه بهالة من الإجلال والإكبار تقديرالعمله واعترافا بما له عليه من دين، بما بذله من أجله وزملاءه من جهود جليلة، وإن المتصفح لكتب التراجم ومذكرات العلماء، وما كتبوه عن مشايخهم يلمس مدى الحب الذي كانت تنبض به قلوب الطلاب نحو أساتذتهم، وما جادت به أقلامهم من مديح خصّوهم به، ونستشهدفي هذا الصدد بما ذكره محمد بن علي السنوسي في معرض حديثه عن أساتذته في مدرسة مازونة :"... ومنهم شيخنا وشيخ مشايخنا الهمام،الحافظ الإمام سيدي محمد أبو راس المعسكري البلد، الناصري الحتد-رحمه ا لله- كنت أتردد إليه كثيرا، وأستفيد منه استفادة عظيمة لتمام حفظه، واتقانه لكل فن، حافظا لمذاهب الأئمة الأربعة ..."[1]

كما نجد محمد بن علي السنوسي يشيد في فهرسته المشهورة "الشموس الشارقة فيما لنا من أسانيد المغاربة و المشارقة " بأساتذته وشيوخه المازونيين الذين قرأ عليهم الفقه والحديث، ذكر من بينهم الشيخ محمد بن علي أبو طالب وحفيده السيد أحمد بن هني والشيخ أبو عبد ا لله محمد بن المهدي بن علي الحسني..."[2]

كان الطلبة بمازونة لا يتنقلون لقراءة الفقه واللغة ...إلا بعد استكمال حفظ القرآن الكريم واتقان أحكامه، وهذا نص ماكتبه أبو راس في هذا الشأن :"...ولما ذكر لي طلبة مازونة وكثرة مجالسها، ونجابة طلابها سافرت إليها أول صومي، سافرت إلى مازونة مدينة مغراوة...وقد مررت بطريقي بالشيخ محمد بن لبنة، فسألني عن وجهتي فقلت له: ذاهب لمازونة قال: لم ؟ قلت : لقراءة الفقه ، فقال : والقرآن ؟ فقلت له نعرفه بأحكامه وأنصاصه وما يتعلق به، فامتلأ سرورا وعجبا: فدعى

---

[1] -العيد مسعود :مرجع سابق، ص68

[2] -ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: مرجع سابق، ص196،197

لي بنية صادقة ..." [1]

ومن خلال هذا يتضح جليا أن الطلبة الغرباء عن المدينة كانوا يتقلون إليها بعد حفظ القرآن، فيمكثون بالمدرسة ويلازمون الدروس إما متخصصين في علم واحد أو مشاركين في عدة علوم، ويكونون مع الطلبة المداومين من أهل المدينة، وحلقات الدروس مفتوحة لكل من يريد كسب المعارف والعلوم[2]

3-مناهج التعليم :

لم يكن للتعليم في المدارس الجزائرية في العهد العثماني بشكل عام مناهج واضحة المعالم، فقد استقلت كل مدرسة بمنهجها الخاص بل كل أستاذ أصبح له منهج يختلف عن غيره.

فالأستاذ حر في وضع البرنامج الدراسي، وفي تحديد أوقات التدريس، فبعضهم كان يعد دروسه في الصيف ويلقيها في الشتاء،وبعضهم كان يلقي دروسه ثلاث مرات في اليوم الواحد، وبعضهم يلقيها في الصباح فقط أو بعد الظهر،أو مرتين في النهار ،وقد لا ينقطع بعض المدرسين عن التدريس طول النهار،و مهما كان الأمر،فإن معظم الدروس كانت تتم خلال مختلف مراحل النهار من أوله إلى مابعد العصر، وهكذا ترتبط العلاقة بين الطالب والمدرس،ذلك أن الأستاذ هو الذي ينصح تلميذه بكيفية القراءة،وبالكتب التي عليه أن يدرسها،وبطريقة تحضير الدرس،وبالمتون التي عليه حفظها ونحو ذلك مما له علاقة ببرامج التدريس.[3]

ولعل الفرق بين مُدرّس وآخر في نظر الطالب هو في مدى إلمامه بمادته وحفظه لها ولفروعها،وفصاحة لسانه وقوة شخصيته وإخلاصه في مهنته،وفي ضوء هذا كله كان الطالب يقرر الإستمرار مع المدرس أو الإنتقال عنه إلى مدرس آخر وكثيرمن الطلاب

---

[1] -أبو راس الجزائري: مصدر سابق،ص20

[2] -عبد المجيد مزيان: مرجع سابق،ص15

[3] -أبوالقاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي ...مرجع سابق،ص344.

كانوا يغيرون وجهتهم بعد وفاة مدرسهم أو هجرته، فقد كانت الرابطة قويّة بين الطالب و الأستاذ لدرجة أن تغير أحيانا مجرى حياة الطالب وتؤثر على مستقبله[1]، ومهما قيل عن نوعية الدروس ومكانة الأساتذة فإنّ التعليم الجزائري في العهد العثماني كان يغلب عليه طابع العصور الوسطى وقلة التجديد والحفظ، وكانت الدراسة في شكلها تساعد على تكوين الموظفين في المجال الديني والكتابة، ولكنها لا تساعد على تكوين المنتجين في ميدان الفكر والأدب[2]

وكثير من الطلبة من غير أبناء المدينة تختلط عليهم الأمور في بداية عهدهم بالمدرسة، ذلك أن الطالب يدخل لمكان الدرس فيجد المدرس أو المدرسين وحولهم الطلاب في حلق، وكل مدرس يتناول مسألة أو كتابا معينا، فإذا كان الطالب قد كوّن فكرة واضحة عن مدرس بعينه قبل مجيئه،فإنّه يقصده مباشرة ويجلس إلى حلقته ويتابع دراسته معه في المادة التي يدرّسها أو المواد[3]، أما إذا جاء الطالب وهو لايدري من سيُدرسه فإنه يجلس إلى المدرسين عدة مرات حتى يستقر رأيه على واحد منهم أو أكثر[4]

كما أتاحت كثرة الأساتذة وتخصصهم في مدرسة مازونة جوا ملائما ووسطا لائقا للأستاذ والمتلقي، فكانت لغة التدريس مبسطة وفي متناول الجميع، حببت التعليم ورغبت فيه، وكانت المحاضرات والمناقشات تفهم وتهضم بسهولة، وغالبا ما كانت تعقد لذلك حلقات في صحن المسجد أو براحه،ليسع المكان الجميع.[5]

كان المشايخ يسمحون بالأسئلة وبالمناظرة وطرح القضايا، وكانوا مستعدين للرد على رغبات طلبتهم وتزويدهم بالجواب المقنع، فمزجوا في تدريسهم الجد بالهزل للترويح

---

[1] –أبوالقاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي ...مرجع سابق،ص344.

[2] –أبو القاسم سعد الله : محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص ص165–166

[3] –بعض الأساتذة كان يدرّس أكثر من مادة واحدة ولكنه قد يشتهر بواحدة .انظر، المهدي بوعبدلي-اهتمام علماء الجزائر بعلم الحديث قديما وحديثا–في كتاب الأصالة –محاضرات ومناقشات ملتقى الفكر الإسلامي السادس عشر،ج4،تلمسان من 27جويلية إلى03أوت 1982،ص349

[4] –أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...مرجع سابق،ص343.

[5] –ناصر الدين سعيدوني ،المهدي بوعبدلي :مرجع سابق،ص203

على النفس، وتخفيف الجو، واستعملوا النكتة التي تسحر الألباب.[1]

إن مكان الدرس لم يعرف الثبات و الإستقرار، ذلك أن جل المدرسين لا يتقيدون بمكانة ولا حالة، فقد ثبت أن بعضهم كان يدرّس وهو ماش إلى حقله أو صاعد إلى الصومعة للأذان، كما أن الطالب الجاد لا يفارق شيخه حتى عندما يمتطي ظهر دابته، فهو يسير عن يمينه أو شماله متلقيا عنه ما يفوه به من مسائل وآراء.[2]

كانت ميزة الدروس، الشرح و الإملاء ولكل مدرّس مُسمع يقرأ له النص، أو جزءا من الكتاب المدروس، ثم يأخذ المدرس في شرح المسألة وتوضيحها والإستشهاد بها من محفوظه ومعقوله، ونادرا ما ينهي المسألة في نفس الجلسة، حيث أن ميزة المدرس الناجح هي الخوض في الجزئية الواحدة عدة مرات، ومن عدة وجوه، وكلما أطال في المسألة وأفاض فيها كلما كان ذلك من ميزات نجاحه، وهو يختم درسه في العادة بإملاء خلاصات على الطلاب ، فينسخونها بحذق وعناية،كما أن الطلاب يسجلون الدرس كله، إذا كان المدرس واسع العلم غير متقيد بالمنقول والمسموع من المسائل، فإنهم في هذه الحالة يصبحون حريصين على ألا تفوتهم شاردة ولا واردة من درس شيخهم وبذلك يسهمون بدورهم في حركة التأليف.[3]

لقد كان لأبي راس الناصري الفضل في إبراز طرائق التعليم في مدرسة مازونة ومدى اكتظاظ و تزاحم حلقات بعض العلماء، في قوله: " ثم أنني انتقلت من قراءة شيوخ أبي علوفة إلى القراءة على شيوخ مازونة، فجلست في حلقة العالم الكبير ، الفقيه الشيخ ابن علي بن الشيخ أبي عبد الله المغيلي ذي القراءة الصحيحة المؤسسة، و الطلبة على بابه مقبلة ومعرسة، كأنه عبد الحميد أبو الفتح محمد بن دقيق العيد، فكنت من جملة تلامذته، ومعدودا من طلبته، فقعدت في طرف الحلقة، للزحام الكاض، و الضيق الفاحش

---

[1] -مولاي بلحميسي:مرجع سابق،ص09

[2] -أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...مرجع سابق،ص345

[3] -نفسه، الصفحة نفسها

الماض، فكانت في الأعيان كحلقة أحمد بن تيمية...فاستفدت طرفا نافعا...[1]

ولا شك أن الملل كان يرافق جميع الدروس باستثناء تلك التي كان يلقيها مدرسون جمعوا إلى جانب التبحر في المعرفة قوّة الشخصية و السيطرة على اهتمام الطلبة بإدراك المسائل عقليا بعد تعلّمها بالنقل، ورغم ذلك فقد غلب النقل على العقل عند جل العلماء ذلك أن إدراك العلوم بطريقة عقلية كان يصل بهم إلى الإجتهاد أو استعمال النظر أو ما يسمى اليوم بحرية الفكر، لأن ادعاء بعض المدرسين الإجتهاد كان يودي بهم إلى عواقب وخيمة كالإتهام بالزندقة و الإلحاد و الكفر ونحو ذلك .[2]

II- الحياة الثقافية بمدرسة مازونة في العهد العثماني:

عُرف العهد العثماني في الجزائر بالركود الثقافي، شأنه في بقية البلاد العربية، فلم تكن هناك حرية تجديد فكرية ولا انتفاضات علمية ذاتية، أو متأثرة بالبلاد الأروبية،ورغم أن العربية ظلت لغة التعليم و الأمة، فإن الدولة قد اتخذت من العثمانية لغة رسمية.[3]

كان انتاج اللغة العربية يكاد ينحصر في الموضوعات الدينية و التعليمية وقليل من الشعر، ولم تكن لتخرج من إطار المسجد و الزاوية والمدرسة، ومهما كان من أمر فإن هذا البحث يحاول كشف بعض جوانب الثقافة في العهد العثماني من خلال مدرسة مازونة.

1- العلوم المدرّسة:

اشتهرت مدرسة مازونة بتخصصها في الفقه على مذهب الإمام مالك منذ نشأتها في مستهل القرن السادس عشر. حتى ارتبط ذلك بها، بعدما أصبحت تُعرف بالمدرسة الفقهية[4]

---

[1] - محمد أبو راس الجزائري: مصدر سابق ،ص44

[2] -أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...مرجع سابق،ص347

[3] -أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق،ص159

[4] -ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي:مرجع سابق، ص191

يكتشف المتمحص لتاريخ مدرسة مازونة أنها عرفت تدريس عدة علوم نقلية وعقلية، وذلك بشهادات ذكرها علماء وشيوخ درسوا ودرّسوا بها لفترات مختلفة، كما أن رفوف المكتبة تكشف اليوم للقارئ مدى تخصص طلبة مدرسة مازونة في شتى العلوم ساهمت كلها في بعث الروح العلمية و الثقافية في كامل إقليم البايلك لحقبة طويلة من الزمن.

1-1- العلوم النقلية:

يعتبر الفقه الركيزة الأساسية في المدرسة[1] ، فكان الطالب إذا سئل عن سبب وجهته لمدرسة مازونة فيرد بأنه يقصد دراسة الفقه، الذي كان فيه طلبتها متفوقون وأساتذة لهم باع فيه[2]،خاصة على مختصر الشيخ خليل ابن اسحاق الفقيه المالكي المتوفي في القاهرة 1374، الذي كان المرجع المعتمد في دراسة الفقه في المدرسة، وفي هذا المضمار ذكر محمد بن علي السنوسي في فهرسته " الشموس الشارقة فيما لنا من أسانيد المغاربة والمشارقة" قائمة مشائخه المازونيين قرأ عليهم الفقه وعلم الحديث من بينهم الشيخ محمد بن علي أبو طالب و غيره[3]

أما في علم الحديث ومصطلحه، فقد تخصصت مدرسة مازونة فيه وبعدة كتب منها، الموطأ للإمام مالك،وصحيحي البخاري ومسلم، هذا الأخير الذي كان قد أوقف الباي محمد الكبير نسخة منه، وغيره من الكتب على المدرسة سنة 1212هـ[4]

وفي تفسير القرآن الكريم، فقد نهل طلبة مدرسة مازونة من هذا العلم، وعلى عدة تفاسير، منها تفسير الثعالبي، وتفسير السيوطي...[5]

---

(1) -إبراهيم حرباش: مرجع سابق، ص49

(2) - نفسه، الصفحة نفسها.

(3) - ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي:مرجع سابق، ص196

(4) -أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي...مرجع سابق،ص299

(5) -ناصر الدين سعيدوني، للهدي بوعبدلي:مرجع سابق، ص196

2-1- العلوم العقلية:

لم تقتصر مدرسة مازونة بتدريس العلوم النقلية فحسب بل تعدت ذلك إلى بعض العلوم العقلية مثل اللغة والأدب و التشريع وعلم الكلام...

لقيت العلوم اللغوية اهتماما كبيرا في المدرسة، خاصة وأنها كانت تزخر بأساتذة لهم صيت ذائع في النحو على كتاب ألفية بن مالك بشرح المكودي [1] وغيره، وهو ما ذهبت إليه بعض المراجع أن مدرسي مدرسة مازونة، كانوا ضليعين في اللغة إلى حدّ حفظ الألفية بشرحها عن ظهر قلب[2]

ويعتبر علم التشريع من أهم العلوم العقلية التي كانت تدرّس في المدرسة، ككتاب النكاح، وكتاب الميراث، فيقول مولاي بلحميسي في هذا المعنى:"...ومن العلوم التي كانت تدرس ولقيت إقبالا واسعا وشهرة خاصة هي العلوم المتصلة بالقانون الإسلامي..[3] وجاء ذلك عند أبي راس الناصري في سيرته حين قال:"...وحضرت مجلس الشيخ محمد ابن عبد القادر القاضي، فقرأت عليه نفائس كانت في لبي من باب القضاء و الشهادات وأحكام الدماء.[4]

كما اشتهرت المدرسة بعلوم أخرى كعلم الكلام الذي كان متنفس الطلبة من العلوم النقلية المعقدة، ومن أهم الكتب في هذا العلم نجد العقائد النفيسة و الإبراهيمية للسنوسي وقد جاء في قول أحدهم :"...ويجدر التنويه هنا إلى أن الحركة السنوسية قد انطلقت من هذه المدرسة، وهي تعد من أقدم المدارس التي أسست في العهد العثماني، واشتهرت بوجه خاص بعلم الفقه و الحديث وعلم الكلام.[5]

ويعدّ علم التوحيد من أبرز العلوم التي كانت تدرس في مدرسة مازونة، كما جاء

---

[1] -ألفية ابن مالك بشرح المكودي، مؤلف مجهول،(مخطوط غير محقق)

[2] -ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي:مرجع سابق، ص196

[3]moulay, belhamissi op.cit.p.p37,50

[4] محمد أبو راس الجزائري : مصدر سابق،ص46

[5] -فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص46

على لسان الشيخ محمد بن علي السنوسي في فهرسته " البدور السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة" في قوله "...وقرأت على الشيخ أبي العباس أحمد بن هني النصف الثاني من المختصر... وسمعت عليه مجالس من البخاري ومثلها من مسلم و الموطأ، وأخذت عليه علم التوحيد ، وناولني شرحه الكبير عن صغري الشيخ السنوسي..."[1]

وكان لشيوخ مدرسة مازونة ملكة في الأدبيات فتلقى على شكل أرجوزة شعرية ، وهي عبارة عن مقاطع تتناول آداب الأكل، و الجلوس، والحديث، والنوم ...الخ، ويقول في هذا الأمر الشيخ لأبي راس :"...ومنهم شيخنا محمد الصادق بن افغول وله في الأداب باع وكرم وطباع..."[2]

وقد انتشرت بعض الكتب الدينية المشبعة بالأفكار و الأوراد، وقد شاعت شيوعا خاصا خلال العهد العثماني وبداية العهد الإستعماري مثل كتاب تنبيه الأنام في بيان علو مقام نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، لمؤلفه عبد الجليل بن أحمد بن عظوم القيرواني[3]

أما عن العلوم الكونية الأخرى كالطب و الرياضيات و الفلك و الجغرافيا ... فلا يكاد الباحث يجد لهم أثرا في مدرسة مازونة، ولاحتى في المصادر التي تحدثت عن المدرسة .

2- تعليم المرأة:

ما يؤاخذ على الفترة العثمانية في الجزائر هو إهمالها للمرأة المحلية وإنزالها منزلة لاتليق بسمعتها التاريخية، و بالمقابل إعلاء شأن الجواري و الأسيرات المسيحيات، وقد بالغ الحكام في ذلك حتى اعتبروا الزواج من المرأة المسلمة مذلة وحطة من شأنهم، وجعلوا أبناءهم منها في درجة العبيد،بينما أبناءهم من الجواري و السبايا والمسيحيات أحرارا ويحكمون ويرثون وظائف آبائهم[4]

---

(1) -ناصر الدين سعيدوني، للهدي بوعبدلي:مرجع سابق، ص197

(2) -محمد أبو راس الجزائري : مصدر سابق،ص45

(3) - عبد الجليل القيرواني: تنبيه الأنام في بيان علو مقام نبينا محمد عليه الصلاة و السلام، مخطوط غير محقق.

(4) -أبو القاسم سعدالله: تاريخ الجزائر الثقافي..... مرجع سابق، ص336

تكاد تنعدم الوثائق بشأن واقع المرأة التعليمـي والثقـافي في الجزائر العثمانيـة، ومـن خلال بعض المصادر يتضح للقارئ أن بعض الأدباء علموا بناتهم القراءة و الكتابة وبعض من القرآ ن الكريم، و قواعد الدين و مبادئ اللغة، كقول ابن مريم :"....وفي سنة إحدى عشـرة و ألـف بمدينـة تلمسـان وضعنـاه ... ومنهـا شرح علـى علـى مختصـر الصغـرى، اختصرها سيدي سليمان ابن أبي سماحة للنساء و العوام..."[1]

وأخبر الشيخ محمد بن علي السنوسي عن عمته السيدة فاطمة أنها هي التي كفلته بعد موت أبيه وهو في السنة الثالثة من عمره، وكانت عمته تعلمه زيادة على حفظ سور القرآن مبادئ العلوم اللغوية و التوحيد و الفقه، بحيث أنه لما التحق بالمعاهد لم يستفد منها أزيد ماسبق له استفادته من عمته [2]

وورد ذلك عند أبي راس الناصري وهو يصف أمـه:"....كـانت مـن أحـل نسـاء البدوية، وكان يضرب بها المثل في السخاء و الصلاح، كرابعة العدويـة، نشـأت في بيـت علم و صلاح..."[3]

شمل تعليم المرأة حتـى بعـض الرسميين في جهـاز الدولـة، ذلـك أنـه ورد في بعـض الوثائق ما يشير إلى حلب وزير البحرية لمعلم العربية إلى داره ليعلم بنتيه، فكـانت واحـدة منهما قد حفظت ثلث القرآن وتعلمت القراءة و الكتابة وعمرها لايزيد عن أربع عشـرة سنة[4]

ظلت مازونة عاصمة للبايلك الغربي زهاء قرن ونصف، وكـانت تعتبر مـن أهـم الحواضر في الجزائر العثمانية، وقد اشتهرت فيها أسر علمية ورثت العلم وتوارثته فيما بعد كأسرة هني ، وأسرتي بلحميسي والكتروسي ...، وقد حظيت المـرأة في هـذه العـائلات بنصيب من العلم ، إذ كـانت تتلقى تعليمهـا في السنوات الأولى مـن حياتهـا في كتّـاب

---

[1] -ابن مريم:مصدر سابق، ص314

[2] -ناصر الدين سعيدوني، المهدي بو عبدلي: مرجع سابق، ص204

[3] - محمد أبو راس الجزائري: مصدر سابق:ص18

[4] -أبو القاسم سعدالله: تاريخ الجزائر الثقافي..... مرجع سابق، ص338

المدرسة لحفظ القرآن الكريم ومبادئ القراءة، ثم تَقرّ في بيت والديها فتنهل على يديهما العلوم و المعارف و الصنائع، لتنتقل بعدها إلى بيت زوجها فيستزيد علمها وتساهم في تربية و تعليم أبنائها وفق المنهج الذي نهلت منه وبذلك تتحول من فتاة طالبة للعلم إلى أم مربية ومعلمة تغرس في أبنائها ما حفظته من علوم و أداب و أخلاق، وهي خصال المرأة المازونية التي اشتهرت بالتبحر في العلوم الدينية و اللغوية ونظم الشعر[1] .

3- مكانة مدرسة مازونة وأهميتها:

كان لتأسيس المدرسة الفقهية بمازونة وقعه الإيجابي على الحياة الثقافية و العلمية على مستوى البايلك الغربي، والجزء الشرقي من المغرب الأقصى، إذ شهدت الحاضرة إقبالا طلابيا منقطع النظير من مختلف البقاع والأصقاع.

استمر تدفق الطلبة على المدرسة طيلة الفترة العثمانية، ومعظم الحقبة الإستعمارية رغم العراقيل التي كانت تفرضها الإدارة الفرنسية في الجزائر، وحرمان خريجي المدارس التقليدية من الوظائف الرسمية في الدولة.

1-3-العهد العثماني:

يعد التعليم بمدينة مازونة في العهد العثماني على درجة كبيرة من الأهمية، حيث شهرة مدرستها تجاوزت الحدود الإقليمية، كما استفادت من المناخ الثقافي الذي ساد المنطقة وقتها خاصة في تلمسان و القرويين بالمغرب الأقصى، و الزيتونة بتونس[2] .

لقد عرفت مدرسة مازونة ترميمات لمرات عديدة، اعترافا بدورها الثقافي والسياسي حيث ساهم المشائخ و الطلبة في حملات الجهاد ضد الإسبان بوهران عدة مرّات، وكانوا ممن تشرف بطردهم آخر مرة، وفي هذا يقول أحمد بن سحنون الراشدي "... ثم بعث الأمير الكبير إلى والي الأمة الشهير و شمس علمائها شيخنا السيد محمد علي بن الشارف المازوني ...وكان مطاعا عند الطلبة مهابا بينهم، ما أمر به إلاّ

---

[1] moulay belhamissi: op cit .p.37

[2] -فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص 164

امتثلوه...فقدم عليه هو و ولده السيد هني رحمه الله وأخوه السيد محمد في نحو الملتقي طالب فدفع لهم العدة وآلاتها وألحقهم بإخوانهم، وأكثرهم لا علم له بالحرب، ولا بكيفية أخذ السلاح، شأن المشتغلين بالقراءة ..."[1]

حتى وإن فقدت مازونة بعض بريقها بتحويل مقر البايلك منها إلى معسكر في مطلع القرن الثامن عشر، إلا أن مدرسة العلوم القانونية احتفظت بنشاطها، واكتسبت شهرتها من عدد العلماء الذين درّسوا بها، وكثير منهم جاءها من ندرومة ووجدة وفقيق والونشريس و المدية [2] ،أما الطلبة فقد تضاعفت أعدادهم ، إذ ذهبت بعض المراجع إلى حد استقبالها لزهاء سبعمائة طالب وكلهم يتلقون المساعدات و الكفالة التامة من طرف المواطنين [3] ، في حين تذهب بعض المراجع وهي الأقرب إلى المنطق أن مدرسة مازونة كانت ذات أهمية كبيرة، ومن حيث الحجم كانت قاعتها تسع مابين ستين (60) إلى ثمانين (80) طالبا، ويعتبر هذا العدد مقياس للمراحل الزاهرة.[4]

كان لبعض بايات البايلك الفضل الكبير في استمرار المدرسة و تطورها طيلة العهد العثماني و يعتبر الباي محمد الكبير من أهم هولاء، وهذا قول أحمد بن سحنون الراشدي فيه :"...من أعظم مآثره أنه رتب المدرسين في الجوامع بوظائف يأخذونها من الأحباس بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزون (الإدارة) بشيء إلاّ من كان متو ليا لخطة أو مستعملا في خدمة، فاتسعت بذلك حال العلماء و إنشرحت الصدور للقراءة (التعلم) و شهرت لها النفوس و كثر طلب العلم و تشوق كل واحد للتدريس، و اشتد الحرص على العلم من بعد أن كان يترك إشتغالا بالتجارة لقلة جدواه ...واشتهر بحبه للعلم و إحسانه إلى العلماء ..."[5]

---

[1] -مولاي بلحميسي: مرجع سابق ،ص09

[2] moulay belhamissi: op cit .p.49

[3] djilali sari: op cit , p 48

[4] -فتيحة الواليش: مرجع سابق، ص 164

[5] -مولاي بلحميسي : مرجع سابق، ص 09.

أنجبت مدرسة مازونة طيلة القرون الثلاثة من التواجد العثماني علماء فطاحل ، بلغ صيتهم عنان السماء ، و استطاعو أن يساهمو في صناعة تاريخ المنطقة، كما كان الشأن بالنسبة لأبي راس الناصري،الذي كان عالما و أعترف له بذلك أقرانه في المغرب والمشرق ، حتى و أن التاريخ لم يحفظ كل إنتاجاته التي كانت متنوعة ، إلا أن ما بقي كافي لإظهار مكانة صاحبها العلمية و الأدبية ، و بعده تلميذه محمد بن علي السنوسي الذي شرب من نبع المدرسة الفقهية على علماء و فقهاء كرسوا حياتهم في خدمة العلم و إعتبرفيما بعد الأب الروحي و المؤسس للطريقة السنوسية التي نادت بالجهاد في الصحاري الجزائرية و تشاد و ليبيا،و حاربت التبشير المسيحي الذي كان منطلقه الجزائر و أعد له عدته الكاردينال لافيجري بعد مجاعة 1867 ، التي راح ضحيتها حوالي ثلاثمائة ألف شخص ، ووقف لافجري موقفه المشهور، وعجزعن إرجاعه إلى الصواب نابوليون نفسه، وكان يريد فرض التنصير بالقوة، إلا أنه قبل وفاته وهو على فراش الموت بالجزائر إعترف أن السنوسي قضى على محاولاته، إذ كان هذا الأخيريتعرض لقوافل بيع الرقيق ببرقة، فيشتري منهم الصغار ويرسلهم لمعاهده فيتعلمون ثم يعتقهم، مشترطا عليهم نشر الدعوة الإسلامية عند ذويهم،وعليه فإن العهد العثماني كان مرحلة مميزة في تاريخ مدرسة مازونة، إذ استطاعت أن تخرج من إطار المحلية إلى إطار الإقليمية المغاربية، وأن تساهم في صناعة رجال كان لهم الدور الفعال في تغيير مجريات الأحداث في مجالات شتى...، والتي ستستمر في إشعاعها معظم الحقبة الإستعمارية.

2-3-مكانة المدرسة وأهميتها في العهد الإستعماري.

تغيرت الأحوال السياسية في الجزائر بدخول المستعمر الفرنسي وزوال الحكم العثماني، فأثر ذلك على الحياة العلمية والثقافية في البلاد، وكان حظ مازونة من الدمار والخراب على يد المعتدي الفرنسي باهظا، فشوه معالمها، وقضى على عدة رموز لحضارات تعاقبت عليها، كما أخضع مازونة للتقسيم العسكري، وخرب جل زواياها

ومناراتها العلمية ومساجدها، مما أدى إلى تشويه كلي للروح والطابع العمراني لهذه المدينة التي كانت قبلة العلم و الثقافة يقصدها العلماء والطلبة من المشرق والمغرب لطلب العلم والفقه الإسلامي في مساجدها، وزواياها، ومدارسها التي كانت متواجدة بكل حي منها مسجد سيدي عيسى وعزوز، المدرسة، مسجد الغريب عودة ، بوعلوفة...[1]

اهتدت السلطات الإستعمارية بعد عناء تفكير إلى قطع الطريق أمام خريجي المدرسة بحرمانهم من الوظائف الرسمية واستبدالهم بخريجي المدارس الفرنسية، وذلك لإحداث هوة بين الشعب الجزائري ومقوماته الحضارية كاللغة و الدين، وبالتالي تسهل السيطرة.لكن رغم ذلك واصلت المدرسة رسالتها، وأزداد توافد الطلبة عليها من شتى الأمصار [2] وأضاف المشائخ و العلماء لواء المقاومة إلى لواء العلم و الدعوة .

تذكر بعض المراجع أن المدرسة خضعت للتوسيع وإعادة بناء لغرف الطلبة سنة 1852 على عهد الإمبراطور الفرنسي نابوليون الثالث (1852م-1870م)[3] ، وقد يكون ذلك بدافع الإستمالة وكسب شيوخ المدرسة، خاصة بعدما اكتشفت السلطات الإستعمارية نفاذ كلمتهم في شعبهم .

أما العصر الذهبي للمدرسة في الحقبة الإستعمارية فكان في عهد أبي راس بن أبي طالب المتوفي في 1917، حتى أن مستشرقا فرنسيا زار مازونة في ربيع 1882 ونزل ضيفا على القاضي أحمد الحميسي قد شاهد نوعا من الفتور بالمدرسة بسبب فقر المكتبة وقلة المدرسين، لكن رغم ذلك وأسباب أخرى .كزحزحة المدرسة الفرنسية النشطة فقد استمر التعليم إلى منتصف القرن الماضي على يد الشيخ أحمد ولد أبي راس المتوفي سنة 1958 لتنطفئ بعمده شمعة المدرسة الفقهية [4]

وقد تخرج منها خلال العهد الإستعماري علماء أجلاء أمثا ل المهدي البوعبدلي،

---

[1] -م بوغرارة:مرجع سابق،ص19

[2] -ناصر الدين سعيدوني، المهدي بو عبدلي: مرجع سابق، ص197،198

[3] – مولاي بلحميسي:مرجع سابق، ص09

[4] -نفسه ، الصفحة نفسها.

وعدة غلام ومحمد الميسوم وأحمد بن تكوك ، والشيخ أحمد هني وأحفاده، كما تخرج منها أيضا علماء من فاس ومكناس والزيتونة وحتى أزهريين بعد ذلك [1]

III-المراكز الثقافية بمدرسة مازونة في العهد العثماني :

استطاعت مدرسة مازونة ولفترة وجيزة بعد إنشائها لفت الأنظار إليها، خاصة من قبل البايات وكبار المسوولين الذين سارعوا إلى ترميمها وتوسيعها لفترات مختلفة خاصة في عهد الباي عثمان، والباي محمد الكبير، وتزويد مكتبتها بأمهات الكتب وتمويلها بأوقاف .

وكانت المدرسة باعتبارها مؤسسة علمية وثقافية تشتمل على مراكز ساهمت في إثراء الحياة العلمية والثقافية ، وكان لكل مركز دوره ووظيفته و قائمين عليه، ومن أهم هذه المراكز هناك المسجد والكتاب والمكتبة.

1-المسجد:

يعتبر المسجد الموسسة الوحيدة التي عرفها المسلمون خلال قرونهم الأولى، واستوعبت نشاطهم المتعدد الأوجه، فهو بيت الله الذي تقام فيه الصلاة، ويتلى ويحفظ فيه القرآن الكريم، وهو دار القضاء الذي يجلس فيه القضاة للحكم بين الناس، وهو مقر الحكومة الذي يخرج منه المبعوثون، ويستقبل فيه السفراء، وتنطلق منه الجيوش للغزو، كما هو دار العلم الذي يلتقي بين جوانبه المعلمون والمتعلمون ليتدارسوا أصول دينهم وأركانه[2]

لقد استمر المسجد في وظيفته، رغم ظهور طرائق جديدة للتعليم وانفراد مراكز لأداء المهمة كالزوايا و المدارس.... والتي في أغلب الفترات هي أجزاء من الهياكل العامة للمسجد .

---

[1] -م، بوغرارة : مرجع سابق،ص19

[2] -سعيد عبد الفتاح عاشور: العلم بين المسجد والمدرسة ،في، عبد العظيم رمضان :تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،مصر1992، ص16، 17

اهتم العثمانيون في الجزائر ببناء المساجد، وتحبيس الأوقاف عليها، وتأمين الموارد لصيانتها و الإنفاق على التعليم.[1] ومن أهم هؤلاء الذين اهتموا بالعلم ومراكزه الباي محمد الكبير الذي أنشأ مسجدا سماه على نفسه، ويبدو أنه كان يخطط ليكون قاعدة كبيرة لنشر التعليم في المنطقة ينافس به القرويين بفاس.[2]

عرفت مازونة بتعدد مساجدها وجوامعها منذ القرون الأولى للإسلام، فلم يكد يخل منهم حي من أحيائها، منهم مسجد الغريب، مسجد سيدي عبد الحق، مسجد المدرسة.[3] ومسجد سيدي عيسى وعزوز يحي بوماتع الذي عين فيه باشا الجزائر في القرن السابع عشر أحمد أبو العباس عبد الله الشيخ أحمد بن خدّة الكتروسي إماما عليه ومفتيا بمازونة،مع الأمر للسلطات بحمايته وإعفائه من كل الإلتزامات.[4]

ظل الجامع الكبير أو مسجد المدرسة يلعب دوره العلمي والثقافي في المدينة طيلة العهد العثماني ومعظم الفترة الإستعمارية، وتذكر بعض المراجع أن التعليم في مدرسة مازونة كانت تعقد له حلقات في صحن المسجد أو براحه، كما أن مراكز التعليم في معظم مراحله كانت بالمساجد[5] .حتى أن بعض الأساتذة و الشيوخ في المدرسة لم يكونوا يتقيدوا بمكان لأداء وظيفتهم، فتارة يكون الدرس في البواري و الحقول،وتارة في الطريق والدروب، وأخرى على ظهر الراحلة ... إلا أنه لرحابة المسجد وصحنه كثيرا ما كانت تعقد حلقات العلم فيه وذلك حفظا للنظام العام بالمدرسة.

استطاع مسجد المدرسة أن يستوعب الكم الهائل من الطلبة على مر القرون الأربعة التي عاشتها المدرسة، ففيه كان الأساتذة يلتقون بطلبتهم على فترات منتظمة، إذ لكل أستاذ حصته في التدريس تختلف عن توقيت الأستاذ الآخر، وذلك فسحا لحضور

---

[1] -العيد مسعود :مرجع سابق، ص64

[2] – أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي... مرجع سابق،ص

[3] –م،بوغرارة : مرجع سابق، ص19

[4] – مولاي بلحميسي: مرجع سابق ، ص ص 8،9

[5] – ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: مرجع سابق ،ص203

الجميع، وقلما كانت تتزامن الحلقتان في الإلقاء، اتقاءا لإنصراف الجميع للأستاذ الأكثر علما والأنجع منهاجا، وفي هذا يقول أبو راس الناصري:...،ومنهم صاحبنا الشيخ السيد السنوسي بن السنوسي...، قرأعلي الفقه ولجلالته وعلو منصبه أفردته عن الطلبة في القراءة لكثرتهم جدا حتى يضيق عنهم الجامع ورحابه..."[1]

2-الكتّاب:

كان التعليم القرآني الركيزة الأساسية للحياة العلمية في المجتمع الجزائري منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب ، وقد شهد تراجعا في آخر حكم الزيانيين، بإنحصاره في الحواضر إلاّ أنه سرعان ما استرجع مكانته على عهد العثمانيين،فانتشر في معظم أحياء المدن وفي القرى والأرياف،حتى كاد يقضي على الأمية ويستأصلها من جذورها ، إذ غالبا ماكانت تخصص له بيوت تابعة لمرافق المسجد، فيطلق عليها عدة أسماء كالكتاب والمسيد والمعمرةوالشريعة[2]

و الكتاب في الجزائر بدوي وحضري، فأما البدوي فيسمى الشريعة أي محل تعليم الشريعة وهو عبارة عن خيمة وسط الحي البدوي تخصص للتعليم، وأما الحضري فيسمى مسيد أو مكتب[3] ،وكان المشرف على هذا التعليم إمام المسجد، ويتولى مباشرته نخبة من حفظة القرآن تراعى فيهم عدة مقاييس منها الإستقامة وحسن السيرة والسمعة الطيبة، حيث كان المؤدب يجلس عادة في صدر الكتّاب متربعا على حصير أو تراه مسندا ظهره إلى الجدار، مرتديا عمامة وجبة وفوقها أحيانا برنس، وبيده عصا طويلة تصل إلى أبعد تلميذ عند الحاجة، وعندما يحين وقت الإملاء يملي المؤدب بصوت عال على من يسأله من التلاميذ، وهم متحلّقون حوله في نصف دائرة، وبيد كل منهم لوحة بيضاء وملساء من تمرير الطين عليها ، وقد كتب عليها درسان، فإذا حفظ التلميذ الدرس الأول

---

[1] -محمد أبو راس الجزائري : مصدر سابق، ص73

[2] -ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: مرجع سابق ،ص203

[3] -العيد مسعود، مرجع سابق ،ص62

واستظهره على شيخه أجاز له محوه وكتابة درس جديد [1]

يلتحق الأطفال بالكتاب حين يبلغون سن السادسة في الحالة العامة، حيث يتعلمون القراءة و الكتابة ويحفظون كتاب الله، يضاف إلى ذلك أحيانا تعلم بعض مبادئ الحساب، وكان عدد من يتفوق من الصبيان في كل كتاب مابين الخمسة عشر والعشرين صبيا [2] ، فيتم تأهيلهم للدراسة على شيوخ المدرسة.

يستمر التلميذ حوالي أربع سنوات يتعلم خلالها مبادئ القراءة و الكتابة، وأركان الإسلام و شعائر الدين، وإذا كان الفقراء يكتفون بهذا القدر من التعلم، فإن ميسوري الحال يواصلون تعلمهم، وبذلك يدخلون المدارس الفقهية والزوايا و المساجد.[3] ،أما الأغلبية فتنصرف لتعلم إحدى الحرف المهنية، وقليل منهم من يحتفظ بما سبق أن تعلمه في الكتاب[4]

تشير بعض المراجع أن عملية الحفظ كانت صعبة على الطفل،والواقع أن الصعوبة لا ترجع إلى كون اللغة أجنبية، ولكن إلى طريقة التعليم نفسها، ذلك أن كثيرا من الألفاظ التي يحفظها الطفل في المرحلة الأولى من التعليم لم تكن متداولة في البيت وفي الشارع.[5] ولعل ذلك ماكان عاملا في عزوف الكثير من التلاميذ عن مواصلة الدراسة.

كان يلحق بالمدرسة في العهد العثماني جامع وكتّاب و دار كتب[6] ،وإمام المسجد هو المشرف على تعليم التلاميذ في الكتاب، لكنه قلما كان يتولى الأمر بنفسه ،بل كثيرا ما كان يكلف به بعض من طلبته المقربين إليه.

لعب كتاب المدرسة دورا هاما في القضاء على الأمية في مازونة،والأمر كذلك

---

[1] -أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي... مرجع سابق،ص339

[2] -العيد مسعود، مرجع سابق ،ص62

[3] -أبو القاسم سعد الله:محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق،ص163

[4] -العيد مسعود : مرجع سابق،ص62

[5] -أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي... مرجع سابق،ص163

[6] - العيد مسعود : مرجع سابق، ص65

بالنسبة للكتاتيب المنتشرة في المدينة، كما ساهم في إخراج المنطقة من عزلتها الفكرية والثقافية التي عانتها طيلة قرون سابقة للعثمانيين.

يعتبر طلبة المغرب الأقصى القادمين لمازونة لدراسة الفقه في مدرستها من أهم الذين باشروا تعليم تلاميذ المدينة في كتاب المدرسة خاصة في الفترة الإستعمارية فيتحينون زمن عطلتهم الصيفية فيعلمونهم القواعد الأساسية للغة العربية وتحفيظهم بعض سور القرآن الكريم، مقابل زرع قنطار أو اثنين لكل طالب من قبل أولياء التلاميذ، فيستعين بها على شراء الكتب والملابس [1]

كانت طريقة التعليم في الكتاتيب روتينية إلى حد بعيد، فيذهب التلاميذ إليها مرتين في اليوم صباحا ومساءا، أما الجلسة الصباحية فهي المهمة لأن خلالها يتم استظهار الدرس والمحو وإعادة الكتابة، أما المسائية فيتم خلالها تكرار الدرس الماضي استعدادا لصبيحة الغد، وهكذا الأمر طيلة خمسة أيام من كل أسبوع، أما العطلة فكانت يومي الإثنين والجمعة[2]

لجأ الكثير من المربين في حل الكتاتيب إلى إعتماد العقوبة كوسيلة من وسائل التربية و التأديب وهي على درجتين، أخفها تأديب التلميذ بالكلام و الزجر في حالة ارتكابه لأخطاء بسيطة،وأقساها تسليط الفلاقة على القدمين حين يرتكب التلميذ خطأ كبيرا كالسرقة وغيرها [3]

ظلت المدارس القرآنية أو الكتاتيب تلعب دورها الحضاري طيلة العهد العثماني، والتي لقيت اهتماما بالغا من قبل بعض البايات في الشرق كصالح باي وأحمد باي وفي الغرب كالباي عثمان و الباي محمد كبير، حتى وأنها لم تنل الرعاية والإهتمام من غالبية البايات الآخرين إلاّ أنهم لم يقفوا ضد انتشار التعليم سواء في المدن أو الأرياف.

---

[1] -ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: مرجع سابق ،ص198

[2] - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي... مرجع سابق،ص340

[3] -الفلاقة: أقصى درجات العقاب وتتمثل في وضع قدمي الطفل بين حبلين ممسوكين، والضغط عليهما بالحبلين حتى لا تنفلتان، ثم توقيع الضرب عليهما عشرا أو عشرين مرة أو أكثر، و أحيانا حتى تدمى القدمين.

حافظت المدارس القرآنية على كيان اللغة العربية وصرحها الشامخ منذ دخول المستعمر الفرنسي وطيلة تواجده بالجزائر، ولولا تلك المدارس لذهب ريح اللغة العربية في الجزائر، وهوت في قعر سحيق، ولخرّجت المدارس أجسادا جزائرية بعقول فرنسية، ورحم الله الشيخ مبارك الميلي حين قال : ...ومن أعرض عن اللغة العربية فقد أعرض عن ذكر ربه..."[1]

وعليه فإن الكتاتيب القرآنية ومنها كتاب مدرسة مازونة، استطاعت أن تلعب دورين هامين طيلة الفترتين العثمانية والإستعمارية الفرنسية، ففي العهد العثماني مكنت المجتمع الجزائري من قهر الأمية والجهل ونشر العلم والثقافة في كامل أرجاء الوطن، ويشهد على ذلك الرحالة الألماني فيلهلم شيمبرا، أثناء زيارته الجزائر في ديسمبر 1831 فيقول :" لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة و الكتابة غير أني لم أعثر عليه، في حين أني وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا، فقلما يصادف المرء هنالك من يستطيع القراءة من بين أفراد المجتمع..."[2]

أما في العهد الإستعماري، فقد تغيرت الأهداف و النتائج بالنسبة للكتاتيب وباقي الموسسات العلمية و الثقافية، إذ أصبحت تناضل من أجل الذود على اللغة العربية والمقومات الحضارية للشعب الجزائري، والوقوف في وجه الهجمات الشرسة للمستعمر ومحاولاته اللامتناهية في استئصال عنصر الحياة في هذا الشعب، بإقامة مدارس فرنسية وإعطاء الحق المطلق لخريجيها في الوظائف على حساب خريجي الكتاتيب والمدارس والزوايا الدينية،كالمدرسة التي أقامتها السلطات في العشرية الثالثة من القرن العشرين بالقرب من المدرسة الفقهية بمازونة،والتي استطاعت من خلالها أن تحدث فجوة بين أبناء المدينة،وبروز ثقافتين في الجيل نفسه والتي مازالت تتجرع مرارته إلى حد الساعة، ورغم

---

[1] -سلمان نصر: المدرسة القرآنية وأثرها في تقوية النظام التربوي- في جريدة الفجر-17جوان 2001،ص 19

[2] -أبو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان ، ط1 ، الجزائر 1975، ص13

ذلك لم تكتف ، بل راحت تهدم معظم المدرسة في بداية الحرب العالمية الثانية 1939[1] وأرادت من خلال ذلك شل حركة التعليم فيها لكن "...يريدون ليطفئوا نور ا لله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون..."[2] وتستمر في أداء رسالتها الحضارية حتى وفاة آخر شيوخها أحمدأبي راس سنة 1958[3] ،فانطفأ بريقها كمؤسسة علمية وأوصدت أبواب هياكلها باستثناء الكتاب الذي مازال إلى اليوم يستقبل الأطفال ذكورا وإناثا وقد خصص لذلك قاعتي التدريس اللتان كانت لطلبة الفقه والعلوم في زمن مضى وانقضى وهي اليوم تستغيث، فهل من مجيب؟

3- المكتبة:

تعد المكتبة أو" خزانة الكتب"أداة هامة من الأدوات التعليمية التي ساعدت الطالب في التحصيل على مر العصور و الأزمنة التاريخية للدولة الإسلامية، حيث تواجدت في أغلب المدارس و الزوايا خزائن الكتب و المخطوطات لتكون عونا للطالب على فهم الكم العلمي الذي يتلقاه،خاصة وأن إقتناء الكتب كانت تكلف مبالغ باهضة، حالت دون امتلاكهامن قبل الأغلبية، وهو ماجعل المكتبة تحضى بمكانتها العلمية في المنظومة المعمارية للمدرسة . كما أنها تعتبر موسسة علمية و ثقافية مكملة لدرس الأستاذ فتيسر للطالب نهل العلوم من مصادره، و الإحتكاك بالعلماء و الشيوخ القائمين عليها[4] لفك الإلتباسات و عموم الفائدة .

عرفت الجزائر خلال العهد العثماني نهضة علمية و أدبية جسدها الإنتشار الواسع للكتب و المكتبات، وقد شهد على وفرتها عدة مؤرخين ورحالة فرنسين كانت لهم زيارات متتالية اكتشفوا من خلالها الواقع العلمي و الحضاري للشعب الجزائري الذي

---

(1) -ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي: مرجع سابق ،ص191

(2) -الآية رقم (8) ،سورة الصف

(3) -مولاي بلحميسي: مرجع سابق،ص09

(4) - محمد عطا زبيدة :- مكتبات المدارس"خزانة الكتب في العصرين الأيوبي و المملوكي" في- أبحاث ندوة: تاريخ المدارس في مصر الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1992، ص221.

شهد خلالها نقلة نوعية في ميدان العلم و الثقافة و الأدب و الفن، أما عن مصادر الكتب فإنها كانت تنتج محليا عن طريق التأليف و النسخ وبعضها تجلب من الخارج و لاسيما من مصر وإسطمبول و الحجاز [1].

تشهد عبارات الباحثين الفرنسين الذين شاهدوا وجمعوا المخطوطات من مكتبات المدن الجزائرية غداة الإحتلال، أنهم كانوا مندهشين لكثرتها و تنوعها، و جمالها و مدى العناية بها، فقد اعترف بذلك البارون ديسلان ، و كذلك أدريان بير بروجر الذي رافق الحملة الفرنسية على قسنطينة و تلمسان و معسكر و جمع منهم مخطوطات و مؤلفات نادرة [2]

أزدهرت المدارس و باقي المؤسسات العلمية و الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، و قطعت شوطا كبيرا في ميدان العلم و الثقافة و الأدب ، و لعل من عوامل الرقي هو إمتلاكها لمكتبات غنية بمخطوطاتها المتشعبة التخصص . و منها مكتبة مدرسة مازونة التي إشتهرت طيلة العهد العثماني بكثرة مخطوطاتها و تخصصهافي عدة علوم[3] .

أما عن مصدر الكتب التي زخرت بها مكتبة المدرسة فإنها كانت على ثلاث طرائق رئيسية،أو لها الشراء ولاسيما كتب الأندلس ومصر،وثانيها عن طريق النسخ،إذ غالبا ماكان في كل مكتبة ناسخ أو إثنين وتشترط فيه أن يكون عالما بالنسخ والتجليد والترميم وثالثها عن طريق الهبات حيث اعتاد عدد من العلماء والأدباء بل والبايات إهداء المكتبات بمجموعات من الكتب، كما كان الأمر عند الباي محمد بن عثمان الكبير الذي أوقف على مدرسة مازونة بمجموعة من الكتب، ونسخة من صحيح مسلم سنة 1202هـ.[4]

المطلع على مكتبة المدرسة يجد خزانتها مقسّمة إلى رفوف مقطّعة بحواجز، على كل حاجز باب مقفل. وكل رفّ يحوي بمجموعة كتب، وقد ألصقت عليه لافتة تشير إلى

---

[1] -أبو القاسم سعد الله :تاريخ الجزائر الثقافي ... مرجع سابق، ص285

[2] نفسه ، ص 286

[3] فتيحة الوليش :مرجع سابق ،ص218.

[4] -محمد عطا زبيدة: مرجع سابق ،ص218

تخصص المخطوطات فتجد مثلا الرف الأعلى قد خصص للمصاحف المخطوطة والرف الثاني والثالث للكتب الفقهية والرابع في الحديث...

وتجدر الاشارة إلى أن مدرسة مازونة كانت تزخر بمخطوطات متخصصة يقطع الطلبة مئات الأميال من أجل الانتفاع بها، لكن بسقوط الجزائر في يد الفرنسيين بدأ نجم المدرسة يخفت تدريجيا، كما يشير أحد المستشرقين الفرنسيين حينما نزل ضيفا عند القاضي أحمد الحميسي سنة 1882 فشاهد نوعا من الفتور بالمدرسة بسبب فقر المكتبة وقلة المدرسين.[1]

عاشت مدرسة مازونة مرحلة تحد كبير طيلة الفترة الإستعمارية مما انعكس على الحياة العلمية، حيث فرضت السلطات الإستعمارية رقابة دائمة على نشاط العلماء، وعرقلت توافد الطلبة من المناطق الأخرى، ومن جهة ثانية عملت على استمالة الشيوخ والقائمين على المدرسة وكسب موقفهم، أو على الأقل ضمان حيادهم في إطار الثورات الشعبية التي قادها شيوخ الزوايا في مختلف مناطق الوطن، كل ذلك ولد مرحلة ركود فكري صاحبها إهمال لجميع المراكز العلمية في المدرسة وعلى رأسها المكتبة التي اختفت منها مئات الكتب والمخطوطات على مدى عقود من الزمن.[2]

ما يؤسف له اليوم، قلة المعلومات حول نشاط مكتبة المدرسة في سيرورتها التاريخية من النشأة إلى الأفول، وما يتحصل عليه الباحث لا يوفي المدرسة حقها العلمي والحضاري، باعتبارها قطبا أنار للأمة سبيلها لقرون من الزمن، وكثير من مخطوطاتها تعرضت للإتلاف باستثناء بعض الكتب في التشريع الإسلامي، وبعض الأعمال لأبي راس

---

[1] –محمد عطا زبيدة: مرجع سابق ،ص218

[2] –قيل الكثير حول سر اختفاء المخطوطات في مكتبة المدرسة، حيث تتحدث الروايات عن وجودها عند بعض العائلات الفاعلة في المدرسة كعائلة هني ،وعائلة الكتروسي وبالحميسي، وحبسها ، كما تتحدث الروايات أيضا عن تصرف بعض الشخصيات القائمة على المدرسة في الإرث الحضاري للأمة كإهدائهم لشخص رئيس الجمهورية أحد المخطوطات المطرزة بالذهب خلال فترة الثمانينات من القرن العشرين.

الناصري [1]

إن المتصفح للمخطوطات المتبقية في المدرسة لا يستطيع أن يحصي أكثر من سبعين مخطوطا، ومعظمها في الفقه والحديث والمعاملات والآداب، وقد فعل الزمن فعلته بصفحاتها الأولى، إلى درجة التمزق بمجرد لمسها، لكن الغائب الأكبر أمام هذا الوضع هي العناية بما فلت من أنياب الدهر، وإخراجها من محبسها الذي لازمته لقرون،وإعادة ترميمها وفقا للمقاييس العلمية أو إعادة نسخها، كي يتسنى للباحثين الإطلاع عليها وتحقيق ما يمكن تحقيقه منها[2]

IV -أساتذة مدرسة مازونة:

إن غياب الإحصاءات الدقيقة و الدراسات المتخصصة عن المدرسة بمراكزها وعلمائها هو ما يؤخذ على مورخي الفترتين العثمانية و الإستعمارية، فترك ذلك مجالا لاندثار وزوال أسماء شخصيات حملت مشعل العلم في المدرسة، وبذلت النفس والنفيس في سبيل إعلاء راية العلم و الدين في سماء الإستعمار والطغيان .

إستطاعت الحلقة المفقودة من تاريخ الأمة أن تفرز عمالقة، حملوا على عاتقهم حماية المقوّمات الحضارية للشعب الجزائري من الموجة التغريبية التنصيرية التي أعلنها الكاردينال لافيجري وأسلافه.

ومن بين من أهملهم المؤرخون و لم تعد تذكرهم الألسن، الشيخ سيدي أحمد وسي محمد ابن عبد الرحمان، و الشيخ خليل [3] ، الذين عايشو الحربين العالميتين،وشهدوا تدمير معظم هياكل المدرسة على يد القوات الإستعمارية خلال الحرب العالمية الثانية فحملوا على عاتقهم إعادة بناء ما هدم، و الوقوف في وجه الآلة العسكرية الإستعمارية والمواصلة في تكوين الإطارات العلمية وتفريقها على المدن و القرى .

---

(1)-djilali sari.op cit. p48

(2) -أنظر ملحق المخطوطات

(3) -أ .تومي إحياء الشيخ البوعبدلي في ملتقى بوهران.في جريدة الرأي ، عدد 1258، 12جوان 2002 ص4

أشاد الكثير من العلماء بمدرسة مازونة و دورها العلمي في المنطقة حيث خصها وشيخها أبا طالب العلامة عبد القادر المختار الخطابي المجاهري دفين مصر، المتوفي سنة 1336هـ بتأليف سماه "الكوكب الثاقب في إسناد الشيخ أبي طالب "[1] حيث عُدّ من خريجي المدرسة، والتي أنظم فيها قصيدة شعرية[2]

حفلت مازونة بالعلماء منذ الفترة التي سبقت العثمانيين، ولا سيما منهم حملة الشريعة من أهل الفقه وعلوم الدين...كالشيخ موسى بن عيسى بن يحي المازوني[3]، وابنه يحيى بن موسى المغيلي المازوني[4] .

تذكر بعض المراجع أن مدرسة مازونة عرفت انتعاشا كبيرا طيلة العهد العثماني، وحظيت بأساتذة لهم باع طويل في العلم، لكن ما يؤسف له غياب التشخيص لأولئك الشيوخ حتى عهد الشيخ محمد بن علي أبي طالب حفيد الشيخ ابن الشارف الأندلسي ومن جاء بعده.

أحصى أبو راس الناصري أساتذته في مدرسة مازونة بعدما أشاد بعلمهم وفضلهم عليه، حيث قال"...ثم أني انتقلت من قراءة شيوخ أبي علوفة، إلى القراءة على شيوخ

---

[1] ناصر الدين سعدوني ،المهدي بوعبدلي :مرجع سابق ،ص 197

[2] مما جاء فيها

إذا رمت فقه الأصبحي فعج على ... ديار بها حلت سعود الكواكب

وحط رحال السير وانو إقامة ... بمازونة الغراء ذات المناصب

تجد سادة للفضل والعلم مهدوا ... طريقها بها أضحى التعمي بجانب

ولج بحظيم الجاه واحفظ جنابه ... وقف بضريح الشيخ وقفة راغب

ولازم ذاك الركن واعرف مقامه ... وقل ياشريف الأصل يا أبا طالب

فلا غرو أن ضاهت مازونة مصرنا ... وإن تفتخر لها فالتفخر واجب

ينظر: ناصر الدين سعيدوني،المهدي بو عبد لي: مرجع سابق، ص197

[3] هو موسى بن عيسى بن يحيى المازوني أبو عمران ، فقيه من القضاة، نشأ في مازونة وبها تعلم، عاش خلال القرن 9هـ-15م،له من المؤلفات"ديباجة الإفتخار في مناقب أولياء الله الأخيار"...انظر عادل نويهض:معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر،ط3،موسسة نويهض الثقافية،بيروت لبنان 1983،ص281.

[4] هو يحي بن موسى بن عيسى بن يحيى أبو زكرياء المغيلي المازوني،فقيه وقاض من أعيان المالكية، نشأ في مازونة وولي قضاءها، ومات بتلمسان 883هـ-1478م، له من التآليف:"الدرر المكنونة في نوازل مازونة" وهو كتاب حافل بفتاوي المتأخرين من علماء الجزائر وتونس والمغرب...انظر عبد القادر بن عيسى المستغانمي: مستغانم وأحوازها عبر العصور -تاريخيا وثقافيا وفنيا-ط1،المطبعة العلوية،مستغانم 1996، ص37.

مازونة فجلست في حلقة شيخنا،الشيخ ابن علي بن الشيخ أبي عبد الله المغيلي... ومنهم شيخنا السيد العربي ابن نافلة...وإبنه السيد أحمد من شيوخي أيضا... ومنهم شيخنا محمد الصادق بن افغول...ومنهم ابنه شيخنا السيد محمد...ومنهم شيخنا أحمد بن نافلة المشهور، أخو شيخنا العربي المذكور...ومنهم شيخنا السيد اسماعيل...وحضرت بمجلس السيد محمد بن عبد القادر القاضي...وحضرت بمجلس شيخنا السيد محمد بن عوالي...وقد حضرت حلقة الشيخ محمد أبي طالب".[1]

لم يمكث الشيخ أبو راس بمازونة أزيد من ثلاث سنوات، وبمدرستها أقل من ذلك- كونه التحق قبلها بزاوية بوعلوفة أين أخذ عن شيوخها ماكان يصبو إليه، لينتقل إلى المدرسة ويَغرف من بحرها عن علماء وشيوخ فطاحل- ومع ذلك أحصى عشرة شيوخ شهد لهم بالعلم والصلاح.

كما أحصى محمد بن علي السنوسي في فهرسته المشهورة" الشموس الشارقة فيما لنا من أسانيد المغاربة والمشارقة" قائمة مشائخه المازونيين، قرأ عليهم الفقه والحديث، ذكر من بينهم الشيخ محمد بن علي أبو طالب وحفيده السيد أحمد بن هني، والشيخ أبوعبد الله بن المهدي بن علي الحسني، وإلى ذلك أشار أيضا في فهرسته" البدور السافرة في عوالي الأسانيد الفاخرة" فذكر الشيخ أبو طالب، وحفيده من بعده أبو العباس أحمد ابن هني[2].

أما في العهد الإستعماري فقد شهدت المدرسة مرحلة زمنية عصيبة، تميزت بالركود والتراجع العلمي نتيجة الرقابة والمضايقات الشديدة التي فرضتها السلطات على الشيوخ والطلبة، ومع ذلك فقد عرفت فترات من الانبعاث والاستفاقة، كعهد الشيخ أبي راس بن أبي طالب، لتستمر بين مد وجزر إلى سنة 1958م بوفاة آخر شيوخها أحمد ولد أبي راس.

---

(1) محمد أبو راس الجزائري:مصدر سابق،ص ص،44،45،46.

(2) ناصر الدين سعيدوني، المهدي بو عبدلي: مرجع سابق،ص ص 196،197

الفصل الثالث

الدراسة الفنية لمدرسة مازونة

I–الدراسة الوصفية

1–الوصف المعماري للمدرسة

–الوصف الخارجي

–الوصف الداخلي

II–الدراسة التحليلية

1–دراسة معمارية

–المخطط

–العناصر المعمارية

2–دراسة زخرفية

III–الدراسة المقارنة: مدرسة مازونة ومدرسة أبي مدين بتلمسان

الدراسة الفنية لمدرسة مازونة

من أهم صفات العمارة (الجيدة) التصميم الذي يشتمل على القيم الوظيفية والجمالية معا. ومهما كان المهندس المعماري مراعيا للقواعد الفنية، ومهما كان التنفيذ دقيقا فإن جمال العمارة وكمالها يعتمد في كثير من جوانبه على شخصية الفنان و المثالية التي يريد أن يحققها. وللعمارة الإسلامية شخصيتها وطابعها المميز الذي تتبينه العين مباشرة سواء أكان ذلك نتيجة للتصميم الإجمالي أو العناصر المعمارية المميزة أو الزخارف المستعملة[1]

يرى بعض الدارسين أن الهدف من دراسة التراث المعماري إنما هو محاولة استخلاص القيم والمباديء المعمارية في تلك المباني وإدخالها في أسلوب معماري حديد يعبر عن الشخصية المعمارية الإسلامية، بحيث تتعايش وتتكامل وتنسجم العمارة الجديدة مع العمارة القديمة[2] ولقد شاعت الفنون الجميلة في جميع العمائر الإسلامية، بعد أن استوعب المسلمون فنون الحضارات الغابرة، فأخضعوها لما يستوجب فلسفة الدين الإسلامي ومقاييسه التي تقوم على عدم النزوع إلى محاكاة العناصر الطبيعية بحذافيرها.[3]

ولعل ما يميز العمارة الإسلامية في شرق العالم الإسلامي وغربه الولع و الإهتمام الكبيرين ببناء المدارس،والتي يعد إنشاؤها من المنجزات العظيمة من الناحيتين العلمية والفكرية،وكذلك من الناحية المعمارية الفنية،[4]إذ تعتبر مدرسة مازونة حلة معمارية وقبلة علمية وفكرية لم ينلها من الإهتمام مانال سواها من المدارس المغربية على الرغم مما تمتاز به عناصرها من أصالة معمارية فريدة تكاد تشكل في مجموعها طرازا فنيا مميزا.

---

[1] –أبو صالح الألفي: الفن الإسلامي(أصوله ،فلسفته،مدارسه)،دارالمعارف،مصر،(ب،ت) ، ص124

[2] –مصطفى صالح لمعي: التراث المعماري الإسلامي في مصر،ط1،دارالنهضة العربية ،بيروت،لبنان 1984،ص

[3] –محمد الطيب عقاب: لمحات عن العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر،ط1،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر1990،ص23

[4] –محمد محمد الكحلاوي: مرجع سابق، ص71

I-الدراسة الوصفية لمدرسة مازونة:

إن العمارة الإسلامية التي نبتت في بلاد مختلفة لم تستلهم ثقافتها الأولى وحدها بل تأثرت بكل بلد حلت فيه فاختلفت العمارات باختلاف البيئات، وأصبح لكل بيئة أثرها في عمارتها.

وكان الفن المعماري الإسلامي يرتكز في أول نشأته على العناصر المعمارية والزخرفية التي تتفق وروحانيته، فجاءت منجزاته تكاد تشبه بعضها بعضا في سائر البلاد الإسلامية مع شيء من التباين اليسير مما تحمله كل بيئة وتختص به أو تمليه مواهب أهلها الموروثة إنشاءا وعمارة وزخرفة وخبرة وتقاليدا.[1]

1-الوصف الخارجي:

تتصل مدرسة مازونة من جهتها الجنوبية الغربية بالمسجد، ويفصلها عنه رواق غير مسقف بمدخله باب يفصل بين الداخل والخارج.[2]والواقف باتجاه القبلة من خارج المدرسة يلمح ست نوافذ متباينة المقاييس، أما الأولى فهي نافذة ضريح سيدي أبي راس المازوني،مستطيلة الشكل بطول 65سم وعرض 50سم، محاذية لباب مدخل المدرسة، في حين تليها أربع نوافذ متساوية المقاييس بـ 30سم طولا و12سم عرضا، وهي خاصة بغرف الطلبة [3]ثم تأتي النافذة الأخيرة في آخر الزاوية من الجهة الشمالية الشرقية للمسجد بمقياس 40سم طولا و30سم عرضا وهي لقاعة التدريس الأولى.[4]

يعلو الجدارالخارجي للمدرسة شرافات ذات أسنان رأسية تتخذ شكل زخارف هندسية.[5]

---

[1] -ثروت عكاشة :القيم الجمالية في العمارة الإسلامية،ط1،دار المعارف القاهرة 1981،ص15

[2] -أنظر اللوحة رقم (04)

[3] -أنظر اللوحة رقم (06)

[4] -أنظر اللوحة رقم (06)

[5] -أنظر اللوحة رقم (06)

أما مسجد المدرسة فيمتد على طول 14 مترا، يتوسطه مدخل رئيسي موازي لجدار القبلة طوله 2.95م وعرضه 1.60م، تزينه زخارف هندسية بأشكال متنوعة وتعلوه زخرفة كتابية في آية قرآنية[1] .كما يمثل المدخل نقطة تناظر بالنسبة لنافذتين متوسطتي الحجم في أعلى الجدار الموازي للقبلة، بحيث تقسم كل نافذة نصف المسجد إلى قسمين متساويين.

وتبقى الواجهتان الجنوبية الشرقية للمسجد والمدرسة، والشمالية الشرقية للمدرسة مجهولة بالنسبة للناظر من الخارج بسبب التوسع العمراني.[2]

2-الوصف الداخلي:

يمر الداخل إلى مدرسة مازونة عبر سُلّم يقوده إلى باب المدخل، ومن هناك يقابله مباشرة فناء مستطيل الشكل طوله حوالي 16 مترا وعرضه 8 أمتار، يتوسطه حوض أوصهريج من الرخام المنحوت موصول بحنفية ماء، كانت تستعمل للوضوء، أما اليوم فهي تابعة للكُتاب يستغلها التلاميذ في محو ألواحهم.

2-1- قاعات التدريس:

في الجهة المقابلة للمسجد من الشمال الشرقي توجد قاعتا تدريس[3] بمقاييس متساوية في الطول والعرض والإرتفاع، إذ في مدخل كليهما يوجد باب طوله 1.90م وعرضه 67سم، وبمجرد الدخول إلى القاعتين يكتشف الزائر بساطة المكان وانعدام الثقافة الصحية في المدرسة، إذ يبلغ طول القاعة 5.6م وعرضها 3م، وارتفاعها 2.05م، وبدون نافذة في القاعة الأولى من جهة الضريح، أما القاعة الثانية فلها المقاييس نفسها مع القاعة الأولى باستثناء توفرها على نافذة تطل على الجهة الشمالية الغربية.

---

[1] -انظر اللوحة رقم (09)

[2] -انظر اللوحة رقم (03)

[3] -انظر اللوحة رقم (02)

2-2- **غرف الطلبة:**

تتوفر مدرسة مازونة على أربع غرف للطلبة صغيرة الحجم، وهي موازية لموقع ضريحي الشيخ سيدي محمد بن الشارف، والشيخ سيدي محمد أبي طالب، بإتجاه القبلة.[1] تقع الغرف على خط واحد وبمقاييس متساوية لبعضها بطول 3م وعرض 2م وارتفاع 2.50م.

تتوسط الغرف الأربع ضريح سيدي أبي راس المازوني من الجنوب الغربي، وقاعة التدريس الثانية من الجهة الشمالية الشرقية، فيكتشف الزائر بساطتها في البناء والتصميم وهشاشة سقفها، ونقص التهوية فيها بسبب صغر نوافذها[2] ،وعند فتح أبواب الغرف يظهر الفناء مباشرة.

3-2- **الفناء:**

يطل المدخل على فناء مستطيل الشكل[3] طوله 16م وعرضه8م، يمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي و يتوسطه حوض مائي مزود بحنفية مخصصة للوضوء.

إن الواقف في الفناء تقع عيناه على كل مراكز المدرسة، حيث المتجه نحو القبلة يقف على ضريحي الشيخين، ابن شارف ومحمد أبي طالب، وإذا أدار عيناه قليلا نحو الجنوب يرى السُلّم المؤدي للقاعة المخصصة للمخطوطات والكتب، ثم بعدها يرى جدار المسجد في الجهة الجنوبية الغربية، لتقع عيناه غربا على الصومعة، وإذا توجه نحو الشمال الغربي فإنه يبصر المدخل ثم ضريح الشيخ أبي راس المازوني، فالغرف الأربع للطلبة وأخيرا قاعة التدريس الثانية، وتبقى القاعة الأولى للدرس في الجهة الشمالية الشرقية للواقف في وسط الفناء.

وتحتوي المدرسة على فناء جانبي[4] ، هو في الأصل سطح المكتبة أو قاعة

---

[1] -أنظر اللوحة رقم (23)

[2] -أنظر اللوحة رقم (06)

[3] -أنظر اللوحة رقم (03)

[4] -أنظر المخطط رقم (01)

المخطوطات والكتب، ويصل إليه الصاعد عبر سلم بطابقين من الحجر المنحوت، وأما طول الفناء يبلغ 12م وعرضه 07 أمتار.

4-2- الأضرحة :

حظيت مدرسة مازونة على غرار الكثير من الزوايا والمدارس بدفن عدة علماء ومشائخ فيها من الأسرة الشريفة، آل ابن الشارف البلداوي الأندلسي التي يمتد نسبها إلى فاطمة الزهراء زوج الإمام علي كرم الله وجهه، وابنة سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم-[1]

أحصيت في المدرسة عدة أضرحة لمشائخ وعلماء كان لهم الدور في الحركة العلمية التي عرفتها البلاد لفترة زمنية فاقت الأربعة قرون، ولعل أبرزهم:

1-4-2- ضريح سيدي محمد بن الشارف:

ينسب لصاحبه موسس المدرسة خلال القرن السادس عشر وأول المُدرّسين بها يقع ضريحه شرق المسجد وغرب ضريح سيدي أبي طالب وقاعتي التدريس، ويقابله الفناء وضريح سيدي أبي راس المازوني، تعلو الضريح قبة بنصف قطر 1.80م[2]

يعلو الجدار شرفات ذات أسنان رأسية بأشكال هندسية زادت المكان رونقا وجمالا[3] ، وهي نفس الأشكال الهندسية في الجدار الخارجي للمدرسة.

الداخل لغرفة الضريح يمر عبر الباب الرئيسي الخلفي الذي يبلغ طوله 2.72م وعرضه 1.12م، وهو باب خشبي،تعلوه نصف دائرة ثابتة،هي الأخرى مصنوعة من الخشب وقد زينت بشكلين هندسيين نجمة خماسية الرؤوس وأسفلها هلال وقد وجه برأسيه إلى الأعلى.[4]

أما جوف غرفة الضريحفواسع توعا ما، ولا يتوفر على أية نافذة للإضاءة باستثناء

---

(1) -أنظر: الأصول في شجرة أبناء الرسول.لـ سيدي محمد بن الشارف،في ملحق الوثائق.

(2) -أنظر اللوحة رقم (20)

(3) -أنظر اللوحة رقم (20)

(4) -أنظر اللوحة رقم (16)

المدخل، وهو ما جعل منها قاعة مظلمة، مما أدى إلى استحداث المكان وإيصاله بالضوء الإصطناعي حتى يتمنى للزوار اكتشاف الموقع.

يبلغ طول القاعة حوالي 4.90م، وعرضها 4.50م، وفي ذلك دلالة على القداسة التي كان يحظى بها الأولياء الصالحين، إذ نجد المكان المخصص للضريح أوسع وأرحب من المكان المخصص لنوم الطلبة وبعض المشائخ، وقد يرجع ذلك بالأساس إلى كثرة المتبركين الوافدين إلى المكان، وهو ما لمسناه أثناء زيارتنا للمدرسة خاصة من العنصر النسوي.

2-4-2- ضريح سيدي محمد أبي طالب :

يقع بالجانب الشرقي لضريح سيدي محمد بن الشارف وغرب قاعة التدريس الأولى، وعلى شماله نجد الفناء وغرف الطلبة وضريح سيدي أبي راس المازوني.

تختلف غرفة ضريح الشيخ أبي طالب عن باقي غرف الأضرحة الموجودة في المدرسة وذلك من حيث التصميم العمراني للغرفة، إذ بنيت على شكل قبة.[1] وهو ما أكسبها نموذجا معماريامنفردا عن باقي الهياكل المعمارية في المدرسة.

للضريح باب واحد باتجاه القبلة، يبلغ طوله 2.70م وعرضه 1.12م، تعلوه هو الآخر نصف دائرة ثابتة من الخشب الخشن.

و الغرفة ذات حجم كبير لكن بشكل دائري، وفي وسطها يوجد الضريح، وقد اشتملت غرفة هذا الأخير على عدة نتوءات في الإتجاهات الأربعة للغرفة، وهي عبارة عن تجويفات على شكل منبر، يبلغ طول الواحد منها 1.90م، وعرضه 1.20م[2]

2-4-3- ضريح سيدي أبي راس المازوني :

يقع على يسار الداخل من الباب الرئيسي للمدرسة، ثم تليه من الجهة الشمالية الشرقية الغرفة الأولى من الغرف الأربعة المخصصة لنوم الطلبة، ويقابله الفناء الرئيسي من جهة القبلة، وكذا ضريحي الشيخين، ابن الشارف، وأبو طالب، أما المسجد فيقع في

---

[1] -أنظر المخطط رقم:(01)

[2] -أنظر اللوحة رقم :(20)

الجهة الجنوبية الغربية من الضريح.

تتميز غرفة ضريح سيدي أبي راس المازوني عن الضريحنين السابقين بصغرها من حيث السعة والحجم وبزخارفها الفنية الرائعة، سواء من الداخل أو من الخارج.

أول ما يشد الزائر إلى الضريح الباب الذي هو عبارة عن تحفة فنية غاية في الرونق والجمال وقد صمم على شكل عقد دائري في طول 2.70م وعرض 1.10 م[1]

كما اشتمل الباب على زخارف هندسية تمثلت في عقد حدوي مدبب من النحاس مسنن من الداخل، وعلى جانبي العقد نرى شكلين هندسيين على هيئة مثلث محور من قاعدته وهما متناظران بالنسبة لمنتصف الباب، أما داخل العقد المدبب فقد وضعت نجمة بستة رؤوس وهلال موجه إلى الأعلى برأسيه، ونجد أسفل العقد لوحة خشبية تقسم جزأي الباب طولا، ليظهر شكل هندسي آخر متمثل في معين ممتد على مسافة 40سم طولا و20سم عرضا ، ويقابله في الجزء الثاني من الباب معين آخر بنفس المقاييس، ونجد أسفل الشكلين بعد أن تم الفصل بينهم بلوحة خشبية أشكال فنية أخرى تمثلت في شكليين على شكل زهرتين بثلاثة رؤوس ومعين معاكس في اتجاه للمعينين السابقين لكن بنفس المقاييس، وقد قسم الباب في طوله إلى قسمين، جزء في القسم الأول من الباب والجزء الآخر في القسم الثاني بالتناظر.

للإشارة فإن كل الأشكال الفنية التي على باب ضريح سيدي أبي راس هي من النحاس.

كما زين جانبا المدخل بلوحات من الزليج ذات الأشكال الهندسية والنباتية، أما إذا ولجنا الغرفة فإننا نجدها مضيئة بعدما استحدثت نافذة في الجهة المقابلة للمدخل والمطلة على الشارع، فيما يبدو حجم الغرفة أقل بكثير من حجم الغرفتين السابقتين الذكر،بطول 3.25م وعرض لا يتجاوز 2م.

تعلو ضريح الشيخ المازوني قبة مثمنة الشكل وهي أصغر القباب المتواجدة في

---

[1] -أنظر اللوحة رقم: (11)

المدرسة بنصف قطر 1.50م[1]

وقد أحصيت عدة أضرحة في المدرسة مثل ضريح الشيخ سيدي عبد الرحمان وسيدي محمد الصغير بن عبد الرحمان والشيخ محمد وغيرهم، لكن قلة المعلومات عن تاريخهم وماضيهم العلمي والديني جعل الإهمال يطالهم، حتى أنهم ألحقوا بغرف الأضرحة السالفة الذكر.

5-2- **المكتبة :**

وتسمى عادة قاعة الكتب والمخطوطات، تمتد جنوب شرق المسجد ولا يفصل بينهما سوى ممر ضيق بمسافة 1.50م[2] ،والواصل إليها من الباب الرئيسي للمدرسة يقطع الفناء وينزل عبر سلم بطابقين ليجد مدخلين أحدهما على يمينه وهو الباب الخلفي للمسجد والآخر على شماله وهو باب المكتبة.

قاعة المكتبة واسعة من الداخل إذ يبلغ طولها 10 أمتار وعرضها 6 أمتار، وتحتوي على مصادر التهوية والإضاءة وهي عبارة عن نوافذ صغيرة في أعلى الجدار من الجهة الشمالية الغربية.

احتفظت المدرسة بخزانة واحدة فقط للمخطوطات[3] ، أما باقي الخزائن -والتي قيل أنه بخروج الإستعمار كان فيها أزيد من أربعة- فلم يعد لهم أي أثر.

أما الخزانة الباقية في المكتبة فإنها تحتوي على عدة مخطوطات ثمينة وفي مختلف التخصصات كالفقه والسيرة والتشريع والحديث[4] ...الخ

6-2- **الميضأة :**

تقع في أقصى الجنوب للمدرسة[5] ، ولها مدخلان، أحدهما خارج المدرسة وهو

---

[1] -أنظر اللوحة رقم: (19)

[2] -أنظر المخطط رقم:(01)

[3] -أنظر اللوحة رقم :(24)

[4] -أنظر ملحق المخطوطات.

[5] -أنظر المخطط رقم:(01)

باب صغير ومعقود بواسطة عقد حدوي عرضه 1م، يفتح نحو الشرق على رواق مسقوف. وإلى الجدار المقابل نجد المدخل الثاني بباب هو الآخر ضيق والمودي عبر ممر ضيق إلى الباب الخلفي للمسجد ومن خلاله إلى الفناء عبر السلم.

وفي أعلى السقف يبرز حوض كبير أو صهريج لحفظ الماء، حيث كانت الطريقة التقليدية في جلب الماء عن طريق الدلو المربوط بالحبل وبواسطة البكرة المثبتة بلوحتين في ركني السقف تسهل عملية صب الماء، إلا أن الأمر اليوم مختلف بعدما استحدثت الأنابيب وأوصلت بالصهريج ومنه إلى المراحض الخمسة بحنفيات، وكذا إلى المكان المخصص للوضوء، وتجدر الإشارة بأن ميضأة مدرسة مازونة قد طالتها يد الإهمال مما أدى إلى فسادها واستحداثها، وأن معظم أجزائها اليوم حديثة البناء كبيوت الخلاء وسقف الرواق وغيره، مما أدى إلى صرف النظر عنها كمعلم تاريخي، والتركيز على حوض تامدة الذي يقع أسفل الواد بمسافة لا تزيد عن 400متر عن المدرسة، والذي هو عبارة عن حوض مائي عذب، كان الطلبة المقيمون في المدرسة يتوافدون إليه للأغتسال والوضوء، وحتى السباحة، لكن هو الآخر لم يسلم من يد التغيير، إذ شوهت ملامحه وبني مكانه مسبح بالإسمنت وبذلك يطمس تاريخ وحضارة أمة على مرأى الجميع.

7-2- **المسجد** :

ويسمى عادة بقاعة الصلاة، والذي يقع في الجنوب الغربي للمدرسة[1]، وقد فتح فيه بابان، أما الأول فهو المدخل الرئيسي للمسجد،حيث فتح في نصف الجدار الخلفي المقابل لحائط القبلة، وهو مخصص للعوام، ويبلغ طوله 2.95 م وعرضه 1.60م[2] وترتسم فيه ملامح الفترة الكولونيالية بعدما أعيد ترميم المدرسة لمرات عدة كان أهمها سنة 1852 في عهد نابليون الثالث.

يتشكل المدخل من عنصرين هامين هما الإطار المستطيل البارز الذي كتبت أعلاه

---

[1] -أنظر المخطط رقم: (01)

[2] - أنظر اللوحة رقم: (09)

آية قرآنية بالخط المغربي الأندلسي جاء فيها:"من عمل صالحا فلنفسه " وهي أكثر بروزا من باقي أجزاء الإطار بمسافة 35سم، وتبدأ المسافة تنخفض نحو الأسفل، وقد قسم الإطار إلى قسمين بواسطة حزام على شكل تاج، لينتهي على قاعدة سميكة بـ 40سم، أما العنصر الثاني للمدخل فهو ما بداخل الإطار الذي يشكل عقدا حلويا مدببا ينتهي عند منتصف الإطار على شكل تاج، ثم يلتصق بالإطار مشكلا عمودا بقاعدة مربعة.

أما المدخل الثاني فيقع في النصف الشمالي لجدار القبلة، وهو مدخل ضيق يؤدي إلى المدرسة عبر السلم، وقد صمم خصيصا للإمام والطلبة والشيوخ في المدرسة.

اشتمل المسجد على عدة نوافذ للإضاءة والتهوية منها نافذتين في الجدار الخلفي الموازي لجدار القبيلة وهي عبارة عن فتحات متساوية الأضلاع على شكل مربعات بمقاييس 45 سم x 45 سم في أعلى الجدار، وهما متناظرتان بالنسبة للمدخل، أما الجداران المعاكسان لجدار القبلة فقد اشتمل كل منهما على نافذة مستطيلة الحجم 75 سم 45x سم، ويبقى جدار القبلة الذي بدوره اشتمل على نافذتين مربعتين في أعلى الجدار بمقاييسه 45 سم x 45 سم[1].

إن حجم قاعة الصلاة في المدرسة صغير بالمقارنة بالمساجد الأخرى الكائنة بالمنطقة والمعاصرة لها وقد يعود ذلك إلى تخصيص المدرسة ومسجدها لفئة الشيوخ والطلبة دون غيرها، حيث بني على شكل مربع بمقاسات 8.70 م x 8.70 م[2]

1-7-2- الأعمدة والعقود :

يتربع مسجد المدرسة على 16 عمودا، منها 04 أعمدة رئيسية في الوسط،[3] وهي التي تظهر باتجاهاتها الأربعة، أما الأعمدة الإثنا عشر الأخرى فلا يظهر منها سوى الوجهة الأمامية ونصفي الجانبين، وذلك راجع إلى تداخلها مع الجدران الأربعة في البناء

---

(1) -أنظر المخطط رقم:(03)

(2) -أنظر المخطط رقم:(02)

(3) -أنظر المخطط رقم:(03)

مما أدى إلى حجب واجهة ونصفي الجانبين من كل عمود من الأعمدة الإثنا عشر.[1]

صممت الأعمدة في المسجد على شكل مربعات بمقياس 53سم x 53سم أما ارتفاع العمود فيبلغ 2 م، وقد قُسّم البدن إلى خمسة مستطيلات بمقياس 53سم x 40 سم[2]

لكن الملفت للإنتباه في أعمدة المسجد هو خلوها من شتى أنواع الزخرفة، وتجسيد البساطة، وسيطرة اللون البني على المستطيلات المشكلة للبدن.

تمثل الأعمدة الأربعة الرئيسية مركز المسجد، والحاملة للقبة المركزية، كما أنها تشكل مربعا بمقياس 4 x 4 م.

يرتكز العمود في مسجد المدرسة على قاعدة مربعة بمقياس 56سمx56سم، وبارتفاع 10سم عن السطح، وينتهي في الأعلى ليبدأ التاج الذي هو عبارة عن حلقة وصل بين البدن والعقد ويأتي هذا الأخير على شكل عقود نصف دائرية وقد غابت عنها الروح الجمالية بغياب الزخرفة والإبداع الفني.

2-7-2- القباب :

تميزت مدرسة مازونة بتعدد قبابها فبلغت الثمانية[3] ، وهي مختلفة في مقاساتها وأحجامها لكنها تتوحد في طرازها المعماري.

يحتوي المسجد بمفرده على خمس قباب بمفرده، قبة مركزية في الوسط، وأربع قباب صغيرة في الأركان الأربعة للمسجد.[4]

أما القباب الثلاث المتبقية فهي تعلو أضرحة الشيوخ في المدرسة (سيدي محمد بن الشارف وسيدي محمد أبي طالب وسيدي أبي راس المازوني)، وهي بدورها تختلف في أحجامها مع الإحتفاظ بوحدة الطراز المعماري، إذ تكبرهم القبة الضريح أو الضريح القبة

---

[1] -أنظر المخطط رقم :(03)

[2] -أنظر اللوحة رقم:(23)

[3] -أنظر المخطط رقم:(01)

[4] -أنظر المخطط رقم:(02)

للشيخ محمد أبي طالب التي بنيت على شكل قبة، وتليها قبة ضريح الشيخ ابن الشارف وتصغرهم قبة ضريح الشيخ أبي راس المازوني،[1] وهي بذلك الأصغر في المدرسة.

بنيت القباب على قواعد مثمنة الأشكال، وقد صممت كل قبة بثمانية رؤوس عل شكل أقواس أو أنصاف دوائر بلغت أربعة وهي تتقاطع في المحور.[2] وكل قوس يستطيع أن يقسم القبة إلى قسمين متساويين.

تشكل القبة المركزية التي تتربع على الأعمدة الأربعة في المسجد بمقياس 4 x 4 م على قاعدة مثمنة مرتفعة عن السطح بـ 45 سم، أما باقي القباب فإن قاعدتهم لا يزيد ارتفاعها عن 10 سم وقصد التهوية ودخول الضوء فقد أحدثت فتحات صغيرة على القباب الخمسة في المسجد على شكل نافذ في اتجاه واحد نحو الشمال الغربي.

وعن ارتفاع القباب، فيبلغ علو القبة المركزية 2.05م وارتفاع باقي القباب في المسجد بـ 1.05 م.[3]

3-7-2- **المحراب :**

يتوسط الجدار الجنوبي لقاعة الصلاة، وفي مستوى واحد مع أرضية المسجد، وله تجويف في الجدار يبلغ عمقه 65 سم.[4]

يبلغ طول المحراب 2.50م وعرضه 1.60م، ويتشكل من عدة أجزاء مصنوعة من مادة الرخام حيث تعلوه قطعة رخامية بمقاسات 1.60م عرضا و20سم ارتفاعا، وقد جوفت في وسطها فزادها جمالا ورونقا ،وتليها طبقة رخامية ثانية بعدما فصل بينهما بتجويف دقيق وقد كتب عليها آية كريمة جاء فيها :" وأن المساجد لله " بالخط المغربي الأندلسي [5] .

أما الجزء الثالث فيتمثل في الإطار الخارجي الذي يمتد من آخر لوحة الآية إلى قاعدة

---

[1] -أنظر اللوحة رقم :(19)

[2] -أنظر المخطط رقم:(02)

[3] -أنظر اللوحة رقم:(21)

[4] -أنظر المخطط رقم :(03)

[5] -أنظر اللوحة رقم: (07)

أرضية المسجد على ارتفاع 2م وعرض 1.40م والذي بدوره ينقسم إلى قسمين متناظرين عند أعلى الشكل الهندسي ذو الثلاثة رؤوس المجوفة من بطونها والمرتبة من الأعلى إلى الأسفل حسب درجة البروز.ويبقى الجزء الأخير في المحراب والذي يمثل ما داخل الإطار بعدما نحت على شكل عقد حدوي مدبب ينتهي ببروز ثم تجويفة ثم بروز أقل من الأول فتجويفة فبروز أخير يكاد لا يُرى،ثم يلتقي بالعمود المكون للإطار في النقطة المركزية لهذا الأخير محدثا عمودا صلبا بارتفاع 01 متر لينتهي في القاعدة الرئيسية.

إن المادة الرخامية البنية اللون التي صمم بها المحراب والأشكال الهندسية المتناظرة التي طبعته والزخرفة الكتابية على الخط المغربي الأندلسي التي ازدان بها بعدة منه حلة فنية رائعة تعكس مدى جمالية الهندسة الإسلامية وعبقريتها.

4-7-2- كرسي المسجد:

إنّ من روائع الفن الإسلامي ما عكسته لنا قدرة الفنان المسلم على الإبداع، فتداولت عليه الأجيال حتى وصل إلينا في ثوبه الظاهر وقد زاده الدهر جمالا وحسنا، ومن أمثلة ذلك ما حفظه مسجد مدرسة مازونة من تحف أثرية لقرون من الزمن.

يحتوي المسجد على كرسي خشبي له من المميزات الفنية ما يعكس عراقته وقدمه[1] حيث يبلغ ارتفاعه من القاعدة إلى الأعلى 1.82م، أما طوله فيبلغ 82سم، وعرضه 80سم.
يتربع الكرسي على قاعدة مستطيلة بمقياس 80x82سم، ثم يليها القوائم الأربعة بارتفاع 20سم عن القاعدة لتصل إلى أعلى المقعد بـ 20سم بالنسبة للقائمين الأماميين و60سم بالنسبة للقائمين الخلفيين.

وتنقسم الواجهة الأمامية للكرسي أسفل المقعد إلى قسمين، الأول منها يشكل ذلك الإطار المستطيل الذي يعلو القاعدة مباشرة والمقبوض بالقائمين الأماميين للكرسي في مقياس 82سم 40x سم، والذي يتميز بأشكاله الهندسية المتنوعة من مستطيلات صغيرة والتي بداخلها معينات وقد بلغت ستة مستطيلات بالإضافة إلى مستطيل فارغ كما

---

[1] -أنظر اللوحة رقم:(10)

اشتمل الإطار على عناصر زخرفية على هيئـة أوراق نباتية محورة[1] . وفي وسـط الإطـار أحدث ثقب صغير على شكل مربع بمقاسات 8سمx8سم، ويعلو هـذا الإطـار إطـار آخـر على شكل مستطيل بمقاسات 82سمx30سم، والذي يحتـوي علـى أربعـة أشـكال هندسية ممتدة من الأعلى إلى الأسفل بطـول 30سـم، حيـث أنهـا مقبوضـة مـن الأعلـى في لوحـة المقعد، ومن الأسفل في لوحة تفصـل الإطـار الأول عـن الثـاني، أمـا الأشـكال الهندسية الأربعة فقد صممت على أشكال مخروطية في وسطها ومستطيلات في أعلاهـا ومربعـات في أسفلها، وعند نهايتي المخروط تظهر دائرتين، واحدة في الأعلـى والأخـرى في الأسـفل ثم يليها حزام[2]

كما وزعت هذه الأشكال توزيعا عكسيا، فنجـد الشـكل الأول يوازيـه الشـكل الثالث والشكل الثاني يوازي الشكل الرابع، ويبعد كل شكل عن الآخر بـ16.4سم.

يلي الإطارين من الأعلى مقعد مستطيل الشكل بمقاسات 82سمx80سـم وهـو عبـارة عـن لوح مسطح أملس.وقد وضع بجانبيه لوحتين لراحة الذراعين وهمـا مرفوعتان عـن المقعـد بـ20سم، ومقبوضتان من الجهات الأربعة بالقوائم.

أما الجزء الأخير في الكرسي فيتمثل في لوحة الظهر التي ترتفع عن المقعد بـ 80سـم وتأخذ الشكل المثلثي غير المدبب، وعلى جانبيه حورة أوراق نباتية متناظرة بالنسبة للوحة المنصفة للمثلث، وقد شدت لوحة الظهر بالقائمين الخلفيين للكرسي.

كما أن الجهتين الجانبيتين أسفل المقعد أخذت نفـس الأشـكال والتصـاميم للجهـة الأمامية المقابلة السابقة للوصف.

8-2. المئذنة:

تحتل مئذنة جامع المدرسة الزاوية الخلفية الشمالية لبيت الصلاة[3]، وهي بارزة عنه

---

[1] -أنظر الشكل رقم:(01)

[2] -أنظر الشكل رقم:(02)

[3] -أنظر المخطط رقم :(02)

ذات جزء سفلي مربع، وبدن مربع، ويبلغ ارتفاعها 12.50م.

يبدو من خلال شكلها الخارجي صفة الحداثة، مما يوحي لنا بأنها خضعت هي الأخرى للترميم الذي مس بعض مرافق المدرسة في عهد نابليون الثالث 1852-1870[1]، وهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام:

1- القسم الأول:

يتمثل في الجزء السفلي المربع المكون لقاعدة المئذنة بمقاسات 2.10x2.10م ويصل ارتفاعه إلى 3.30 م، وقد فتحت في ضلعه الجنوبي فتحة على شكل باب مقوس بمقاسات 1.73م طولا و66 سم عرضا، يوصل إلى قمة المئذنة بواسطة سلم خشبي دائري-نواة مركزية مجوفة-

2- القسم الثاني:

يتمثل في البدن المربع للمئذنة الذي يحتل أكبر جزء فيها، ويقدر ارتفاعه بـ 6.50م، أما أضلاعه فهي مربعة بمقاسات 2.05مx2.05م، وهو يخلو من الزخرفة، باستثناء الجهة الخلفية المطلة على الشارع التي زُينت بأشكال هندسية متنوعة حيث قسم البدن إلى ثلاثة أجزاء، أما الجزء الأول الذي يبدو في شكل مستطيل يبلغ ارتفاعه 3.50م وعرضه 2.05م قد نصف إلى جزئين متساويين طولا بخط يقسم المستطيل حيث زين كل جزء بخطين متوازيين قد ربطا من الأعلى بعقد مدبب[2]

أما الجزء الثاني في البدن فهو على شكل مستطيل بارتفاع 2.45م وبعرض 2.05م وقد شكلت بداخله دائرة في المركز، وفي مركزها نقطة تلتقي فيها الخطوط المنصفة لأضلاع المستطيل في شكل هندسي رائع.

ويبقى الجزء الثالث في البدن وهو الآخر على شكل مستطيل نائم بارتفاع 55سم، وبعرض 2.05م، يتميز عن سابقيه بالمعين الذي شكل في منتصفه، وبالشكلين الهندسيين

---

[1] -مولاي بلحميسي: مرجع سابق،ص 09

[2] -أنظر اللوحة رقم (04)

المتناظرين على جانبيه، وقد صمما على شكل خطين متوازيين يلتقيان في عقد دائري.

3-القسم الثالث:

يتمثل في الشرفة والجوسق .

3-1 -الشرفة :

مثمنة الشكل، يقدر طول كل ضلع 1,30 م، ويبلغ إرتفاعها 1,10 م ويعلوها في كل ضلع شكلين هندسيين مربعين وبداخلهما علامة (x) وهي من بين التجديدات التي إستحدثت على المدرسة [1] .

3-2 - الجوسق:

بني على شكل دائري في وسط الشرفة بارتفاع ثلاثة أمتار، وصمم سقفه على شكل مخروطي [2] ،تعلوه قبيبة صغيرة دائرية ويعلوه سفود حديدي وقد ثبت في أعلاه هلال .

يحتوي الجوسق على باب فتحته معقودة بعقدة نصف دائرية، يقدر عرضه 0,60 م، وارتفاعه 1,60 م، ومنه تخرج إلى الشرفة .

عند دخول المئذنة نجد بسطة تودي إلى سلم صاعد، يتكون من 50 درجة يتراوح طول الواحدة منها ما بين 0,78 م-0,80م يدور هذا السلم حول نواة مركزية أسطوانية الشكل .

---

(1) -أنظر اللحة رقم (05)

(2) أنظر اللوحة رقم(05)

II – الدراسة التحليلية:

نشأت العمارة أول مانشأت كحرفة البناء في أبسط أشكاله، ثم تطورت حتى غدت بجموعة المهن المعمارية المختلفة ، ومنذ عصور موغلة في القدم اشتمل البناء في شكله العادي على عناصر مستمدة من العادات و الطقوس الدينية[1]

1– الدراسة المعمارية:

إن للدين الإسلامي الحنيف و الحضارة الإسلامية الزاهية بالإضافة إلى البيئة الجغرافية الأثر الواضح على العمائر العثمانية و طرزها المختلفة خاصة الدينية منها، فكانت العمائر الدينية الأولى استمرارا للعمارة السلجوقية في بغداد و سوريا، و التي تميزت بأسلوبها المعماري المعروف بطراز المدارس نسبة إلى الوظيفة الأساسية التي كان يقوم بها المسجد إلى جانب وظيفة الصلاة، و أصبحت المساجد عبارة عن مساحة مربعة مغطاة بقبة كبيرة، و في أركان المربع قطاعات من قباب صغيرة، و قد عرف هذا الطراز باسم طراز " بروسة"، وهو أول طراز معماري قديم للمساجد العثمانية، و أشهر مثل له جامع " علاء الدين بك" بمدينة بروسة.[2]

أهم ما يميز العمارة العثمانية أسلوب التغطيات، إذ استخدمت القباب المركزية وحولها أنصاف قباب أو قباب صغيرة في معظم المناطق التي استقر بها العثمانيون، باستثناء المنطقة العربية التي احتفظت بطراز عمارتها المحلية خلال العصر العثماني و يرجع ذلك إلى عدة عوامل و هي : أن فلسفة الحكم العثماني كانت ترمي إلى بقاء الأوضاع على ما هي عليه في الولايات التابعة لها، أي أنهم لم يفرضوا ذوقا أو طرازا معماريا خاصا بهم.

كما أن طبيعة طرز العمارة العربية في كل من مصر و الشام و بلاد المغرب ارتبطت في نشأتها بعوامل البيئة المحلية، فضلا عن تطورها خلال العصر الأندلسي في

---

(1) –سيدي محمد الغوتي بسنوسي : الأصول العميقة لمعايير التناسق في العمارة الإسلامية ، جزئين، أطروحة جامعية لنيل درجة دكتوراه دولة في الثقافة الشعبية ،قسم الثقافة الشعبية ، تلمسان ، 2000، ص816 .

(2) منى درويش: العمارة العثمانية تتكيف مع المناخ، في (WWW. Islamonlinc. Net)

تونس و الجزائر و المغرب مما اكسبها شخصيتها و طابعها المميز، و لذلك كان من الصعب على الطراز العثماني الوافد أن يتغلب و يتفوق على هذه الطرز المحلية، و مع هذا فقد ظهرت بعض هذه الطرز العثمانية في المغرب العربي.

1-1. المخطط:

تتميز مدرسة مازونة على باقي المدارس الجزائرية العثمانية بخصوصيات تنفرد بها من ناحية التخطيط المعماري، وقد فرضتها الظروف الجغرافية و المعمارية ، مع أنها تشترك مع المدارس المذكورة في عناصر عديدة أهمها الوظيفة التعليمية، و الدينية التي أنشئت لأجلها،فهي تحتوي على بيت مربع، تحتل جهتها الجنوبية الغربية، و تعد أهم حيز مكاني فيها. و يتصدر حائط القبلة محراب مضلع، مما يدل على امتزاج الوظيفة العلمية والدينية في هذه المدرسة، فمن جهة تعد قاعة الدرس و المحاضرات، و من جهة أخرى تقام فيها الصلوات،و هذا ما هو معمول به في المدارس المغربية عموما[1] .

و لقاعة الصلاة مكانة كبيرة بالنظر إلى أسلوب المعماري في تصميمها، فاختصها بالعلو الشاهق الذي يتعدى علو جميع مرافق المدرسة.

أما القبة المركزية لقاعة الصلاة فقد رصصت، و هي ذات ثمانية أضلاع متساوية ومتراصة مكونة دائرة بثمانية رؤوس في القاعدة، و حولها أربع قباب صغيرة في الأركان الأربعة للمسجد و لها نفس خاصيات القبة المركزية من حيث الترصيص و عدد الأضلاع.

ويعدّ الفناء أوسع فضاء بالمدرسة، كونه فسيح إذا ما قورن مع هيكلها المعماري الكلي، حيث يشغل ثلث مساحة المدرسة تقريبا، و هي ميزة عمّت المدارس المغربية استوحاها المعماري المغربي من المدرسة المشرقية.

كما أن للمسجد دور في التأثير على المدرسة، حيث لم تخلُ المساجد المغربية من الصحن الذي يأتي في مؤخرة قاعة الصلاة باستثناء البعض، كمسجد مدرسة مازونة التي

---

(1) George Marçais : A/M/O, Op, Cit P 173

لم نجد للصحن فيه أي أثر، و لم تذكره المصادر التاريخية.

و لمراعاة الشروط البيئية داخل المدرسة، خاصة أنها تحمل غرفا لإيواء الطلبة فإن المعماري أهمل جوانب عدة في هذا الأساس)منها غياب الثقافة الصحية خاصة إذا علمنا أن الغرف ضيقة جدا و لا يتعدى ارتفاعها المترين في أحسن الأحوال، زيادة على نقص التهوية و صغر حجم النوافذ.

وأما عن قاعتي الدرس، فإن الأمر يختلف شيئا ما، إذ أن القاعة الأولى صممت بشكل يتلائم مع الوظيفة التي تؤديها، حيث أنها تتوفر على نافذة متوسطة الحجم و ذلك لغرضين أساسيين : أولهما الإنارة، فيتأتى دخول أشعة الشمس بالقدر الكافي إلى القاعة و ثانيهما للتهوية، و هنا يكمن سر تعامل المعماري مع ديناميكية الهواء فمن المعروف فيزيائيا أن الهواء الساخن يصعد إلى الأعلى، فالحرارة التي تصدر من القاعة تخرج مباشرة من الفتحة المخصصة للنافذة ، و أثناء صعود الهواء من الفتحة ينتج عنه جلب لهواء جديد يندفع من الباب، و هذا الهواء في الفناء، و من ثم يتجدد الهواء، بما يتيح تلطيف الجو بصورة طبيعية و مستمرة،خصوصا،أن المنطقة تتعرض إلى حرارة شديدة في فصل الصيف،و هذا النظام معمول به في المدارس المغربية[1] .

احتوت مدرسة مازونة على ميضأة،و هي شرط ضروري لإقامة الطلبة، لما توفره لهم من خدمات،خاصة أن حياة المسلمين مرتبطة أساسا بالطهارة، طهارة المكان، والجسد و الثوب... و من خلال المخطط[2] نلاحظ إنفصال الميضاة في شكل ملحق تابع للمبنى و هي مفتوحة بواسطة باب ثانوي إلى الخارج، فهي مشتركة بين طلبة المدرسة و العامة على عكس مدرسة العُبّاد، فهي خاصة بالطلبة فقط، و لها باب واحد يصل إلى الصحن .

يتضح من خلال المخطط مدى تحكم المعماري في البناء، و تقسيمه بشكل متقايس على محور واحد، حيث أن المحور المار بين البوابة و قاعة الصلاة و أكثر تحديدا محور

---

[1] عكاشة ثروت: القيم الجمالية في العمارة الإسلامية، دار المعارف ، مصر ، 1981، ص224.

[2]أنظر المخطط رقم:(01)

الباب الرئيسي مع المحراب يدل على احترام التماثل بدقة صارمة ، سواء في المقاسات أوعدد العناصر المعمارية و موقعها، فكلا الجزئين المتقابلين يعكس نفسه في الجهة المقابلة وهذه تقنية عرفها القدامى قبل المسلمين من اليونان، و الرومان بعدهم، و هذا التناظر نفسه ينبع من خاصية الإنسان و انسجامه[1]، في تكوينه العام، و امتيازه بالتناظر والتقايس فكان يسعى جاهدا لتحقيق هذا الإنسجام، و أول من وجد العلاقة بين جمالية الصور و علاقة الأحجام ببعضها هم الإغريق، إذ توصلوا إلى إيجاد نسبة عددية تحقق التوازن في المبنى، و تعرف بالنسبة الذهبية التي توصل إليها العالمان طاليس و فيتاغورث.

كما يتضح لنا أيضا من خلال المخطط شساعة قاعة المخطوطات أو المكتبة و توفرها على أمهات الكتب في معظم التخصصات كالفقه و الحديث و السيرة و القانون و اللغة...

مما يوحي أن روادها كانوا كثيرين، و أن المطالعة و تفحص الكتب كانت بين جدران المكتبة، و لا يسمح بإعارتها.

إن الاختلاف في تصميمات المدارس الجزائرية في العهد العثماني و قبله الزياني يبدو جليا، إذ لم يعاد المخطط نفسه مرتين بشكل واضح، و هذا راجع إلى الهدف الذي كان يرجى من بناء المدرسة، و هو إيواء عدد معين من الطلبة، و توفير الجو الملائم لهم من إحداث غرف ، و بناء قاعة صلاة في مكان دراستهم،و ما بقي على الفنان والمعماري إلا محاولة تنظيم و تجميل المحيط بطريقته الخاصة، كما استعمل فيها ما هو موروث من عمارة و زخرفة ،و ذلك حسب المساحة التي توفرت لديه.

و لهذا إختلفت مدرسة مازونة عن مدارس تلمسان الزيانية و باقي المدارس المغربية من حيث المساحة العامة للكتلة المعمارية و توزيع عناصرها، لأن هناك اختلاف في المباني الخاصة للأثرياء في المناطق الثلاث، و لكل منهم ميزته، فالموقع الجغرافي و النمط

[1] عبد العزيز لعرج/ دراسة تحويل وظيفي لمدرسة سيدي أبي مدين – العباد– المرحلة الأولى للمشروع التمهيدي، الورشة التقنية للهندسة المعمارية و الترميم ATAR، أرشيف مديرية الثقافة بتلمسان الجزائر ، 1999، ص31.

الاجتماعي فرضا تأثيرهما على هذا النوع من العمائر[1] . إلا أن التصميم العام للمدرسة المغربية يتكرر في معظم المدارس، فنجد أن أغلبها متكونة من صحن تحيط به أروقة وقاعة صلاة وحيدة و غرف تشرف على الصحن، و طابق علوي أو اثنين إضافة إلى الميضأة[2] . أما مدرسة مازونة فطبعتها البساطة و صغر الحجم و نقص الهياكل كالأروقة و صحن المسجد... إلخ ، قد يعود ذلك إلى بساطة المدينة و أهلها، و إلى تفضيل الجانب الوظيفي للمدرسة على الجانب الجمالي و الفني الزخرفي، وقد يعود إلى إهمال العثمانيين في الجزائر عن دورهم في بناء و تشديد المؤسسات الثقافية و العلمية إلا ما جاء نادرا في عهد الباي محمد الكبير و الباي عثمان، وربما كان ذلك نتيجة انشغالهم أكثر بالجوانب العسكرية.

2-1- العناصر المعمارية:

يقف فن البناء والعمارة و أساليبه و عناصره و طرزه المختلفة، في أول المدرج للفنون التقليدية، و السبب في ذلك هو أن المكان و مساحة البناء و موقع السكن و طراز البناء و شكله يلعب دورا مهما و أساسيا في حياة الإنسان الاجتماعية و الإقتصادية والحقيقة ليس كل بناء منظم أو أي بيت أو ما هو مسكون يعتبر فنا من فنون البناء والعمارة، و إنما فقط ذلك البناء المنظم و المتكامل الذي يعكس طرازا معينا ويؤدي وظيفة معينة تخص الساكنين فيه أو العاملين أو المشاهدين له، و يترك لديهم نوعا من التأثير الذوقي[3] ، حيث تشتمل العمائر على عناصر معمارية منها العمائر الإسلامية كالمدارس،التي فضلا على العناصر الأساسية للمسجد، هناك عناصر أخرى دخلت على عمارة المسجد فيما بعد و أصبحت متممة لعمارته و مشيرة إلى مكان بنائه، و من هذه العناصر الإضافية المئذنة و القبة و العمود، و الزخارف الأخرى التي تودي دورها

---

(1) Lucien Golin, la Maderssa médiévale, Paris, 1995, P 256

(2) العربي لقريز: مرجع سابق، ص91.

(3) إبراهيم الحيدري: إثنولوجية الفنون التقليدية: دراسة سوسيولوجية لفنون و صناعات فولكلور المجتمعات التقليدية، ط1، دار الحوار، سوريا، 1984، ص66.

كعناصر معمارية أو زخرفية مكملة، و من العناصر المعمارية الأخرى خارج إطار المسجد هناك قاعات التدريس، و غرف الطلبة و الميضأة و أضرحة الأولياء و المكتبة.

1-2-1 المدخل:

إن بناء المدرسة فوق هضبة جعلها تعلو المجمع المعماري، و الواقف أمام مدخلها من الخارج يتخيل شساعتها و شموخها، بيد أن بوابتها لا تعكس قيمتها العلمية والتاريخية، فهي تتوفر على مدخل حديث النشأة بعدما طالتها يد الإستعمار و خربتها عن كاملها أثناء الحرب الكونية الثانية، فحسب الروايات المتواترة اليوم توحي بأن مدخل المدرسة كان يضاحي مداخل مدارس تلمسان الزيانية، إذ عادة ما نجد المداخل التذكارية للمدارس يُعنى فيها بإظهار الشموخ و السمو و العظمة،و ذلك لإضفاء عظمة المكان، إلا أن هذه المداخل لا تحمل رسومات أدمية أو حيوانية على عكس بلاد المشرق و الأناضول[1] .

كانت البوابات التذكارية سمة للمباني الضخمة كالمساجد، والمدارس، سواء في المشرق أوالمغرب، فكان الباب الرئيسي ينهض على العموم إلى مستوى عال، ينتهي إليه المرء بواسطة سلم[2] ومثال ذلك مدخل جامع المنصورة بتلمسان، الذي فتح في قاعدة المئذنة، ونلاحظ فوق عقد المدخل شريطا على شكل هالة[3] ،قوامها عقد مفصص إلى واحد وعشرين فصا، وهذا ما نلاحظه في العمارة الزيانية، خاصة على باب مدخل المدرسة التاشفينية.

إن مدخل مدرسة مازونة-على ما هو عليه اليوم- مفتوح على قاعدة المئذنة، وبمجرد من

---

(1) بروكلمان كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة : أمين بنيه، منير البعلبكي، ط11، دار العربية للملايين، بيروت، لبنان، 1988، ص405.

(2) -بروكلمان كارل: مرجع سابق،ص373

(3) -الهالة هي اللهب الذي يأتي على شكل هلال ويحيط برأس القيسين في الرسومات الدينية المسيحية وهي رمز فني يوحي إلى القداسة.

كل الجماليات الفنية والزخرفية، وهو أكثر ما يشبه بوابة عادية لبيت متواضع[1].

2-2-1. المسجد :

المسجِد بالكسر اسم لمكان السجود، والمسجَد بالفتح جبهة الرجل حيث يصبه السجود، والِمسجد بكسر الميم الخُمرة، وهي الحصير الصغير، ويفسر الزركشي السبب في اختيار كلمة مسجد مكانا للصلاة، فيقول لما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقرب العبد من ربه اشتق اسم المكان منه، فقيل مسجد ولم يقولوا مركع[2]، وقد جاءت عمارته مستوحاة من البيئة المحيطة به، سواء من حيث الشكل المربع، أو من حيث المواد التي استخدمت في بنائه، من اللبن والطين والحجارة والسعف.

وقد ظلت الخصائص العمرانية الأساسية للمسجد على حالها من حيث مدلولاتها ومتطلبات المسجد كدار عبادة وإن تنوعت المضامين والأساليب.

ففي باديء الأمر كان بناء المساجد في الأمصار يقتصر على مسجد جامع واحد في كل مدينة تحقيقا للمقصد الشرعي الخاص بوحدة الجماعة، وباتساع رقعة الأقطار التي انتشر فيها الإسلام أصبح من الضروري إنشاء مساجد عديدة في مواقع متفرقة من المدينة الواحدة، مع الإقتصار على مسجد جامع فيها بحيث يؤدي المسلمون صلاة الجمعة في المسجد الجامع، وباقي صلواتهم في مساجد أحيائهم، ومع اتساع رقاع المدن، وتزايد عدد السكان أنشئ في المدينة الإسلامية الواحدة أكثر من مسجد جامع واحد،بينما تزايدت أعداد المساجد حتى بلغت في بعض المدن الإسلامية المئات، وكثير من الجوامع وعلى هذا فقد استقر العرف على إطلاق كلمة المسجد على كل مكان لتعبد المسلمين مهما كانت مساحته وإطلاق تعبير"الجامع"أو "المسجد الجامع" على المساجد الكبيرة التي تستوعب المصلين أيام الجمع، وعليه فإن كل جامع هو مسجد، ولكن ليس كل مسجد جامعا.

---

[1] -انظر اللوحة رقم(04)

[2]-www.khayma.com

يلتزم في بناء المسجد أن يكون فراغه في اتجاهين، أحدهما رأسي صاعد يربطه بالسماء والآخر أفقي مُستو يربطه بمكة المكرمة، والاتجاه الأفقي مرده إلى أن دين الإسلام دين جامع ومن ثم كان له قدس أقداس واحد للمسلمين عامة هو الكعبة، ومع أن القبلة-المحراب- تحدد هذا الاتجاه إلا أن هذا وحده لا يكفي، وكان لا بد من أن يشارك بناء المسجد في تحديد هذا الإتجاه وتعبر القبة التي ترمز إلى السماء- عن الحركة الرأسية، وكذا عن الحركة الأفية عند تزحزحها من موقعها في وسط منطقة الصلاة إلى موقع القبلة[1]

كان البناء المربع المقبب هو العنصر المعماري الأساسي خلال السنوات المبكرة من عهد العثمانيين في الجزائر، تشيد جدرانه عادة من الحجارة غير المصقولة، ويتخلل سطح البناء فتحات النوافذ والأبواب التي لم تكن أشكالها تضعف من صلابة الجدران أو ترقق من كتلتها، وكان الشكل الخارجي للبناء بسيطا خاليا من الزخارف التشكيلية. تتخلل الجدران نوافذ مستطيلة، وقد انعكس الطابع الهندسي الصارم للسطح الخارجي على المسجد من الداخل، فتحدد فراغه بالأشكال الهندسية البسيطة كالمربع والدائرة والمثلث والمستطيل والمعين، بينما تسيطر القبة تماما على الفراغ وتشده نحو المركز، ويولف هذا البناء المربع المقبب بالإضافة إلى المدخل والمئذنة المربعة الكتلة الأساسية لمسجد مازونة ولا يعد هذا الطراز من المساجد البسيطة مميزا للعمارة العثمانية في الجزائر خلال القرنين الأولين فحسب، بل كان كذلك طرازا أثيرا خلال القرون الأربعة للحكم العثماني في الجزائر ، وما زال يستخدم إلى اليوم في تركيا.

و الإنتقال من القبة الكروية المستديرة المشيدة من الآجر إلى القاعدة المربعة يتم بإرتكاز القبة فوق قاعدة مثمنة، وتصمم على شكل مثلثات مضلعة[2] .وهو النظام المعمول به في القباب الخمس للمسجد وكذا القباب الثلاث للأضرحة.

---

[1] -عكاشة ثروت: مرجع سابق،ص101

[2] -أنظر المخطط رقم (02)

- **المحراب:**

المحراب لغة هو الموضع العالي وصدر البيت وأكرم مواضعه وأشرف المجالس، وفي لسان العرب لإبن منظور" المحاريب صدور المجالس ومنه محراب المسجد، والمحراب القبلة، ومحراب المسجد أيضا صدره وأشرف موضع فيه" .

وقد وردت كلمة محراب في القرآن الكريم بمعنى المكان العالي المكرم في المنزل: "...وَهَل أتاك نبؤ الخصم إذ تسوّروا المحراب..."[1]، كما أشارت لفظة محراب إلى الحجر أو الصومعة التي يقوم فيها المتعبد بأداء شعائر الصلاة، ومناجاة الله، والتقرب إليه، في موضعين من القرآن الكريم: كقوله تعالى:"...فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبّحوا بكرة وعشيا"[2] . وقوله أيضا :"...فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحي مصدقا بكلمة من الله وسيّدا وحصورا ونبيا من الصالحين..."[3]

وتستخدم كلمة المحراب بالنسبة للمساجد كدلالة على العلامة التي تعين اتجاه أقدس مكان عند المسلمين، يتجهون إليه في صلاتهم سواء أكانت هذه العلامة على هيئة رسم مسطح أو غائر أو بارز فهي مجرد رمز يعين اتجاه بيت الله الحرام وهو الكعبة.

والمحاريب الإسلامية على نوعين، فمنها المحاريب المسطحة وغالبا ما تشكل من مادة الجص على حائط القبلة، وهناك أيضا المحاريب المجوفة التي تتخذ هيئة بنائية وكيانا معماريا[4]

يمتاز المحراب في مدرسة مازونة بأنه بارز عن جدار القبلة، وذو شكل مضلع وينتهي إلى الأعلى بطبقة رخامية مستطيلة بارزة في الإتجاهات الثلاث، ويتوسط المحراب عقد حدوي مدبب، يرتكز في منبته على تاج صغير في كل طرف، وهذين التاجين

---

[1] -الآية (٢١)من سورة ص

[2] -الآية (11)من سورة مريم

[3] -الاية (39) من سورة آل عمران

[4] -أحمد السيد الصاوي: المحراب الإسلامي عبادة وفن معماري وزخرفي، في www.torathi.com

محمولان على عمودين رخاميين رشيقين[1] ويحمل في مظهره العام سمات زخرفية ترجع إلى تأثير محلي فزخارفه، وحجمه تعكسان قمة الابداع التي وصلها المعماري الجزائري في العهد العثماني.

إن هذا النمط من المحاريب استخدم في أغلب المدارس المغربية، إلا في بعض التفاصيل كالمقاسات ووضعية الزخارف، فهي تختلف من مدرسة لأخرى.

- العقود :

المعروف تاريخيا وأثريا وفنيا أن العقود في عمارة المغرب الإسلامي تمتاز بنمطها الحدوي أو المكسورة الوسط من أعلاها، وهي تعرف أيضا بالعقود ذات المركزين[2] كما استعمل المسلمون في المغرب عقود على شكل نعل فرس، وهو عقد يرتفع مركزه عن رجلي العقد فيتألف من قطاع دائرة أكبر من نصف دائرة، ومنها كذلك العقد المخموس ويتألف من قوس دائرتين ويرتد ابتداؤه عن خط امتداد كتفي العقد، ولذا يسمى العقد المرتد، وهو يشبه عقد نعل الفرس غير أنه مدبب الرأس، ومنها العقد ذو الفصوص الذي يتألف من سلسلة عقود صغيرة وأقواس متتالية.[3]

استعمل في مدرسة مازونة بشكل عام وفي مسجدها بشكل خاص نوعان من العقود، عقود دائرية، وعقود مدببة.

أما العقود الدائرية فقد شملت كل العقود التي تربط الأعمدة في المسجد، إضافة إلى أشباه المحاريب في غرفة ضريح سيدي أبي طالب[4] ، وكذا أبواب الغرف وقاعات التدريس المعقودة من أعلاها.

وأما العقود المدببة فكانت هي الأخرى منتشرة في أجزاء المدرسة، كما هو في

---

(1) -أنظر اللوحة رقم (07)

(2) -محمد الطيب عقاب: لمحات عن العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر1991،ص24

(3) -زكي محمد حسن: فنون الإسلام، ج3، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان 1981،ص ص150و151

(4) -أنظر الوحة رقم (15)

هيكل المدخل الرئيسي للمسجد الذي يعلو التاج على شكل عقد مدبب[1] ، ويتكرر ذلك في مدخل ضريح الشيخ ابن شارف، وفي محراب المسجد الذي ينتهي فوق التاج بعقد مدبب أيضا.

وفي الغالب استعملت العقود بأنواع عديدة في بناء المدارس المغربية، فهي ميزة العمارة الإسلامية التي تضفي على الجانب الوظيفي الذي أحدث من أجله جانبا آخر يُراعى فيه الذوق والجمال، وهي خاصية انفرد بها الفنان والمعماري المسلم دون سواه.

-الأعمدة والتيجان:

تعتبر الأعمدة من أهم العناصر المعمارية الإنشائية بالمباني والمساجد، وقد كانت في البدايات الأولى لبناء المساجد من جذور النخل لتحمل السقف المصنوع من جريد النخل، ولما انتقلت صناعة البناء من الطين إلى الأحجار عُملت الأعمدة بقاعدة وساق وتاج أعلاها، فالقاعدة هي التي يرتكز عليها العمود كأساس عل الأرض، والساق أوالبدن الذي يعتمد عليه العمود، والتاج هو رأس العمود وهو الجزء الزخرفي العلوي الذي كانت فائدته من الناحية الإنشائية كمخدة أو قاعدة لتلقى الأحمال ونقلها إلى جسم العمود.

تقوم عقود المدرسة على أعمدة مربعة الشكل[2] ، تخلو من الدعامات، وتبلغ في مجملها ستة عشر عمودا، أربعة منها رئيسية في وسط المسجد.

أما تيجان الأعمدة فعرفت منها تيجان بصلية الشكل، وتيجان تشتمل عل صف من الوريقات النباتية تتصل في جزئها السفلي ثم تنتشر، فتؤلف صفحة من الزخارف النباتية البديعة،كما عرفت تيجان من المقرنصات وتيجان أخرى عل هيئة الناقوس، وكانت تيجان الأعمدة تتصل بعضها ببعض عند بدء العقود، وكثيرا ماكانت الأعمدة تتمنطق بحزام أو حزامين، وعليه فإن كل عقود مسجد مدرسة مازونة ترتكز في منبتها

---

(1) -أنظر الوحة رقم (09)

(2) -أنظر المخطط رقم (03)

على تاج صغير[1] في كل طرف وهذه التيجان محمولة على أعمدة مربعة.

- **القبة :**

نشأت القبة في المسجد لغرض تغطية المباني المستديرة، وهي من أجمل العناصر المتعاونة على إبراز مظهر الجوامع وإظهار تكوينها المتناسق المتزن مع المآذن، بحيث أصبح شكل هذين العنصرين للمعماريين من أهم عناصر تكوين الجامع، بالرغم من أنهما لم يكونا من العناصر التي ظهرت مع المسجد الأول، وكان البناء الأول البسيط للقبة يقوم على هيكل دائرة الشكل من الخشب يوضع فوق الجدران لتبنى فوقه القبة من الخشب بالشكل المطلوب، ثم تكسى من الخارج بصفائح من الرصاص، ومن الداخل بطبقة من بلاط الجبس، وهذا هو الأسلوب الذي اتبع في بناء أول قبة في تاريخ العمارة في العصر الإسلامي، وهي قبة الصخرة المشرفة التي أمر بها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة 72هـ/691م

و ما يطبع مدرسة مازونة، ويشد الناظر إليها هو تلك القباب المتناثرة فوقها، والتي ميزتها عن معظم المدارس المغربية، وأعطتها طرازا معماريا خاصا بها، حيث اعتبرت القباب كأسلوب مميز في العمارة العثمانية، التي اتسمت ببناء قبة كبيرة في المسجد الواحد ومعها قباب صغيرة في الأركان الأربعة وهو ما نراه بوضوح في معظم المساجد العثمانية الكبيرة داخل تركيا وخارجها.[2]

ظل البناء المربع المقبب العنصر المعماري الأساسي للمسجد في المدرسة، حيث علت القباب الخمس المضلعة سطح المسجد، وامتازت جميعها بقواعدها المثمنة المرتفعة عن السطح، لتُكسى من الخارج بصفائح من الرصاص للحماية من العوامل الطبيعية[3] ومن الداخل بطبقة من بلاط الجبس كبياض داخلي.

---

[1] -أنظر اللوحة رقم (13)

[2] -فن العمارة، التطور المعماري للمساجد،-في- WWW. MEMBERS . TRIPOD . COM

[3] -أنظر اللوحة رقم (21)

ويعتبر تعدد القباب في المسجد الواحد ذي الشكل المربع طرازا عثمانيا، أو ما يسمى بالمسجد ذو الوحدة الواحدة[1] ،حيث شيد المهندس سنان باشا مسجد السلطان سليم الثاني في أدرنة بقبة مركزية عملاقة قطرها واحد وثلاثون مترا، وخمس أربعة أنصاف قباب في الأركان لتحمل ثقل القبة.[2]

3-2-1. المئذنة :

المئذنة وجمعها مآذن، هي مكان الآذان، وسميت في المغرب الإسلامي المنارة أو الصومعة، والإهتمام الذي أولاه الإسلام لوظيفتها ولشكلها زاد على حضارة البناء عنصرا روحانيا، تميز بالأناقة والإبداع والأصالة، وجعل منها ظاهرة معمارية جديدة تفردت بها المدينة الإسلامية دون سواها[3] .

والمآذن المختلفة الأشكال والتصاميم والألوان المتكاثرة فوق الحواضر الإسلامية أضفت عليها طابعا روحانيا متميزا، وتركيبا جماليا رائعا، وانفعالا فنيا حيا...بشموخ الأشكال الشاقولية الواضحة، فوق تشكيل أفقي هادىء تؤلفه في الأسفل كتل بنائية متراصة متقاربة.

وقد يكون مدخل المئذنة قد يكون من داخل المسجد أو من خارجه، ودرج الصعود عادة ما يكون حلزونيا داخليا يدور حول محور المئذنة، مُنوَّرا بكوات مفتوحة في الجدار الخارجي.

الشرفة هي المكان المرتفع الذي يصل إليه الدرج ، حيث يقف المؤذن ليرفع الآذان وهذه الشرفة تحيط ببدن المئذنة، لأن المؤذن لا يقف في مكان ثابت، وعليه أن ينتقل في كل الجهات ليُسمع نداؤه من كل الأرجاء.

وفي الغالب تكون الشرفة مسقوفة للحماية من الحر والمطر ، ومن المآذن ما لها أزيد من

---

[1] -عكاشة ثروت: مرجع سابق، ص 111

[2] -أنظر المخطط رقم (05)

[3] -موسوعة العمارة الإسلامية ص ص ،332-346 -في-

شرفة واحدة، معظمها للتجميل لا وظيفة له، وكلما ارتفعت الشرفة صغرت مساحتها.

وتنتهي المئذنة بالجوسق، وهو القسم الذي يلي الشرفة الأخيرة، وتليه قبة المئذنة، وتنتهي بهلال تتجه فتحته نحو القبلة، وهو من معدن أو من مواد أخرى.

وقد جرى التفنن في صنع المآذن ...حتى جاءت كالجواهر المصوغة المتألقة والتحف النادرة، تختال في سماء المدينة الإسلامية مرددة كل يوم نشيدا إلهيا خالدا[1]

بنيت مئذنة مسجد المدرسة خلف جدار القبلة في ركنه الأيسر.[2] ببدن مربع وشرفة واحدة مثمنة وجوسق وهو طراز مغربي بعيد عن أي تأثير عثماني الذي يُعرف بمآذنه الأسطوانية الشامخة وبتعدد شرفاته ومن نماذجه في الجزائر جامع عين البيضاء بمعسكر[3]

أهم ما يميز مأذنة مدرسة مازونة شكلها التربيعي، حيث أن هذا الشكل من المآذن كان معروفا في المغرب الإسلامي والأندلس على حد سواء والمتأثرة بمئذنة جامع القيروان التي استمر استعمالها في بعض مآذن المساجد العثمانية بالجزائر كالجامع الجديد بالعاصمة[4]، لكن ما تتخصص به مئذنة المدرسة دون سواها من المآذن هو جوسقها المخروطي الشكل، وهو مالم نقف عند شبهه.

2- الدراسة الزخرفية :

إن وظيفة الفن صنع الجمال، والزخرفة واحدة من الوسائل المهمة التي تصنع الجمال ، وقد عرف المسلمون بهذا الفن من بين الفنون جميعها، حتى قيل أن الفن الإسلامي فن زخرفي، ذلك أنه لا يكاد يخلو أثر إسلامي من زخرفة أو نقش – مهما كان شأنه– بدءا من الخاتم الذي تحلى به اليد، وانتهاءا بالبناء الضخم الواسع الذي يجمع الآلاف من الناس.

---

[1] -موسوعة العمارة الإسلامية: مرجع سابق، ص ص،332-346

[2] -انظر المخطط رقم (03)

[3] -مباركة مري، يمينة بوشافور: جامع عين البيضاء، دراسة أثرية معمارية، مذكرة تخرج لنيل شهادة الليسانس، معهد الآثار، جامعة الجزائر 1994، ص 50

[4] -نفسه، الصفحة نفسها.

وإنما اتجه الفنان المسلم إلى هذا الفن لما وجد فيه بُغيته من حيث البعد عن دائرة الخطر في المنهج الإسلامي، فهو بعيد عن التشخيص بطبيعته، واستطاع الفنان المسلم بخياله الخصب أن يحقق الأمر الآخر وهو البعد عن محاكاة الطبيعة، وبهذا كان الفن ملائما للمواصفات التي يحددها المنهج الإسلامي.[1]

وتعد العناصر النباتية والهندسية والكتابية مقومات أساسية في بناء هذا الفن،تتعاون مع بعضها تارة، وتنفرد كل منهم على حدة تارة أخرى، وعلى هذا فهناك ثلاثة أنواع من الزخرفة

1-2- الزخارف النباتية :

تقوم الزخرفة النباتية أو مايسمى " فن التوريق" على زخارف مشكلة من أوراق النبات المختلفة والزهور المنوعة، وقد أبرزت بأساليب متعددة من إفراد ومزاوجة وتقابل وتعانق، وفي كثير من الأحيان تكون الوحدة في هذه الزخرفة مؤلفة من مجموعة من العناصر النباتية متداخلة ومتشابكة، ومتناظرة، تتكرربصورة منتظمة، وقلما نجد عنصرا نباتيا منفردا دون أن يحيط به شكل هندسي[2]، ومن الأمثلة على ذلك في مدرسة مازونة ما استعمله الفنان من عناصر زخرفية على هيئة أوراق نباتية مصورة في شكل لوحة على الخشب[3]، ومن خلالها تأمل الفنان في الطبيعة فتعلم واعتبر ، ولكنه بإعمال خياله استطاع أن يبتعد بفنه عن تقليدها، فجاءت هذه التوريقات عملا هندسيا مؤسلبا، أميت فيه العنصر الحي وساد فيه مبدأ التجريد، أما ما دون ذلك فقد خلت المدرسة من أي زخرفة نباتية.

2-2- الزخارف الهندسية :

---

[1] -صالح أحمد الشامي :الفن الإسلامي، التزام وابتداع، ط1، دار القلم 1990، ص 169

[2] -علي حملاوي: العناصر الزخرفية بمدينة سدراتة(ورجلان)، الملتقى الثاني للبحث الأثري والدراسات التاريخية، أدرار من29-05 إلى 02-06-1994، ص 32

[3] -أنظر اللوحة رقم (10)

برع المسلمون في استعمال الخطوط الهندسية، وصياغتها في أشكال فنية رائعة فظهرت المضلعات المختلفة، والأشكال النجمية والدوائر المتداخلة.

وقد زينت هذه الزخرفة المباني، كما وشحت التحف الخشبية والنحاسية، ودخلت في صناعة الأبواب وزخرفة السقوف، ولئن كانت هذه الزخارف دليلا على موهبة فنية راقية، فهي أيضا دليل على علم متقدم بالهندسة العملية.[1]

وامتاز الفن الإسلامي بفكرة التقاطع الخطي على غير ما عرفه الفن الكلاسيكي وهذه التشبكات التي تنشأ عن التقاطع والتي تعرف بالطبق النجمي الثماني الرؤوس، والمتعدد الرؤوس.

كما تظهر الزخارف الهندسية في العقود الحدوية والدائرية والمنكسرة وغيرها من العقود[2]. وبرزت الزخرفة الهندسية في شكل لوحات مستقلة، في جدار قاعة الصلاة للمدرسة، كما هو في إطار المحراب الذي اشتمل على المربع في مناسبتين قبل وبعد الآية القرآنية، وعلى المستطيل والمثلث والعقد المدبب[3]

ومن الواضح أن التطبيقات الهندسية في الزخرفة تظهر جليا في البوابة على الإطار الذي يزين مدخل المسجد، وعلى التيجان البسيطة، وعلى كرسي المسجد الذي هو عبارة عن لوحة فنية رائعة اندمجت فيها الزخارف النباتية بالهندسية، فنجد المربع والمستطيل والمعين، وعلى أبواب الأضرحة، وعلى المئذنة في الجهة المطلة على الشارع.

اتجه البعض إلى وجود محتوى فلسفيا في التعبير الفني بواسطة الفنون الزخرفية، والخط، وفي دلالة تلك الأشكال والخطوط، ووضعت لها تفسيرات تكاد تكون نسبية لأن الطريق في هذا المجال مازال يتطلب بحوثا عديدة ومعمقة[4]

---

[1] -صالح أحمد الشامي: مرجع سابق ، ص172

[2] -أنظر اللوحات رقم: (09)،(11)، (13) ،(15).

[3] -أنظر اللوحة رقم: (07).

[4] -وليد الجادر: استقراء التراث الفني وأثره في النهوض الحضاري في - مجلة تاريخ وحضارة المغرب، ع 12، ديوان=

=المطبوعات الجامعية، الجزائر 19

كما طغى الشكل المربع تجسيدا وزخرفة على مدرسة مازونة، فصُمم المسجد مربعا والمئذنة مربعة ولعل الفكرة مرتبطة بالجانب الروحي العقائدي لدى المسلمين فالكعبة ذات أربعة أضلاع وعدد الخلفاء الراشدين أربعة، إلى غير ذلك من القياسات التي تبدو سطحية في طرحها إلا إنها ذات تأثير.

3-2- الزخارف الكتابية :

لم يكن المسلمون أول من اتخذ الخط والكتابة أسلوبا زخرفيا على المباني والتحف الفنية، ولكن ليس ثمة من فن استخدم الخط في الزخرفة بقدر ما استخدمه الفن الإسلامي بسبب اهتمام الناس به من جهة وقابليته للتطور الزخرفي من جهة أخرى، ولعل البدء في زخرفة الخط بدأت في مصر آخر القرن الثاني الهجري، و ازدادت شيوعا منذ القرن الرابع، وبلغت ذروة الروعة في القرنين الخامس والسادس[1]

أما الزخرفة الكتابية في مدرسة مازونة فتمثلت أساسا في النصوص القرآنية والكتابات التأسيسية، التي نُفذت بالخط المغربي الذي ظل يسمى حتى القرن الخامس الهجري بالخط القيرواني كون الكتابة به وُلدت في القيروان عاصمة المغرب الكبير آنذاك في أوائل القرن الثاني الهجري من الخط الكوفي مباشرة، و لم تقتبس من النسخي الحجازي خلافا لما حصل للخطوط المستعملة في النسخي في المشرق.

أصبح الخط المغربي معمولامعمولا به في مختلف الأقطار المغربية، من المغرب الأقصى إلى موريتانيا مرورا بليبيا، وهو مايزال الخط المفضل لدى الكثيرين لما يحمله من أصالة، ويمتاز به من محافظة على تراث الأجداد، فضلا عن أن معظم الآثار المادية القديمة -ولا سيما المخطوطات[2]-مكتوبة به فله إذا جذور عميقة في التاريخ نبتت لأول مرة مع خط أول حرف باللغة العربية في هذه الأقطار[3]

[1] -أنور الرفاعي: مرجع سابق، ص 136

[2] -أنظر اللوحة رقم (12)

[3] -محمد مرتاض: الخط العربي وتاريخه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1994 ،ص 108

أما عن النصوص القرآنية في المدرسة فقد نفذت بالخط المغربي الأندلسي في مناسبتين، حيث جاءت الأولى في أعلى إطار المدخل الرئيسي للمسجد في لوحة كتب عليها: " **مَنْ عَمِلَ صَالِحا فلنفسه** "[1]، والثانية في إعلى المحراب، جاء فيها :" **وأن المساجد لله** "[2]

كما اشتملت المدرسة أيضا على كتابات تأسيسية بالخط المغربي في مناسبتين جاءت الأولى في أعلى جدار قاعة الصلاة في شكل لوحة رخامية توصل لتاريخ المدرسة وتذكر موسسها ونشاطه فيها، فجاء فيها :" **أسّسَ الشيخ سيدي محمد بن الشارف هذه المدرسة والمسجد في أوائل القرن الحادي عشر هجري ودرس به نحو 64 سنة إلى أن توفي في سنة 1164هجري وخلفه نجله من أب إلى إبن.**"[3]

أما الثانية فجاءت على ضريح الشيخ سيدي محمد الصغير وهو من نسل الشيخ موسس المدرسة ودُفن إلى جانبه، ومما جاء فيها ولم تمح : " **هذا ضريح الشيخ سيدي محمد الصغير بن محمد بن أحمد الشيخ بن عبد الرحمن بن ولد عام 1883 ودرّسَ نحو 16 سنة في هذه المدرسة التي دفن فيها بعد وفاته في عام رحمه ا لله.**"[4]

وعلى هذا النحو امتزج الخط المغربي بالخط الأندلسي، وذلك بعد استقرار أهل الأندلس من الخطاطين في المنطقة جراء حروب الإسترداد التي أعلنها الإسبان على الأندلسيين، فاستفادت مازونة خلالها من مدرسة أقامها نازح أندلسي، وتطعّمت بخطاطين وشيوخ وعلماء أدى إلى تزاوج الأفكار والعادات والصنائع، فأنجبت جيلا هجينا ،فكانت النقلة في ميدان العلم والفكر والأدب.

---

[1] -أنظر اللوحة رقم (09)

[2] - أنظر اللوحة رقم (07)

[3] -أنظر اللوحة رقم (01)

[4] -أنظر اللوحة رقم (22)

3- الدراسة المقارنة :

الواقع أن تاريخ المدرسة في الإسلام من الناحية الدينية يرجع إلى القرن الأول الهجري، نظرا لإرتباط الدين الإسلامي بالعلم والثقافة والفكر، وكذلك لما صاحب المدرسة من ارتباط وثيق بالعملية التعليمية، لاسيما الدينية منها، فقد كانت المدارس طوال العصر الإسلامي مزدهرة بالتدريس الديني على إختلاف مذاهبه وأنواعه بهيئة التدريس فيها وبطلابها، إلى جانب استخدامها في تأدية شعائر الصلاة، فقد جمعت المدرسة بين الإتجاهين في وقت واحد، الإتجاه الديني والاتجاه التعليمي، وإذا كانت الجوامع الكبيرة والمساجد استخدمت للتدريس فيها منذ وقت مبكر، إلا أن ذلك كان على نطاق ضيق ومحدود وفي ظروف معينة، بخلاف ما كان متبعا من أسس تعليمية ثابتة في المدارس الإسلامية التي كانت مخصصة لهذا الغرض في المقام الأول[1]

وقد تعرض لدراسة المدرسة كمنشأة معمارية إسلامية عدد كبير من علماء الآثار المحليين والأجانب، فكان لهم الفضل في ما درسناه وتعلمناه عن نشأتها وتخطيطها وزخرفتها ثم تطورها، بحيث أصبح من المتعذر حاليا إضافة جديد عنها إلى حد كبير.

وسنحاول في هذه الدراسة ربط مقارنة بين مدرسة العُبّاد" سيدي أبي مدين"بتلمسان كموسسة نشأت في العصور الوسطى، ومدرسة مازونة التي ظهرت وبلغت أوج عطائها في العصر الحديث على عهد العثمانيين في الجزائر، وسنبرز من خلالها الخصائص المعمارية والفنية لكل منهما، ونتطرق إلى أوجه الشبه وأوجه الإختلاف.

3-1- الخصائص المعمارية والفنية لمدرسة مازونة :

تتميز مدرسة مازونة بجملة من الخصائص أهمها:

-صغر المساحة إذا ما قورنت بنظيرتها في أرض المغرب والمشرق.

-احتواؤها على قبور وأضرحة على عكس مدارس كثيرة كمدارس السلطان أبي

---

[1] -مصطفى عبد الله محمد شيحة: دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية والمدرسة اليمنية-في- تاريخ المدارس المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، من22 إلى25 أبريل 1991، ص 409

الحسن[1]

-احتواؤها على قاعة صلاة وحيدة، تمتد في الجهة الجنوبية للمدرسة.

- فصل الميضأة عن المدرسة، والإتصال بها بواسطة رواق متعرج لفصل الرؤيا وعزل الأصوات والروائح.

-احتواء مدرسة مازونة على مدخل رئيسي وحيد، ولا أثر لأي مدخل رئيسي ثان أوثانوي.

-احتواؤها على صهريج مياه واحد في الميضأة.

-عدم احتوائها على صحن المسجد والأروقة.

-استخدام الأخشاب ميز المدرسة، إذ استعمل في الأبواب والنوافذ والخزانات والرفوف والأحجبة والأدراج.

-احتواؤها على ثماني قباب متناثرة، منها خمس فوق قاعة الصلاة، وثلاث فوق غرف الأضرحة.

2-3- الخصائص المعمارية والفنية لمدرسة سيدي أبي مدين :

-تتميز مدرسة سيدي أبي مدين بصغر مساحتها إذا ما قورنت بمثيلاتها كالمدرسة البوعنانية بفاس التي تمتاز بمئذنة ومنبر داخل قاعة الصلاة[2]

-خلوها من القبور والأضرحة، وهي ميزة اشتركت فيها مع المدارس المرينية.

-احتواؤها على قاعة صلاة وحيدة، تأتي في الجهة الجنوبية للمدرسة، وقد حجبت هذه القاعة عن الصحن بواسطة باب خشبي كبير.

-احتواء المدرسة على ألواح الحبوس(التأسيسية)، ويتضمن نص التحبيس بيانا بالممتلكات الموقوفة على المدرسة.

-غنى المدرسة بالأنواع الثلاثة للزخارف، النباتية، والهندسية، والكتابية، وفيها يتجسد

---

(1) -العربي لقريز: مرجع سابق، ص 122

(2) -محمد محمد الكحلاوي:مرجع سابق،ص 78

الخيال الواسع للفنان المسلم، ودرجة الدقة وقمة الإبداع التي وصل إليها.

-بني المسجد على شكل مربع بمقاسات 5.70م 5.70م وهي خاصية تشترك فيها مع مدرسة مازونة في إطار الطراز المغربي.

-مدخل المدرسة يوحي بالعظمة والقوة، فهو على شكل بوابة تذكارية شامخة تشغل ثلث الجدار الشمالي-من الخارج- وهي على شكل مستطيل بارز عنه بنحو 10 سم[1]

3-3-مقارنة بين مدرسة مازونة ومدرسة سيدي أبي مدين:

إن المقارنة بين مدرسة مازونة ومدرسة العباد هي دراسة لحقبتين زمنيتين مختلفتين فكانت مميزات الحقبة" العُبَّادية" النشاط والديناميكية واهتمام الأمراء والسلاطين في تلمسان بالعلم والدين والفن، وتجسد ذلك من خلال بقاياهم وآثارهم المادية، أما الحقبة "المازونية" فهي بداية لعهد حديث تميز بالركود والجمود وعدم اهتمام البايات العثمانيين بما اهتم به أسلافهم.

من المهم جدا أن المدرستين تدخلان في طراز المدارس ذات القاعة الوحيدة، وهذا طراز تختص به المدارس المغربية عن مثيلاتها في المشرق، التي تحتوي على قاعات يصل عددها إلى الأربعة، وتختلف في حجمها وتعرف بالأواوين.

كما تجتمعان في فصل الميضأة عن المدرسة، والولوج إليها عن طريق رواق متعرج وتختلف المدرستان في نقاط كثيرة منها :

-انعدام الصحن والأروقة في مدرسة مازونة على عكس مدرسة العُباد التي تحتوي على أروقة تحيط بالصحن وهي من بين التصاميم المشتركة في المدارس الزيانية والمرينية.

-انعدام المدخل التذكاري الشاهق والمزخرف في مدرسة مازونة على عكس مدرسة العُباد.

-توفر مسجد مدرسة مازونة على خمس قباب تعلو سقفه، على عكس مسجد العباد الذي تعلوه قبة قائمة على قاعدة مربعة.

---

(1) - العربي لقريز: مرجع سابق، ص 78

-استعملت الزخرفة بأنواعها الثلاث بشكل كبير في مدرسة العباد منفذة على الجص والزليج .

بينما افتقرت بمدرسة مازونة بزخرفة دقيقة خاصة منها النباتية والكتابية.

-احتواء مدرسة مازونة عل قبور وأضرحة شيوخها ومؤسّسيها، وهو ما غاب في مدرسة العباد، باستثناء ضريح شيخها"سيدي أبي مدين" الذي دفن خارج إطار المدرسة وغير بعيد عنها.

-ولابد أن نشير إلى أن مدرسة مازونة احتوت على مئذنة، عكس مدرسة العباد التي خلت من هذا العنصر المعماري، لكن المتأمل لهذه التشكيلة المعمارية يستخلص عدة استنتاجات في ميزة مدرسة العباد خاصة من الناحية المعمارية، فالواقف في الصحن يتخيل إليه أن للمدرسة مئذنة، لأن المسافة تكاد تكون منعدمة بين الجامع والمدرسة، إذ كان دور المئذنة إعلان مواعيد الصلاة.

وبهذه الخصائص التي ميزت كل مدرسة، وأوضحت مميزات الحقبتين الزمنيتين في الجزائر من الجانب الفني المعماري،يُستنتج أن القرون الأخيرة من العصور الوسطى في الجزائر شهدت تطورا كبيرا، جسدته قوة الإبداع الفني وعظمة التصميم المعماري من خلال الأثار المادية التي حفظها التاريخ لخلف الأمة.

أما العصر الحديث الذي استقبلته الجزائر بخلافة آل عثمان، فقد شهد هو الآخر نمطا فنيا جديدا ساهم فيه الأندلسيون الناجون من آلة الموت الإسبانية في إطار الشعار الذي حمله ملوكها والمعروفة بحروب الإسترداد، إلا أن ذلك لم يكن كافيا لمجاراة أسلافهم التلمسانيين، بل كادوا يفقدون حتى المكتسبات.

وعليه يمكن القول أن لكل مدرسة من المدرستين ميزتها الخاصة معماريا وفنيا، وتبقى الميزة التي جمعتهما الحُضوة العلمية والمكانة الثقافية لكليهما.

الخاتمة

خلّف تأسيس مدرسة مازونة خلال القرن السادس عشر أثرا إيجابيا عم معظم بايلك الغرب،وامتد حتى شرق المغرب الأقصى،نظرا للتوافد الذي ظلت تعرفه المدرسة لطلبة العلم من مختلف البقاع والأصقاع.

وقد مرت المدرسة في مسيرتها العلمية بمرحلتين متمايزتين:

المرحلة الأولى: تمتد من التأسيس حتى نهاية العهد العثماني في الجزائر عام1830 فقد تميزت بحركة علمية كبيرة قادها علماء وشيوخ وعلى رأسهم العالم الأندلسي الشيخ محمد بن الشارف-مؤسس المدرسة- وأحفاده من بعده كالشيخ محمد أبي طالب...فأحدثوا من خلالها ثورة فكرية في مجالات شتى، جعلت من مازونة منارة علمية يقصدها طالب العلم ويحج إليها.

وإن كان علماء مدرسة مازونة، وطبيعة مناهجها التعليمية، وتعدد تخصصاتها العلمية، أكسب خريجها احتراما كبيرا في مجتمعاتها، إذ أضحى يُحتكم إليهم في أمور دنياهم ويستعينون بهم في أمور دينهم (القضاء، الإفتاء).

كما أقرت الجامعات الإسلامية في المشرق والمغرب كالأزهر الشريف بمصر والزيتونة بتونس والقرويين بالمغرب.إجازات فقهاء المدرسة لطلبتهم واعتمدتها في قانونها ومكنتهم من متابعة دراساتهم فيها حسب التخصصات.

استطاعت مدرسة مازونة خلال مرحلتها الأولى أن تنجب علماء كان لهم شأن كبير، بعد ذلك ، أمثال العلامة الكبير الشيخ محمد أبي راس الناصري الذي كان من أقطاب القرن التاسع عشر في ميدان الفقه والتشريع والأدب والتاريخ ...وعُدّ من مجددي قرنه، والشيخ محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية التي قاومت التواجد الإستعماري في الصحراء، واستطاعت أن تحبط المخططات التي قادها الكاردينال"لافيجري"لتنصير المنطقة.

كما ساهمت المدرسة في الجهاد ضد الإحتلال الإسباني للشواطئ الغربية الجزائريةبإرسال خيرة طلبتها وشيوخها حيث قادهم الشيخ محمد أبي طالب وقد تجاوز الثمانين من عمره فقطع المسافة من مازونة إلى معسكر فوهران مشيا على الأقدام، وكانوا في طليعة الصفوف أثناء المعارك.

المرحلة الثانية: تمتد من نهاية سلطة آل عثمان في الجزائر على يد الإستعمار الفرنسي على إثر توقيع الداي حسين معاهدة الإستسلام في 05 جويلية 1830، إلى غاية وفاة آخر شيوخ المدرسة-أحمد ولد أبي راس- عام 1958 وأفول بريقها.

استمرت مدرسةمازونة طيلة الفترة الإستعمارية تودي وظيفتها التي وُجِدَتْ من أجلها، واستمر تدفق الطلبة عليها حتى من الحدود الغربية الجزائرية ومن المغرب الأقصى. الأمر الذي لم تستحسنه السلطات الإستعمارية خاصة أمام الموقف العدائي الذي تبناه العلماء والفقهاء في وجه التوسع ونهب الأراضي، وإقامة المحميات الخاصة في المنطقة، وغموض موقفها من الثورات الشعبية التي قادها شيوخ الزوايا في معظم أرجاء الوطن، فاهتدت إلى مكيدة تقسم بها ظهر المدرسة وتضربها في الصميم تمثلت في:

1-منع خريجي المدرسة الفقهية من الوظائف العمومية في كامل أرجاء الوطن.

2-تأسيس مدرسة نظامية فرنسية في المدينة غير بعيدة عن المدرسة الفقهية، وشجعت على الوفود إليها من خلال توفير فرص التوظيف لحاملي شهاداتها.

وبهذا استطاعت السلطات الإستعمارية أن تُوجِد وتُحدث شرخا بين أفراد الشعب، بدأ يتسع بمرور الشهور والسنين، حتى ظهر في المنطقة جيلان مختلفان في المبادئ والأهداف وما زالت المنطقة إلى اليوم تعيش على وقع هذا الإختلاف بين دعاة الأصالة ودعاة العصرنة والتغريب.

كان لهذه السياسة الإستعمارية أثرها السلبي على المسيرة العلمية للمدرسة، حيث شهدت ركودا واضحا منذ أواخر القرن التاسع عشر حتى عهد أبي راس المازوني المتوفي سنة 1917، الذي يعتبره بعض المؤرخين بالعصر الذهبي للمدرسة في الفترة الإستعمارية

لكن بوفاته عاد الركود من جديد لتستمر بين مد وجزر حتى عهد أحمد ولد أبي راس المازوني الذي حاول اتباع نهج أبيه في بعث المدرسة، لكن سبقته الوفاة قبل أن يركبها السكة عام 1958، وانطفأت بعده شمعتها التي أنارت للأمة طريقها طيلة قرون عدة.

وبعد استقلال الجزائر عام 1962 انتظر الكثير من الناس وعلى رأسهم أحفاد الأسرة الشريفة المؤسسة للمدرسة أن تُكرَّم هذه الأخيرة وتُبْعث الحركة العلمية فيها كرد لجزء من صنيعها بعد أن صانت الأرض وحافظت على المقومات الحضارية للأمة من لغة ودين وتاريخ، لكن لا شيء من هذا وقع، وهي اليوم تستغيث وليس هناك من يغيث.

تعرف مدرسة مازونة اليوم الإهمال واللامبالاة في جميع مرافقها وما تحتويه من كنوز معرفية كالكتب والمخطوطات، التي اختفت معظمها من خزانة المكتبة، دون أن تحرك السلطات المعنية ساكنا وهي ترى معلما أثريا يندثر، إضافة إلى تحويل جزء كبير منها إلى المكتبات الخاصة في البيوت والمنازل، واحتكارها ومنعها على طلبة العلم، وهي اليوم تئن في ظلمات المخازن، فما نجا منها من طول الظهر قد لاينجو من الرطوبة والأرضة والتعفن.

كما شهدت المدرسة منذ تأسيسها ترميمات عدة، شملت معظم هياكلها، خاصة في عهد الباي محمد الكبير الذي كافأ شيوخها بعد موقفهم المشرف في ساحات الوغى ضد الإسبان بترميم المدرسة ، وإهدائهم كتب ومخطوطات منها نسخة من صحيح مسلم ثم في العهد الإستعماري على عهد نابوليون الثالث الذي أمر بإعادة بنائها وتوسيعها عام 1852 على الصورة التي هي عليها اليوم، مما أفقدها طابعها المعماري الأصلي بشكل كبير وأضفى عليها ملامح الحداثة والتجديد.

لم تعرف مدرسة مازونة طرازا معماريا واحدا، بل تعددت الطرز فيها، حيث نجد المسجد صغيرا ومربع الشكل وبأعمدة مربعة، وهو النموذج المغربي، لكن إذا نظرنا إلى الأعلى نجد خمس قباب متناثرة فوق سطح المسجد، واحدة في المركز بشكل أكبر، أما الأربعة الأخرى فتعلو الأركان الأربعة للمسجد، وهو طراز عثماني على شاكلة طراز

بروسة في الأناظول ومسجد سليم بأدرنة، ومرة أخرى يعود الطراز المغربي ممثلا في المئذنة المربعة ذات الشرفة الواحدة التي يعلوها جوسق.

و عن الزخارف في المدرسة فتكاد تنعدم باستثناء الزخارف الهندسية التي طغت على الزخارف الأخرى، كالنباتية والكتابية، وانحصرت هاتان الأخيرتان في بعض الأوراق النباتية المحتورة واللوحات التأسيسية، وآيتان علتا المحراب ومدخل المسجد بالخط المغربي الأندلسي.

وإذا انتهينا إلى جملة النتائج التي خلص إليها البحث، فإننا نركزها في النقاط التالية:

-المكانة العلمية التي عرفتها مازونة ومن ورائها المدرسة طيلة العهد العثماني.

-اشتهار المدرسة طيلة الفترة المدروسة على أساتذة وشيوخ وعلماء كان لهم باع طويل في تخصصاتهم.

-تخصص المدرسة في الفقه المالكي وتضلع علمائها في علوم أخرى كالنحو والبلاغة والشعر والتشريع والحديث والسيرة ...

-توفر المدرسة على خزانة مخطوطات في معظم التخصصات.

-رفع المدرسة للواء المقاومة في وجه المشروع التغريبي الفرنسي.

-عرفت المدرسة طرازين معماريين، طراز مغربي في شكل المسجد والمئذنة، وطراز عثماني في تعدد القباب.

إن قراءة تاريخ الأمة ومستقبلها إنما يتم من خلال الرجوع إلى ثقافتها واستنطاق مخلفاتها من هنا كان لكل أمة تراثها الخاص، والذي هو النتاج الحضاري الممتد عبر الأزمنة والدهور.

والثقافات المحلية أو المقومات الحضارية للأمة في ظل شبح العولمة هي في خطر، لذا يستوجب عليها تحقيق أحد الخيارات الثلاث.

إما الذوبان وفقدان الذات أمام الوافد الجديد، وإما الانكماش على الذات أو ما يعرف بالموت البطيء، وإما الاستجابة الفاعلة.

ونحن نميل إلى الخيار الثالث باعتبار العولمة وعدا ووعيدا أو هي فرصا ومخاطر.

إن العولمة تحمل أسئلتها الصامتة والناطقة ويأتي في مقدمتها سؤال اللحظة التاريخية الراهنة، هل للثقافة الذاتية مكان في خطاب العولمة؟

لعل الاستجابة الفاعلة هي الطريق الأفضل والأضمن، شرطه الأول التخلص من الوعي الملتبس، يليه ضرورة استخلاص الجديد من القديم، والذي يتم داخل دائرة استعادة التراث.

ولا نستطيع أن نعيد لمدرسة مازونة مجدها ونكرر إشراقتها إلا إذا تحقق ما يلي:

-العمل على بعث المدرسة من جديد وفق برنامج ومنهج حديث، مع تكفل الدولة للتبعات المالية لذلك.

-تخصيص المدرسة بملتقيات وأيام دراسية لدراسة تاريخها وآفاق بعثها من جديد بشكل مستمر.

-العمل على ترميم هذا المعلم الحضاري والتشهير به بصفة دورية منتظمة.

-العمل على استرجاع ما ضاع من المدرسة من مخطوطات وتحف ثمينة وعرضها على طلبة العلم للدراسة والتحقيق.

-إنشاء متحف في المدينة يُعرِّف الزائر إليه بمخلفات الحضارات التي تعاقبت على المدينة.

إن الجهات الوصية والشخصيات التاريخية هي الآن مسؤولة أمام التاريخ على مصير هذا المعلم الحضاري الذي يحمل تاريخ وهوية أمة، هي اليوم في طي النسيان...!

الملاحق

1- ملحق اللوحات

2- ملحق المخطّطات

3- ملحق الأشكال

4- ملحق الوثائق

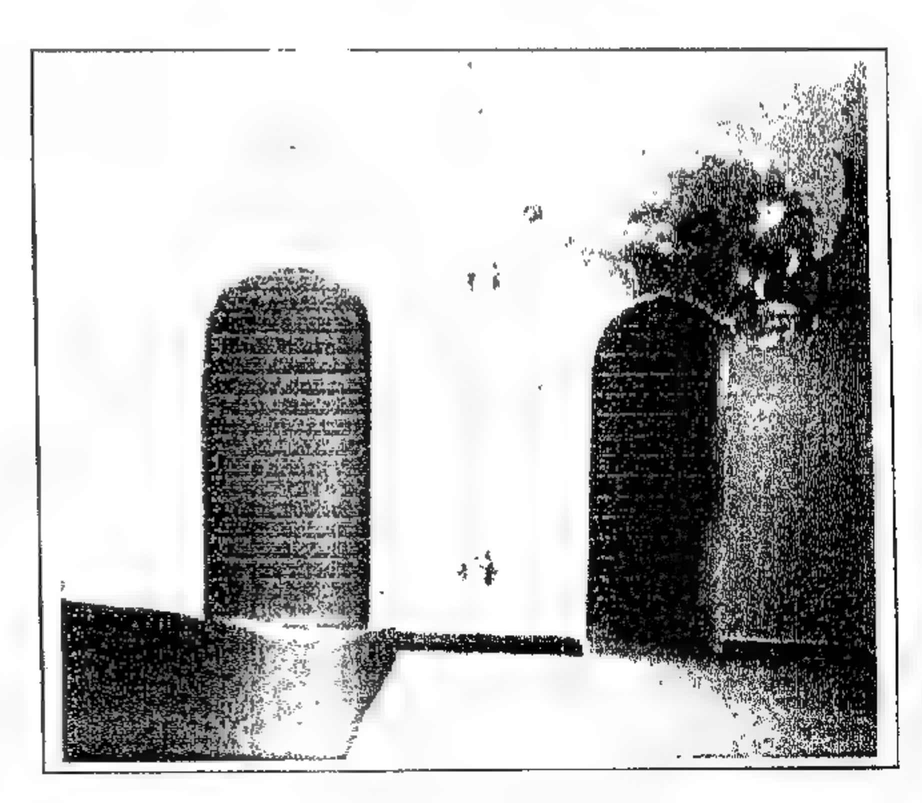
5- ملحق الخرائط

6- ملحق المخطوطات

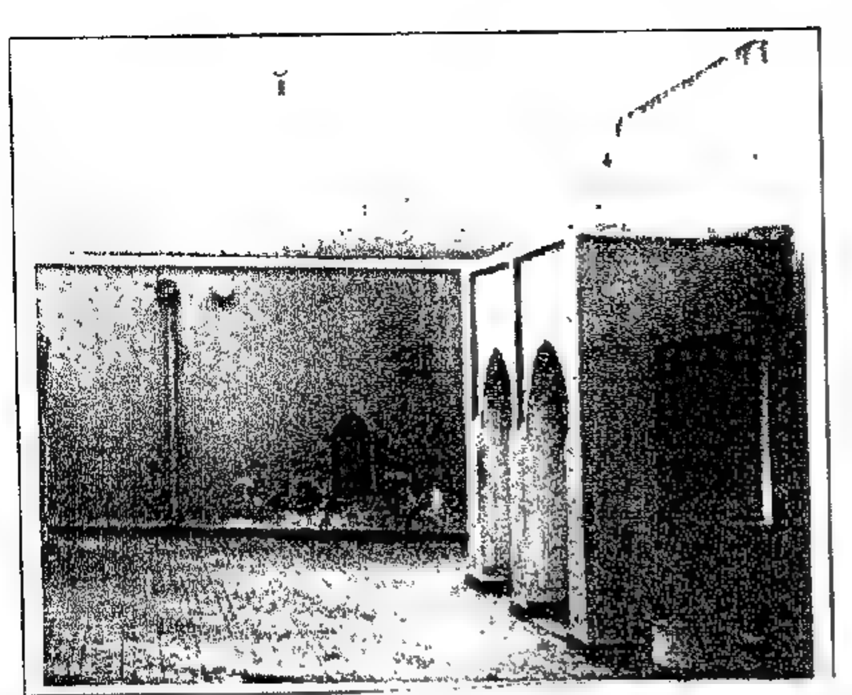
ملحق اللوحات



-اللوحة (1): كتابة تأسيسية لمدرسة مازونة.



-اللوحة(2):صورة لمدخلي قاعتي التدريس.



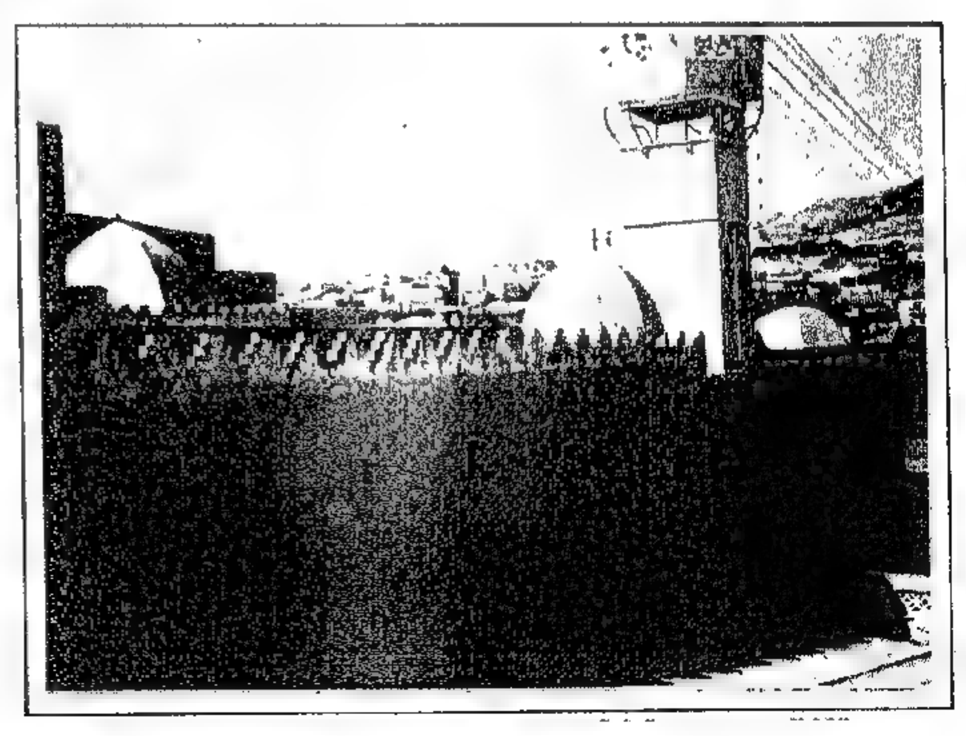
-اللوحة (3):صورة تشمل(الفناء، القبة المركزية، مدخل ضريح سيدي أبي : س)



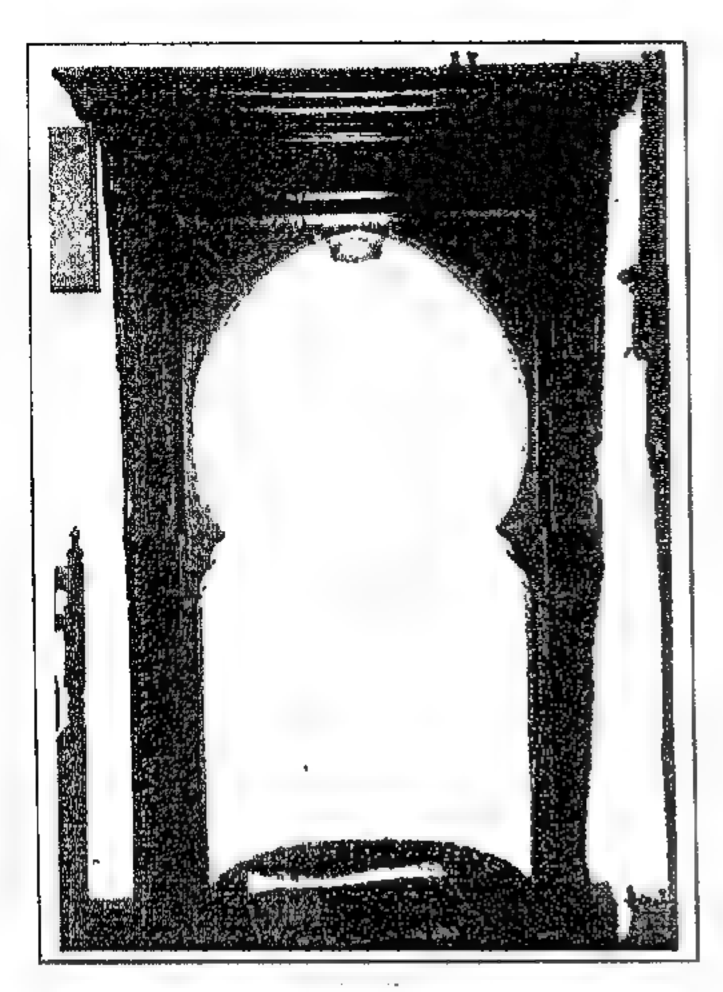
-اللوحة(4): صورة تشمل (مدخل المدرسة، المئذنة).



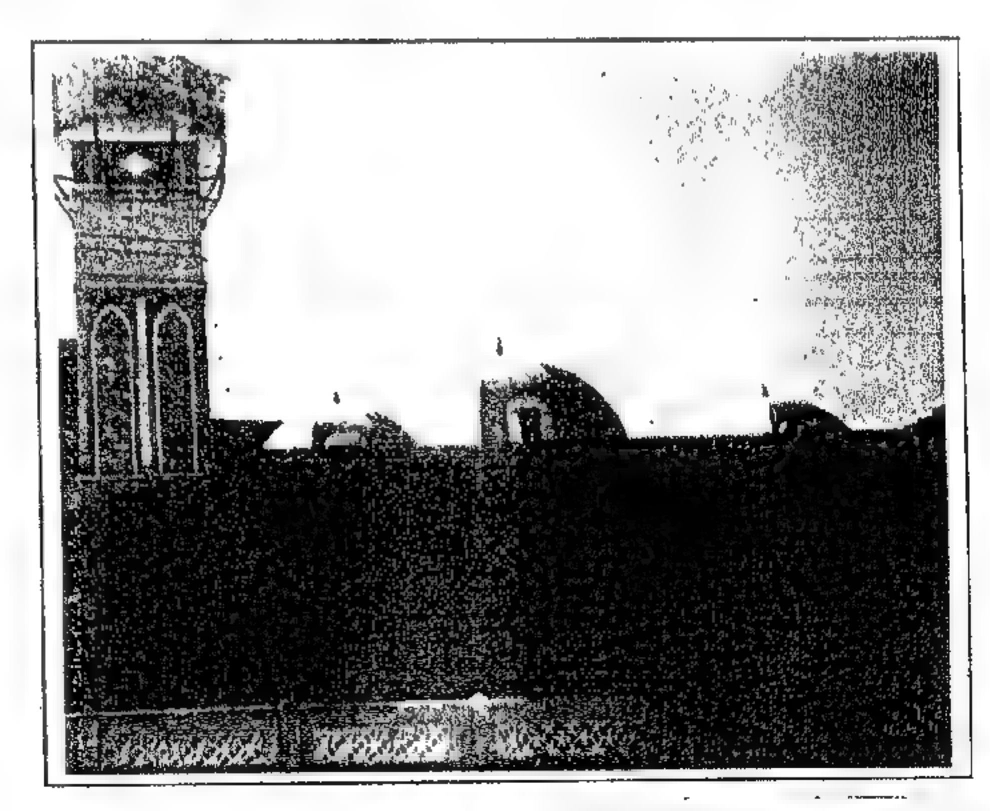
-اللوحة(5): المئذنة من داخل المدرسة.



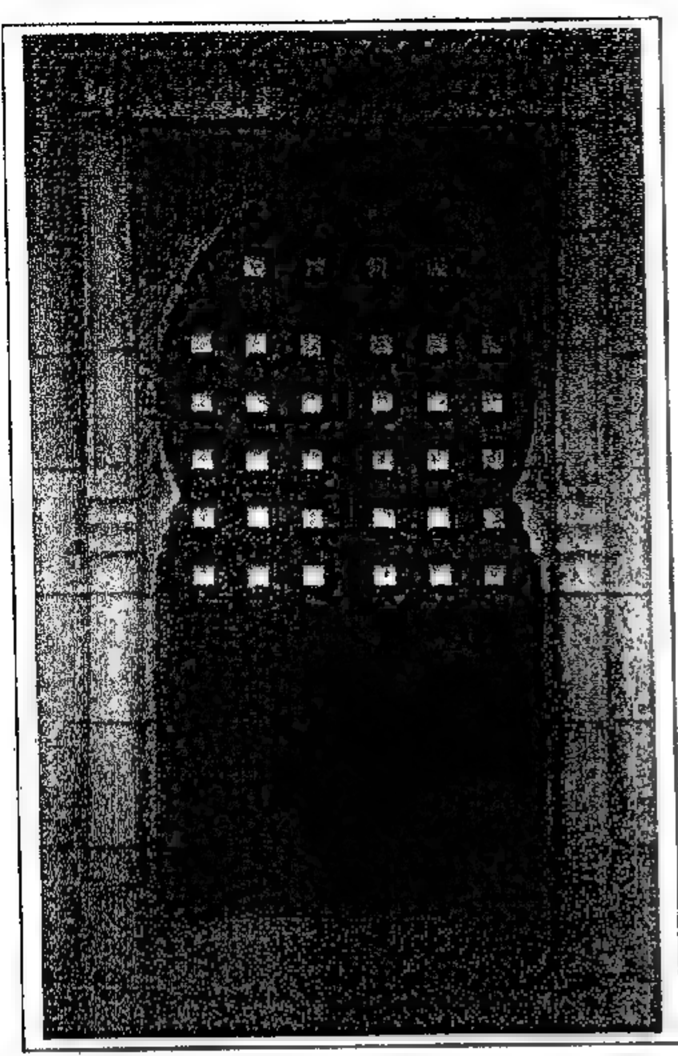
-اللوحة(6): صورة خارجية للمدرسة.



-اللوحة (7):محراب المسجد.



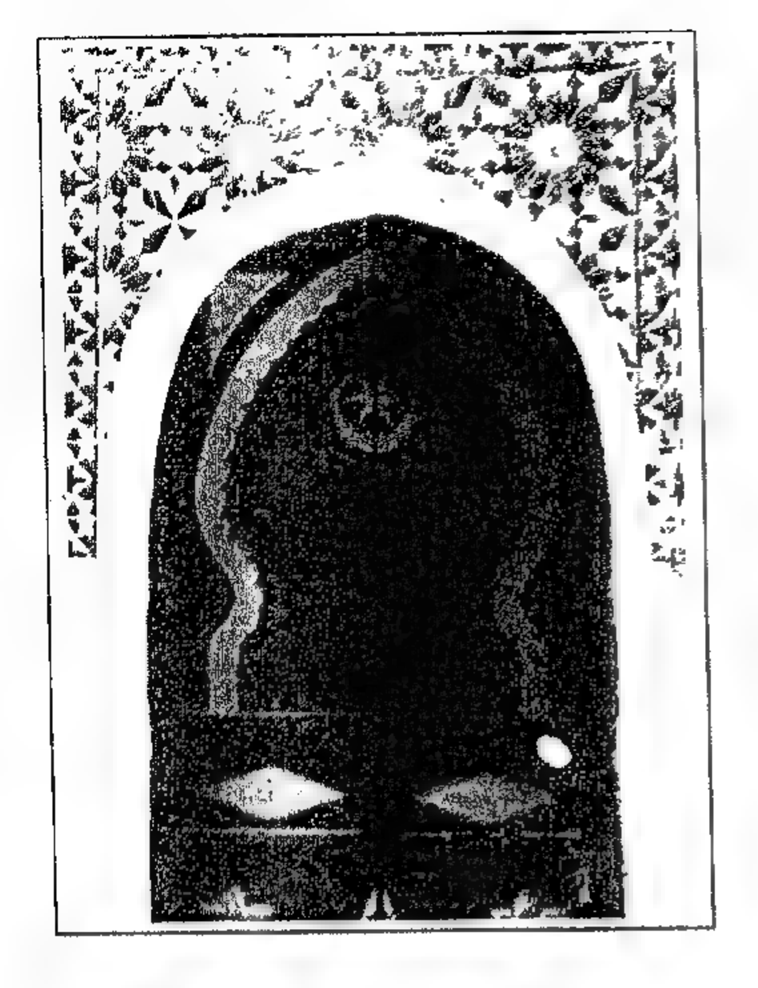
-اللوحة(8):صورة للمسج تشمل (المدخل، القباب، المئذنة).



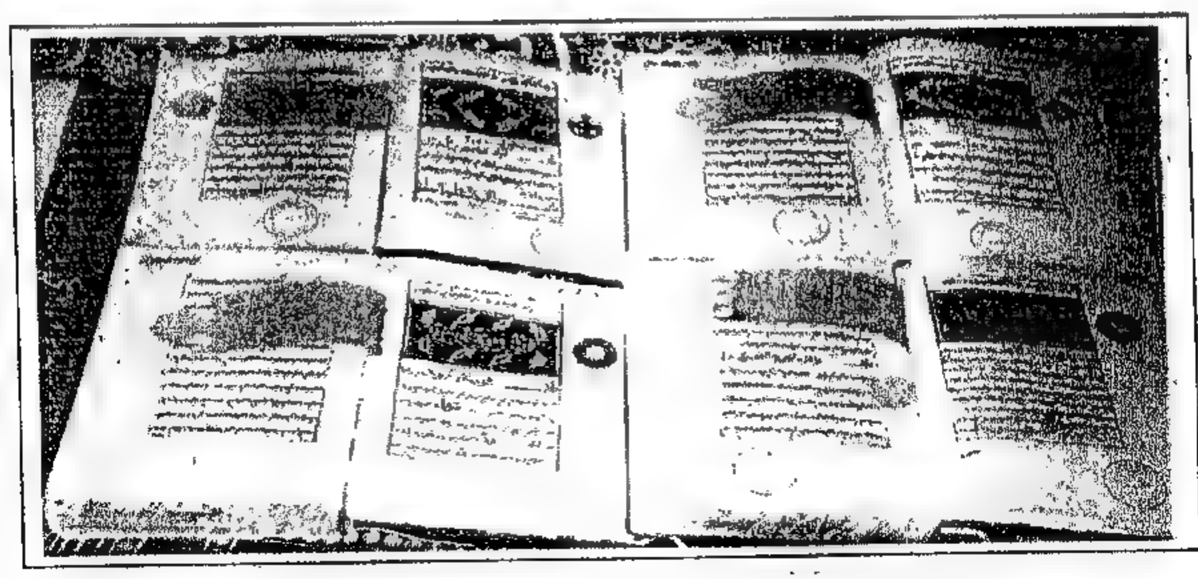
-اللوحة(9):المدخل الرئيسي للمسجد.



-اللوحة(10): كرسي المسجد.



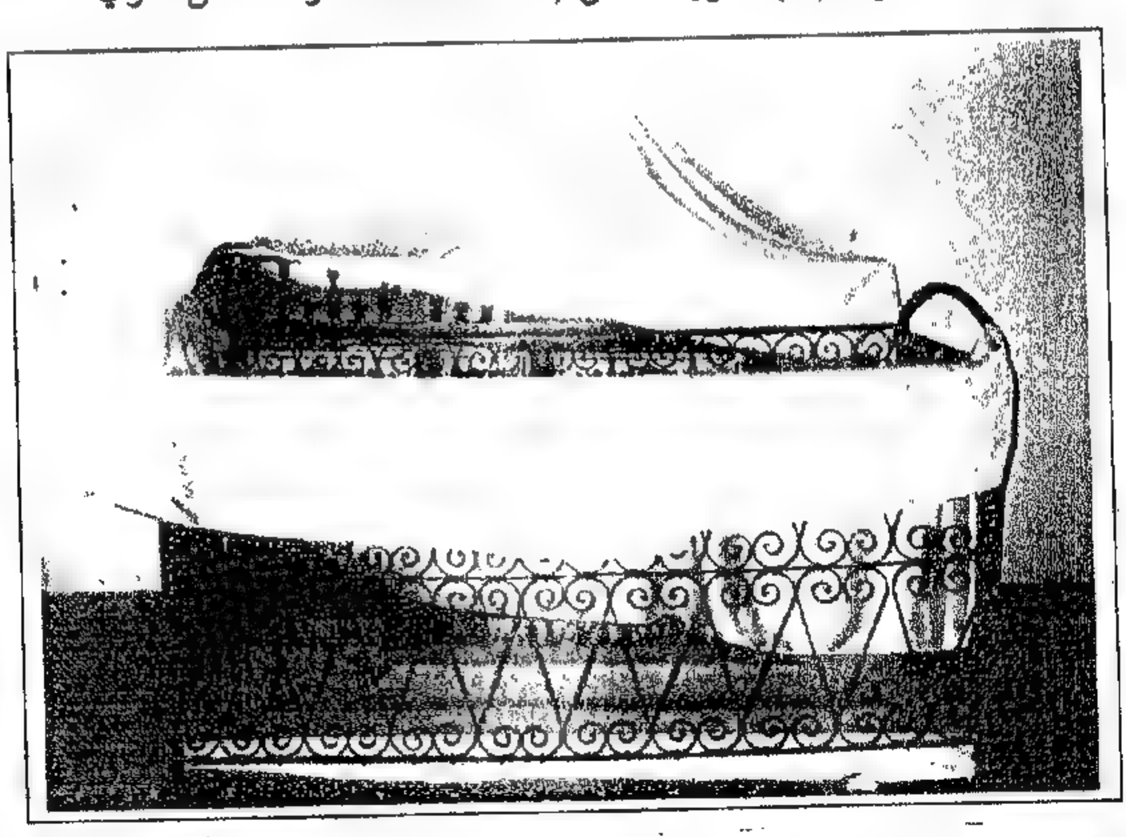
-اللوحة(11):مدخل ضريح سيدي أبي راس الماروني.



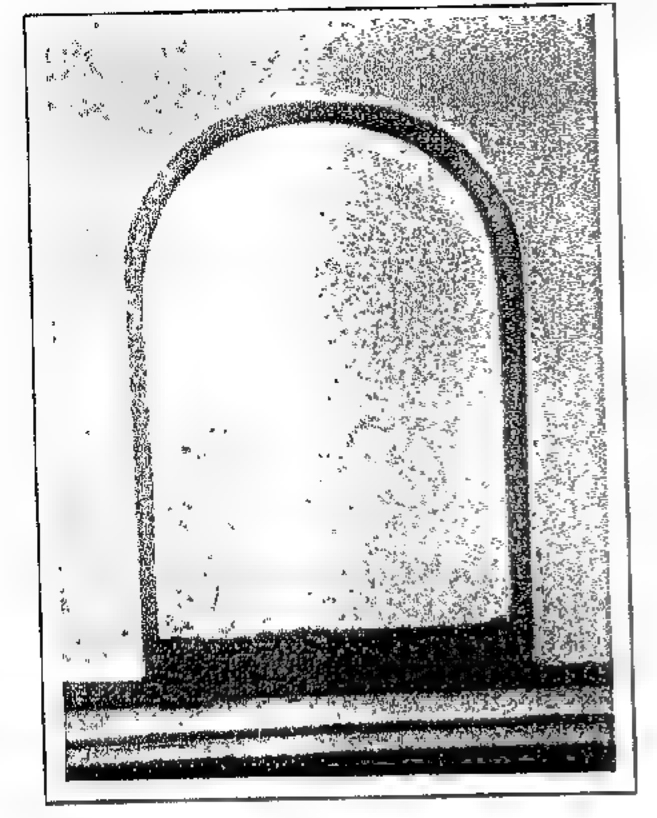
-اللوحة(12):صورة لأجزاء من صحيح البخاري في مكتبة المدرسة-مخطوطات.



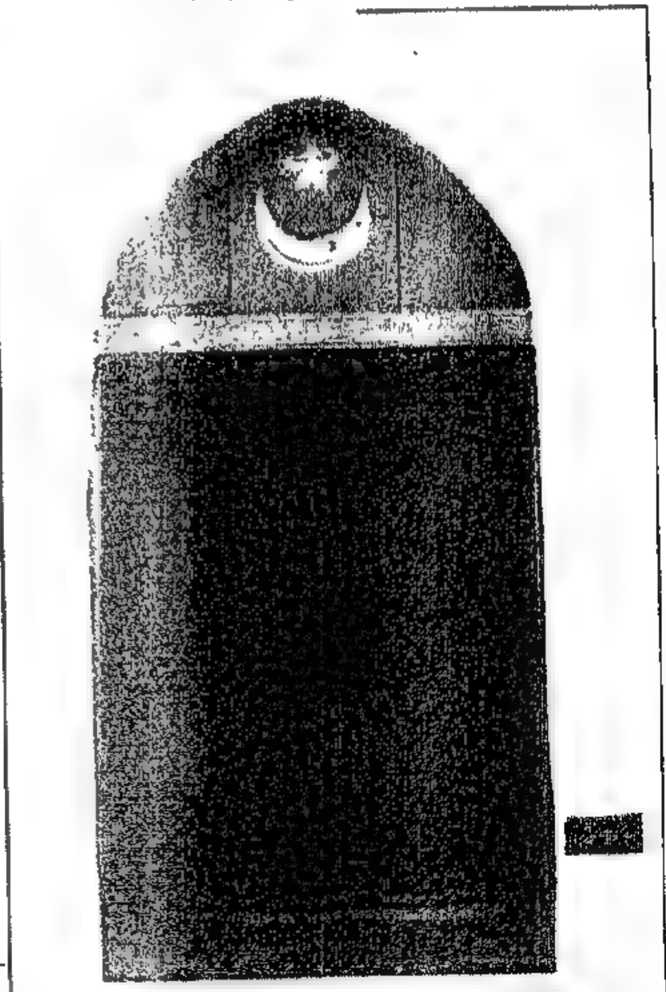
-اللوحة(13):صورة تشمل (أعمدة،تيجان،عقود،مدخل ثانوي للمسجد).



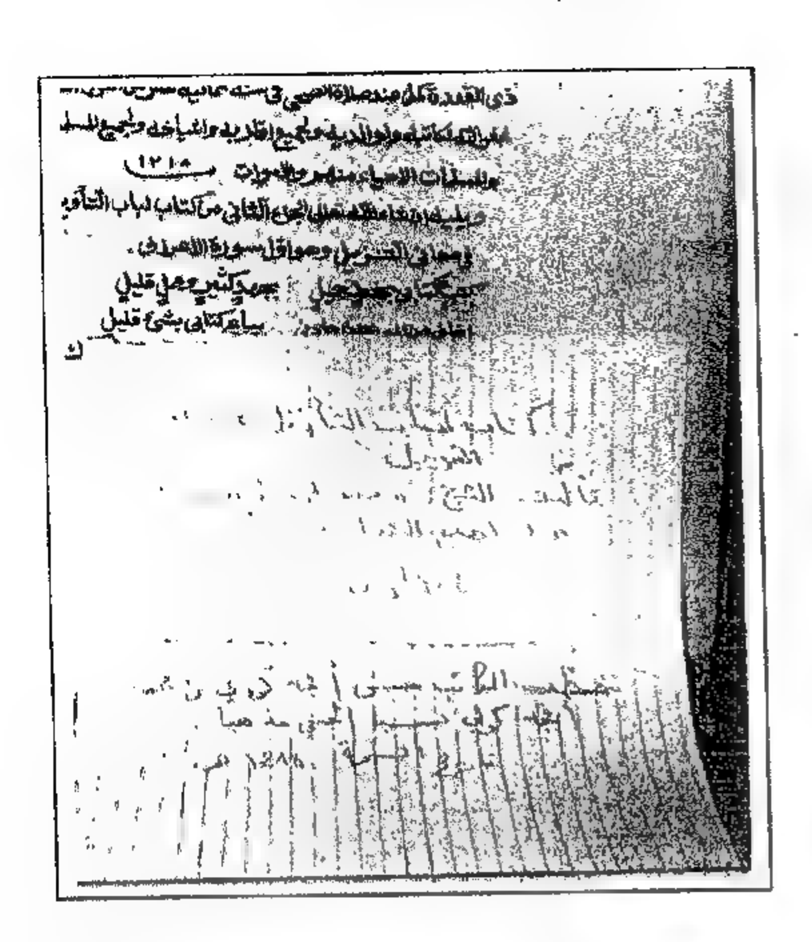
-اللوحة(14):ضريح سيدي محمد بن الشارف-مؤسس المدرسة.



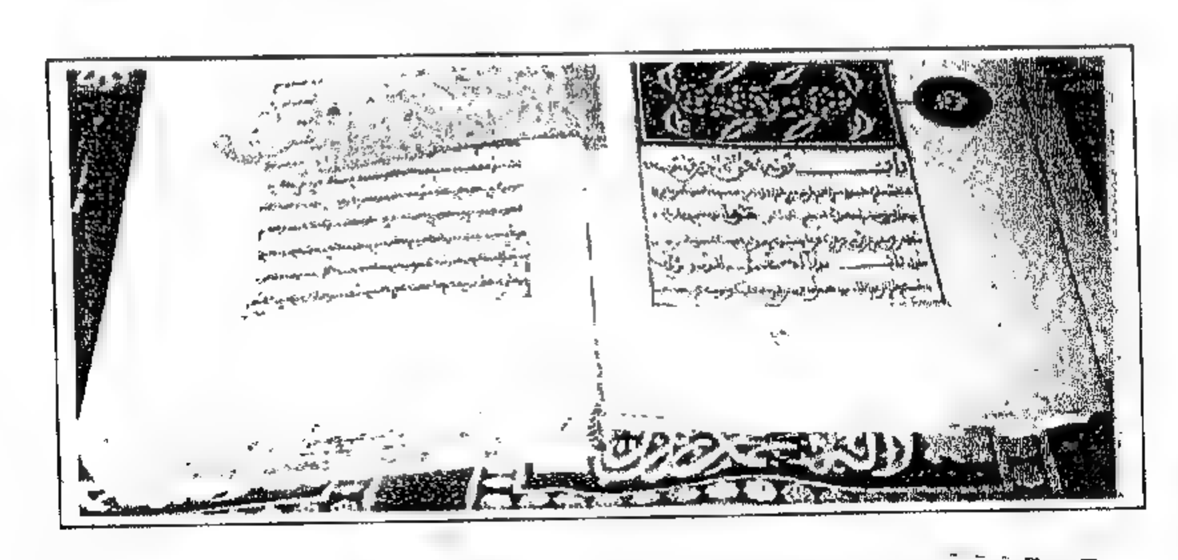
-اللوحة(15):شبه محراب داخل غرفة ضريح سيدي أبي طالب.



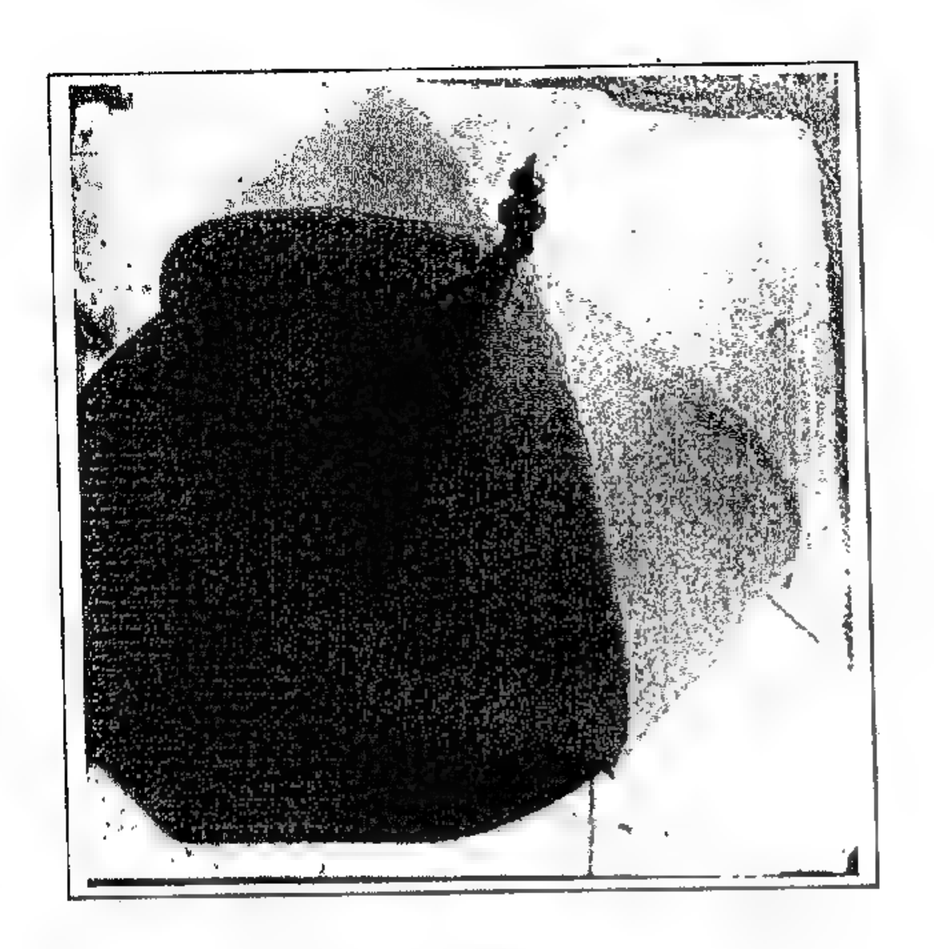
-اللوحة(16):مدخل ضريح سيدي محمد بن نشارف



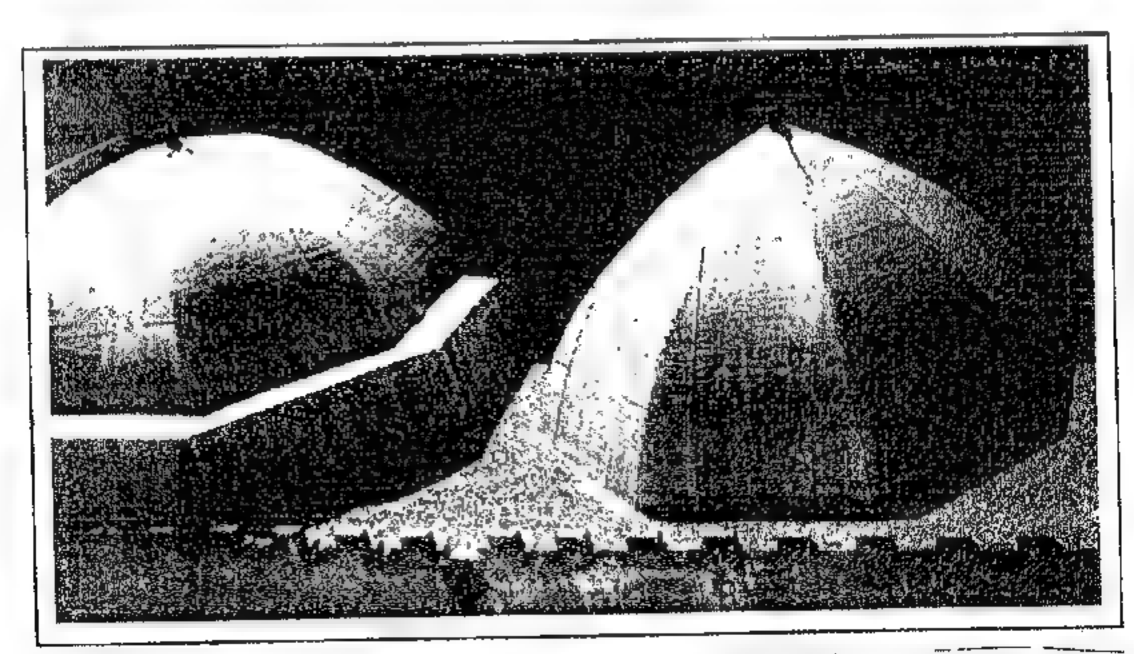
-اللوحة(17):صورة لكتاب لُبَاب التأويل في معاني التنزيل-مخطوط.



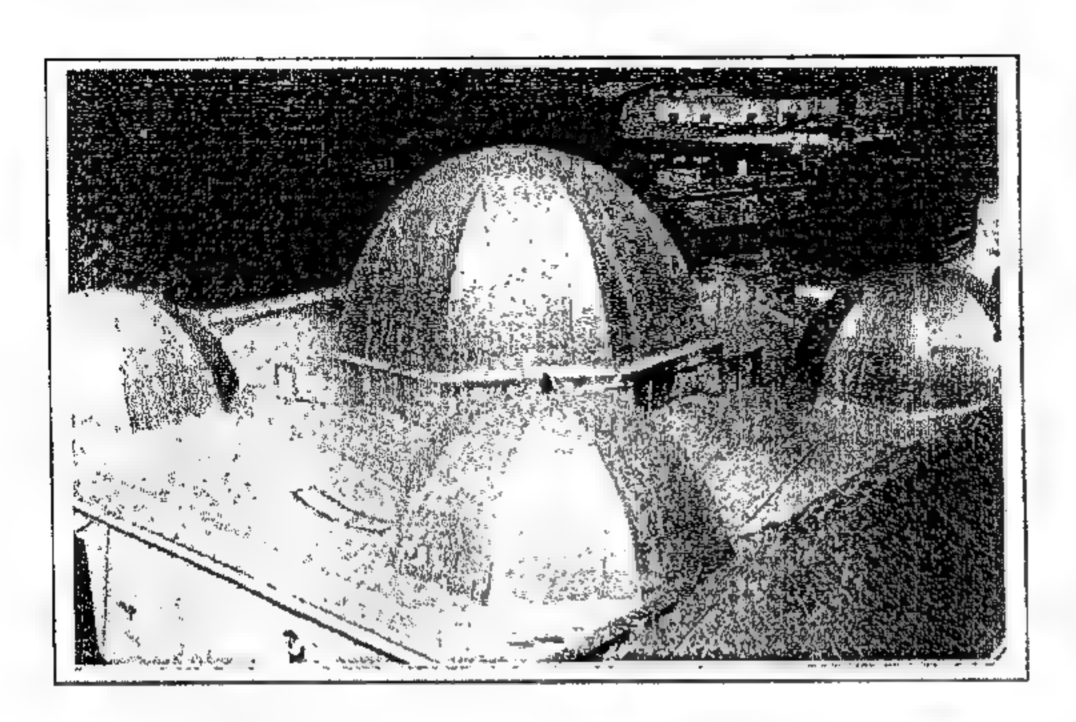
-اللوحة(18):صورة لجزء من كتاب صحيح البخاري-مخطوط.



-اللوحة(19):صورة لقبة ضريح سيدي أبي راس المازوني.



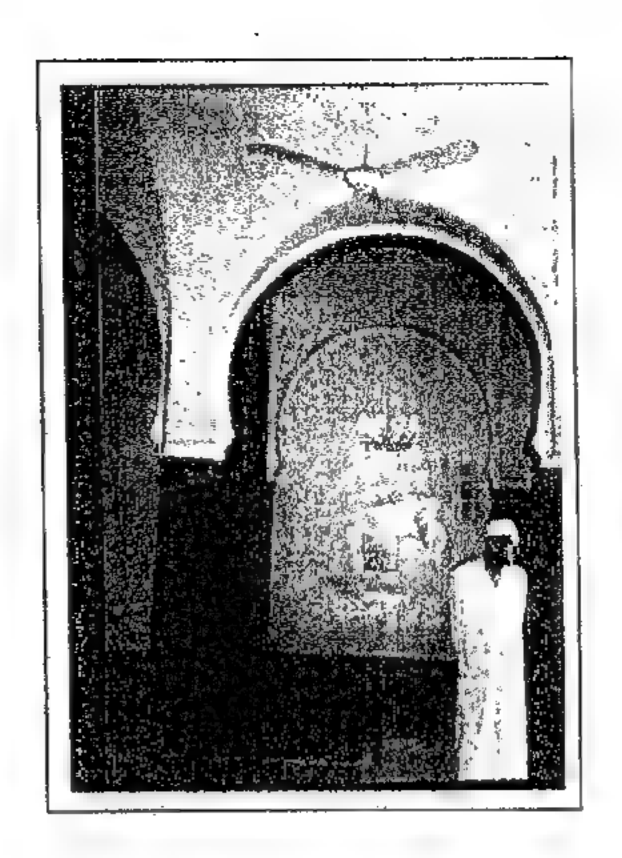
-اللوحة(20):صورة تشمل قبتي (ضريح سيدي محمد بن الشارف،ضريح سيدي أبي طالب).



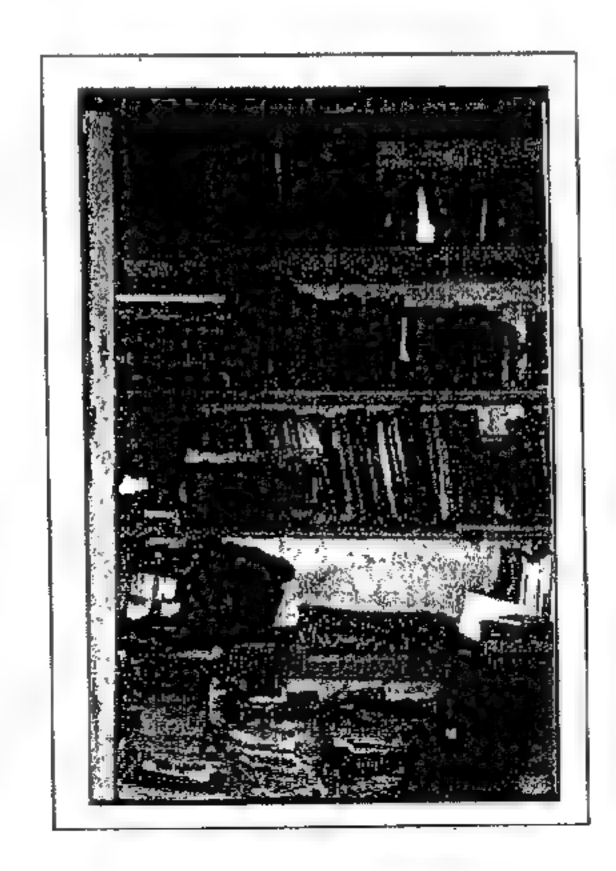
-اللوحة(21):صورة تشمل أربعة قباب لمسجد المدرسة.



-اللوحة(22):ضريح الشيخ محمد الصغير بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن.



-اللوحة(23):صورة تشمل (الأعمدة، التيجان، العقود).



-اللوحة(24):صورة لخزانةالمخطوطات في مكتبة المدرسة.

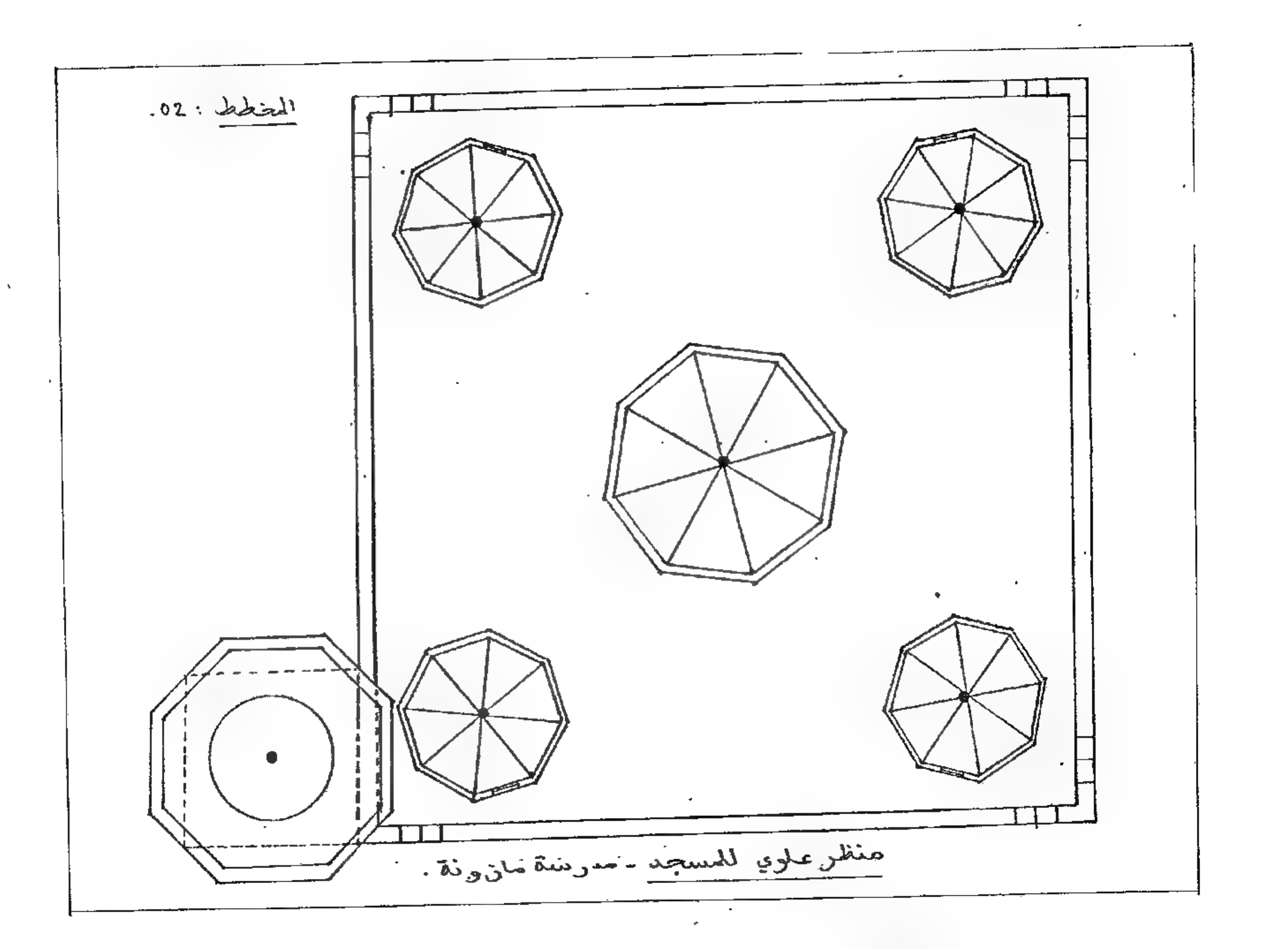


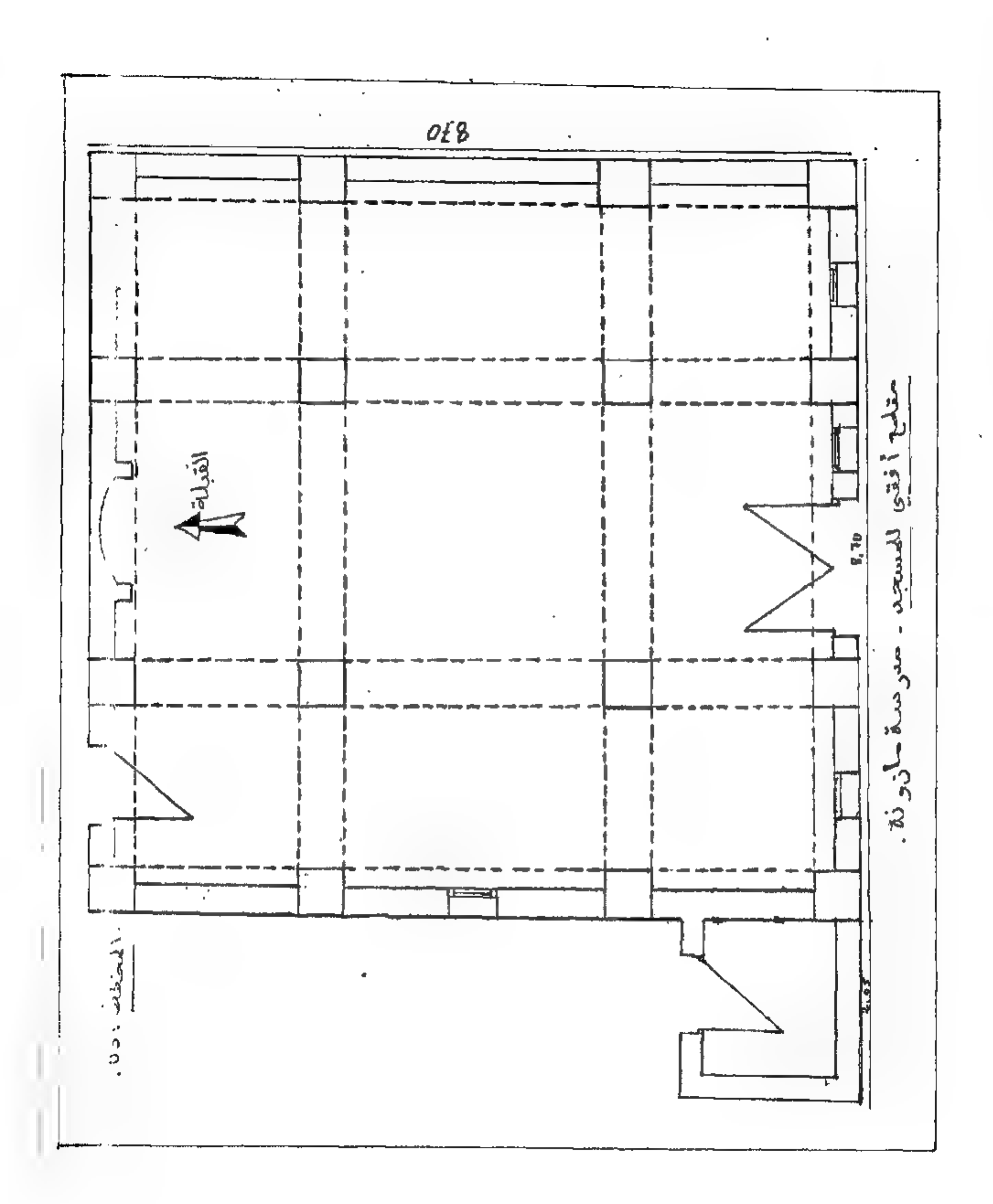
-اللوحة(25):صورة للغرف الأربعة للطلبة.

ملحق المخطّطات

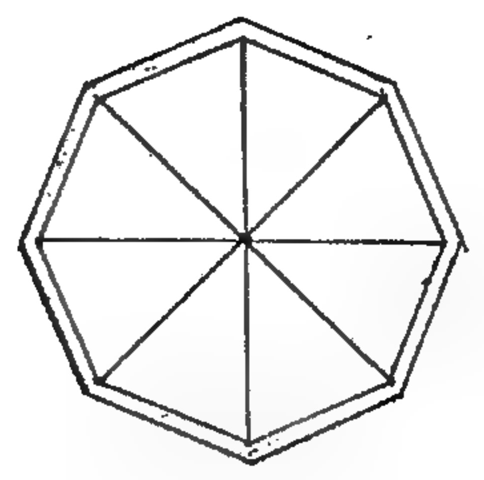
المخطط، 01

رسم تخطيطي لمدرسة مازونة

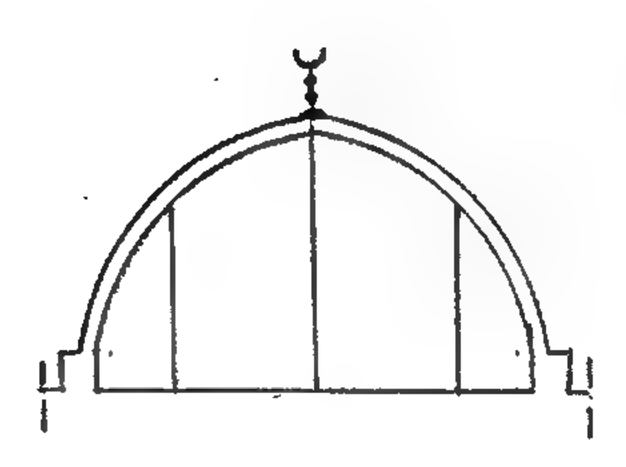

المخطط : 02.
منظر علوي للمسجد - مدرسة مازونة.


مقطع أفقي للمسجد - مدرسة مازونة.
القبلة

المخطط ، 04 .

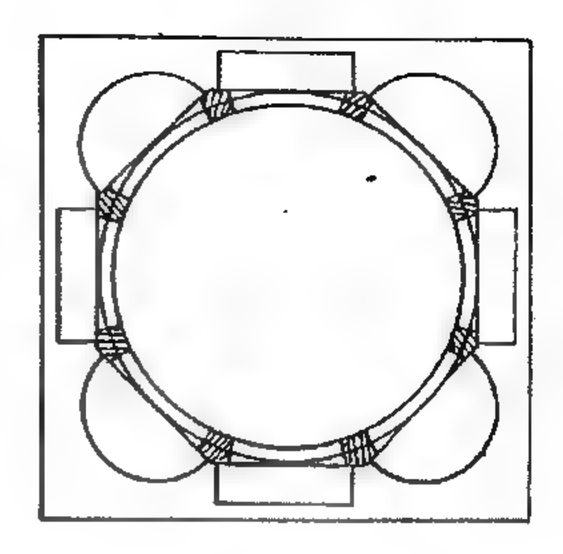


-المخطط الرابع: الشكل الأول :منظر علوّي للقبة المركزية.

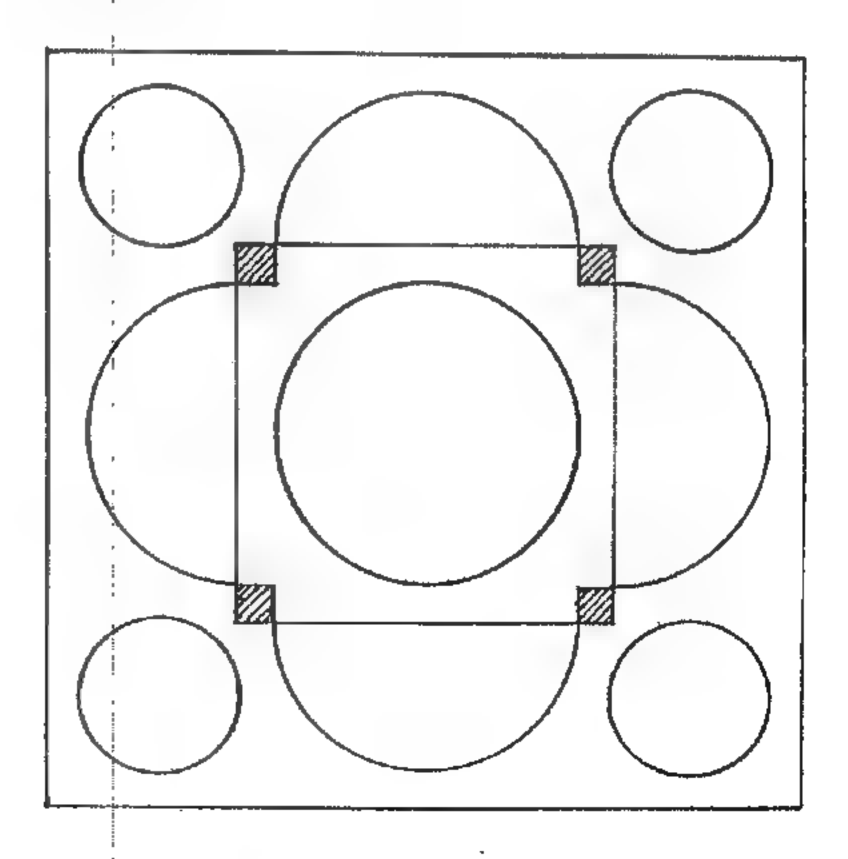


الشكل الثاني: مقطع عرضَي للقبة المركزية.

المخطط: 05.

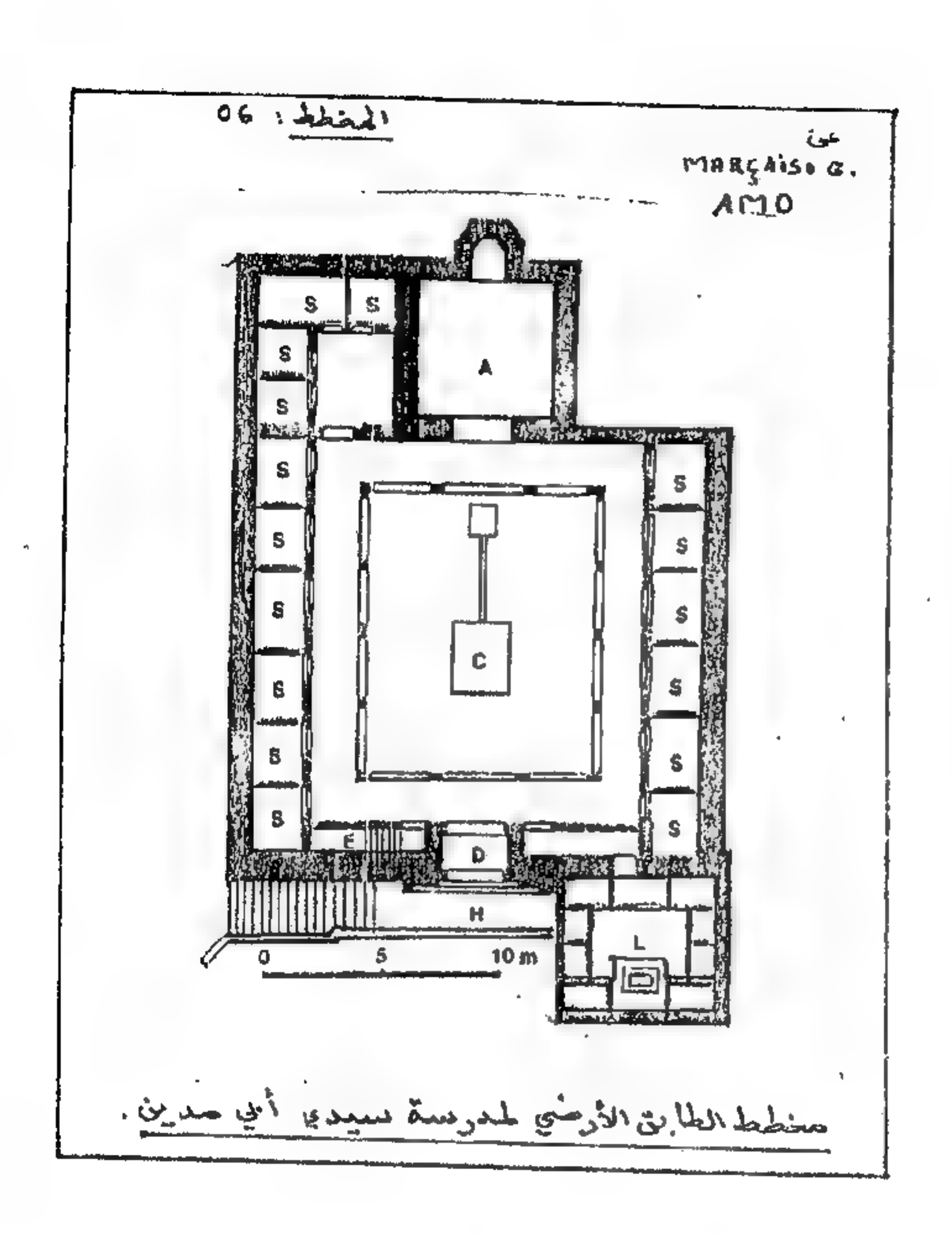


-المخطط الخامس: الشكل الأول: مسقط أفقي لجامع سليم بأدرنة.

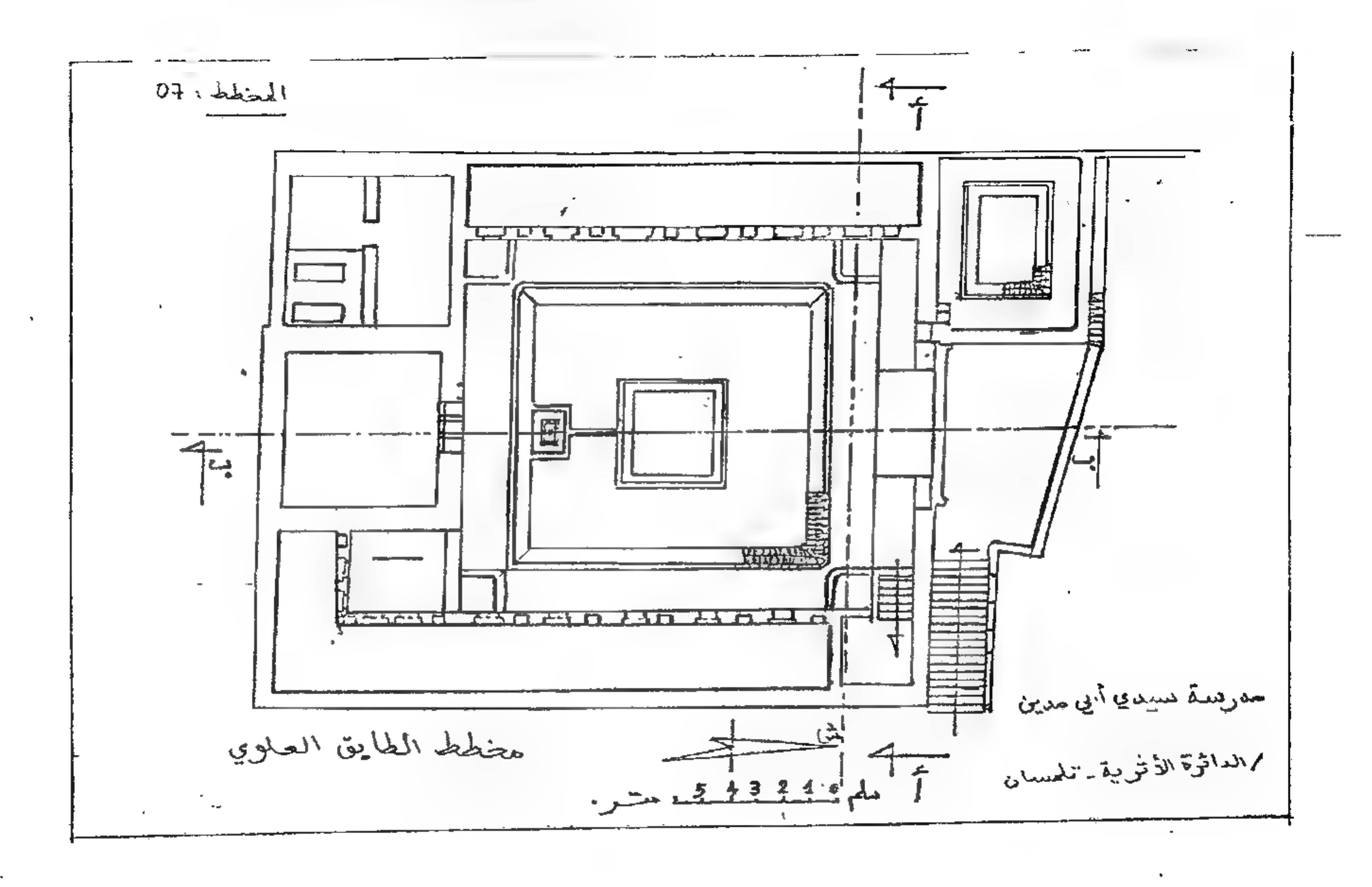


الشكل الثاني: مسقط أفقي لتصميم بيزنطي تقليدي.

المخطط : 06

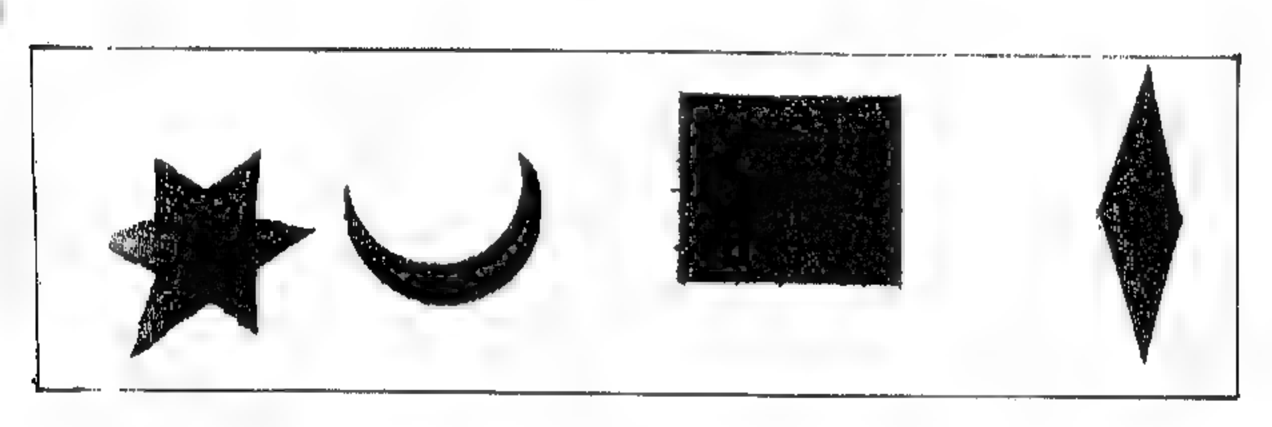


مخطط الطابق الأرضي لمدرسة سيدي أبي مدين.


المخطط : 07
مدرسة سيدي أبي مدين
/ الدائرة الأثرية - تلمسان
مخطط الطابق العلوي
سلم 0 1 2 3 4 5 متر

ملحق الأشكال

-الشكل الأول: أوراق نباتية محورة.



-الشكل الثاني: أشكال هندسية متنوعة.

وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ.

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ.

-الشكل الثالث: آيات قرآنية بالخط المغربي الأندلسي.

ملحق الوثائق

الشجرة الشريفة لعائلة هني بمازونة

هو العلامة و المجاهد و الشهيد المرحوم سيدي هني بن محمد بو طالب بن علي بن عبد الرحمن بن محمد بن شارف بن أحمد بن علي ين عبد العزيز بن علي بن منصـور بـن محمد بن أعمر البلداوي نسبا إلى جماعة العيديون الساكنون بزاء الحفص ومنهم بنو أجران في وجدة بالمغرب الأقصى وجدهم إسمه محمد بن عبد الله بـن موسـى بـن مسعود بن الحسن بن سليمان بن براهيم بن عيسى بن محمد بن أحمد بن ادريس بن ادريس بـن عبد الله بن الحسنين بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وابن فاطمة بنت محمد رسول الله صلى اله عليه وسلم.

نقلت هذه الشجرة من كتاب الاصل

الوثيقة الأولى : الشجرة الشريفة لعائلة هني بمازونة.

Lettre du Bey Otmane – 1212 de l'hégire soit 1795

Le savant Si Mohammed ben El Mahdi Mufti de Mazouna

1

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه وسلم

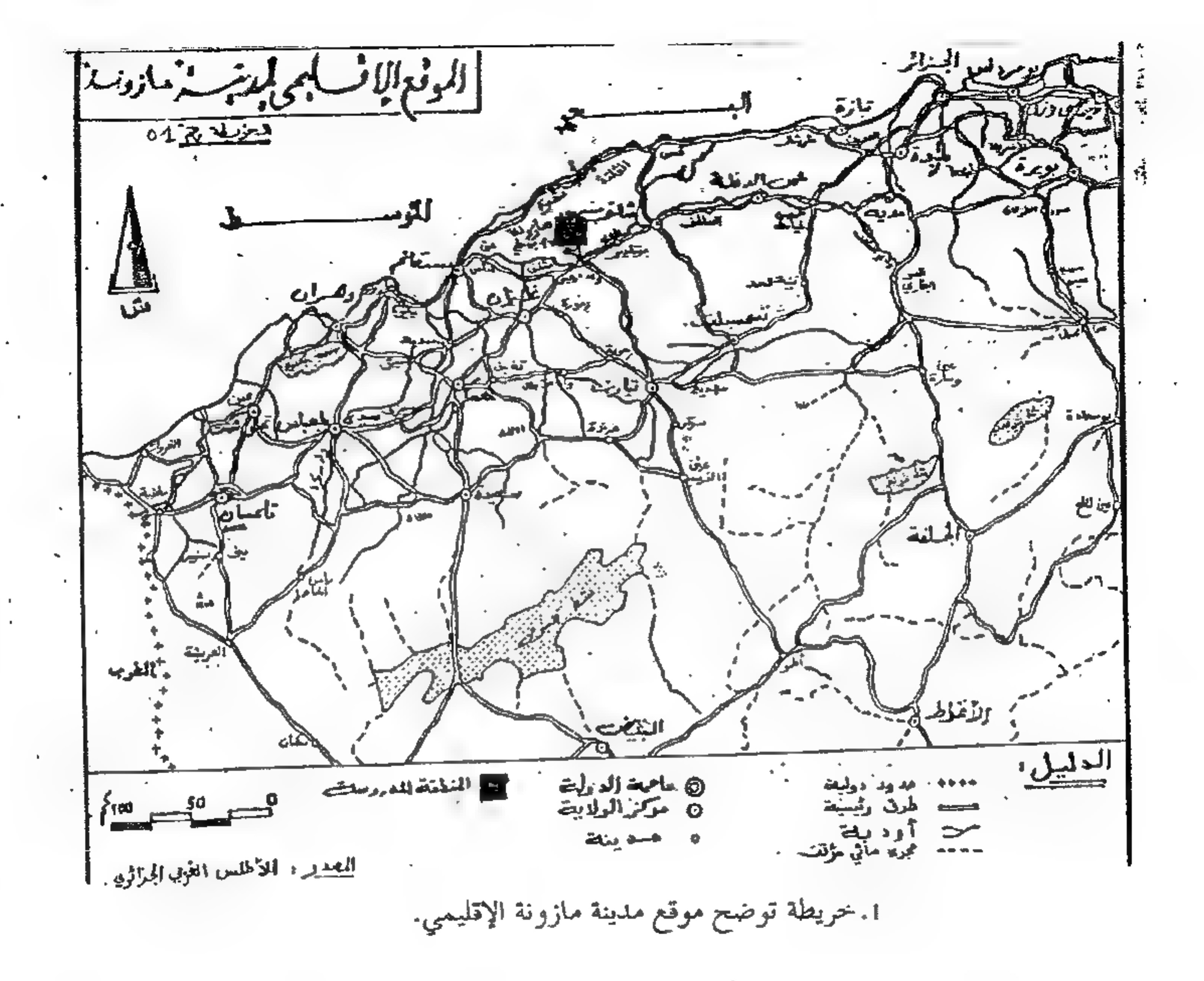
[illegible]

الوثيقة الثانية: رسالة من الباي عثمان 1795 إلى العالم سي محمد بن المهدي موليا إياه الإفتاء.

تقرير الأمير عبد القادر
شهر صفر سنة 1250 هجرية
1834 ميلادية
تجديد التقرير والوظائف الدينية

الوثيقة الثالثة:تقرير الأمير عبد القادر يحدد من خلالها الوظائف الدينية في مازونة.

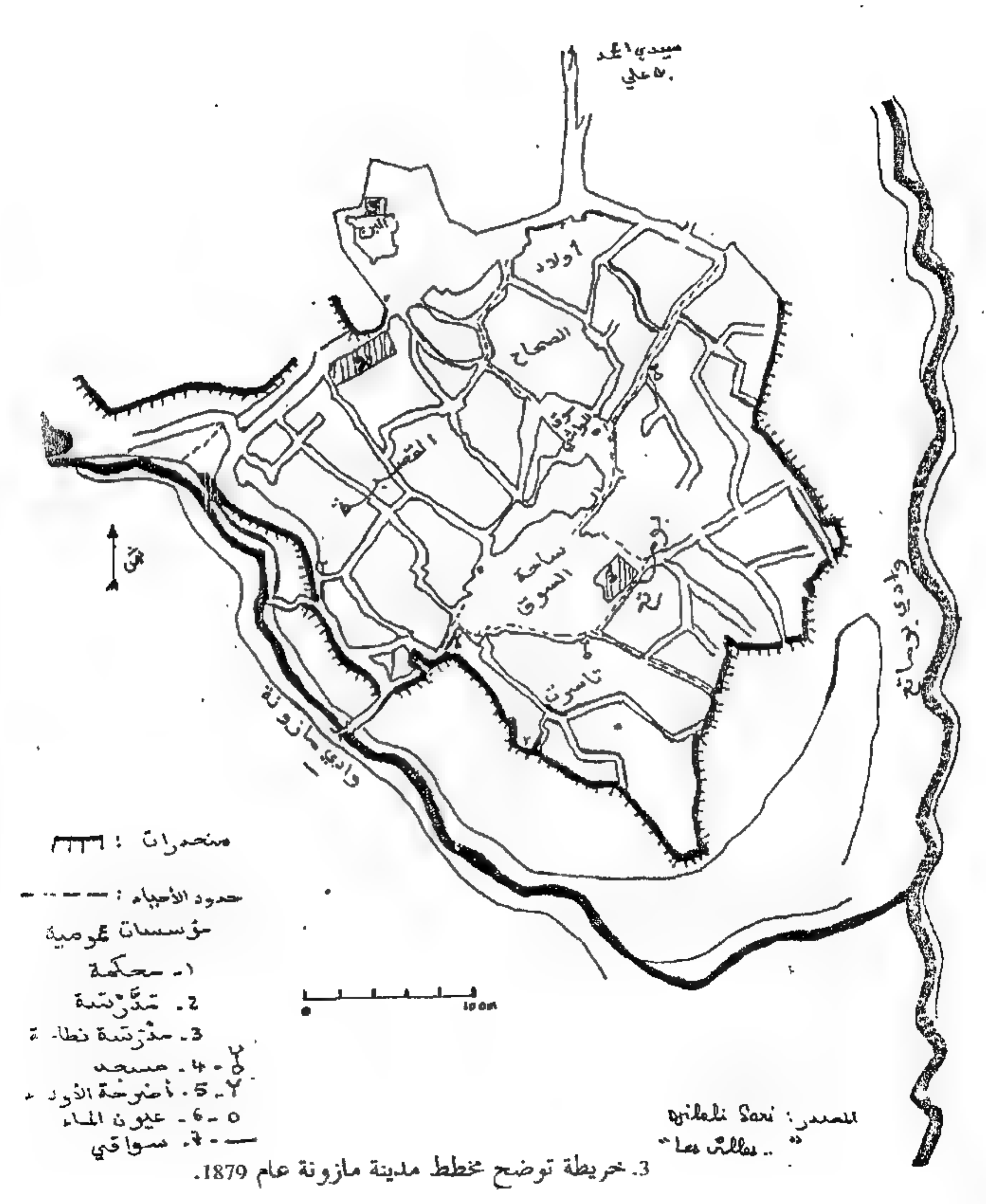
ملحق الخرائط



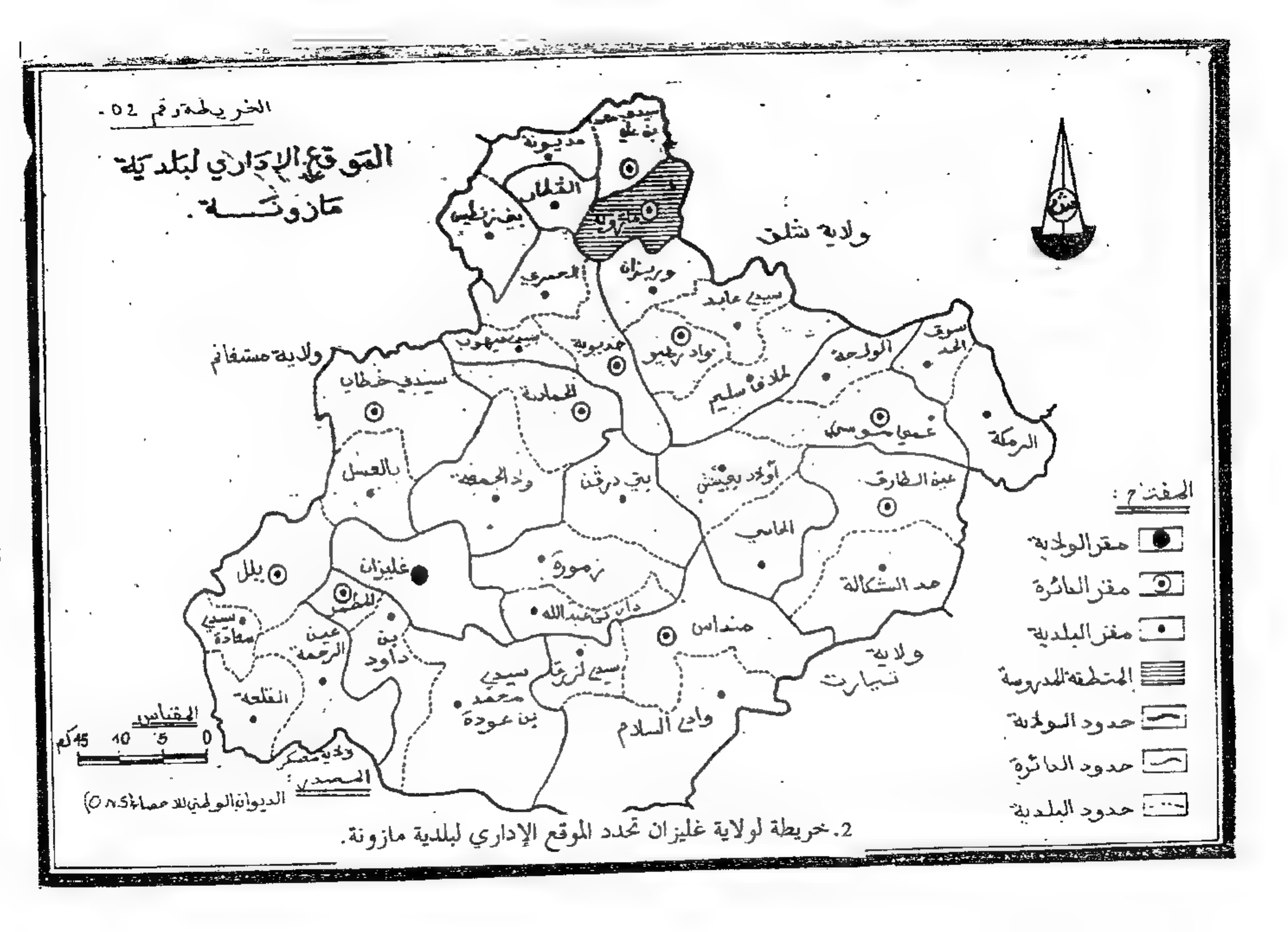
١. خريطة توضح موقع مدينة مازونة الإقليمي.

مخطط مدينة مازونة عام 1879.

الخريطة رقم (03).

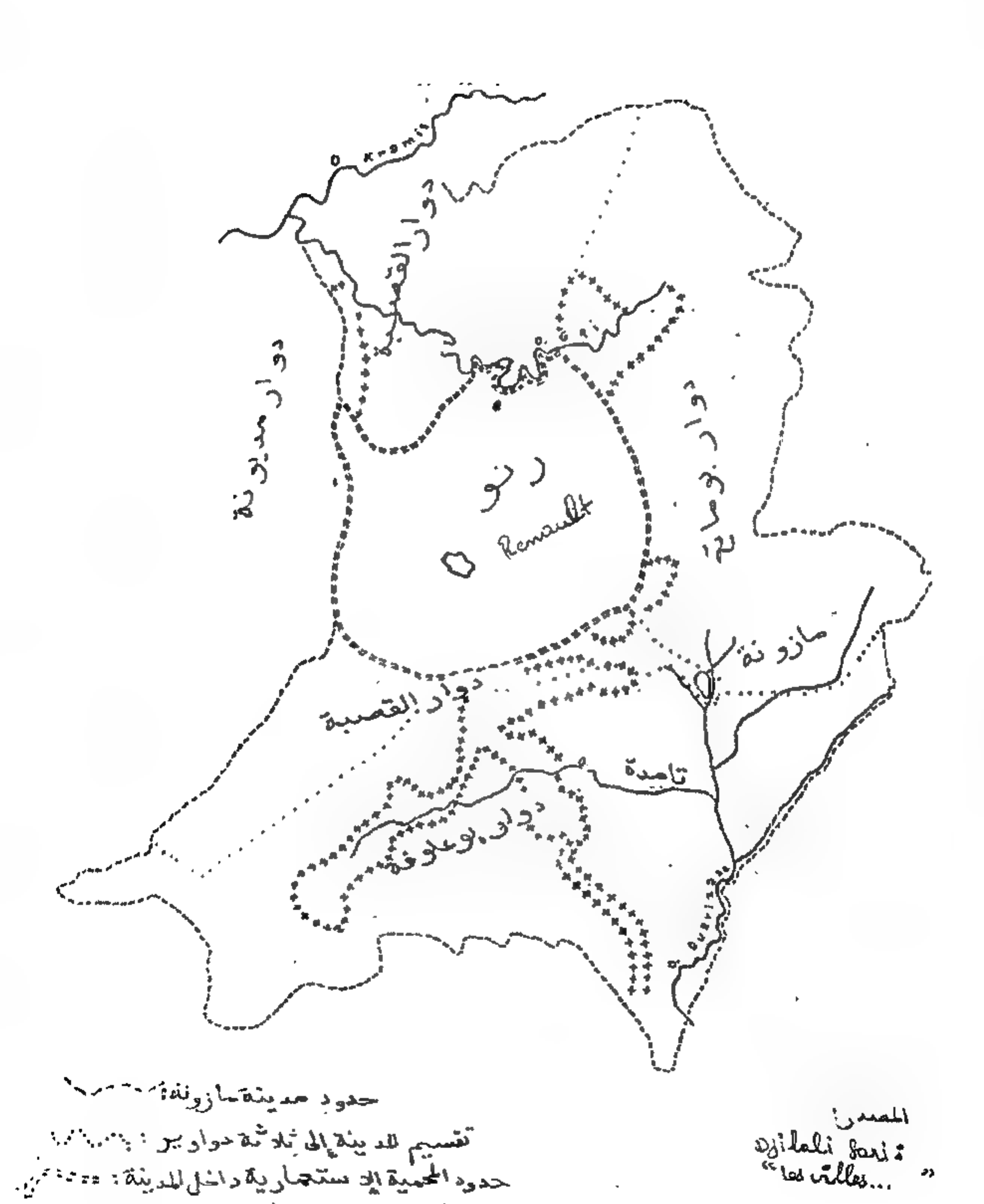


3. خريطة توضح مخطط مدينة مازونة عام 1879.



2. خريطة لولاية غليزان تحدد الموقع الإداري لبلدية مازونة.

4. خريطة توضح التوسع الإستعماري بمدينة مازونة.



ملحق المخطوطات

ربع

حكيما لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة
يشهدون وكفى بالله شهيدا إن الذين كفروا وصدوا عن
سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا إن الذين كفروا وظلموا لم
يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا إلا طريق جهنم خالدين
فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا يا أيها الناس قد جاءكم الرسول
بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم وإن تكفروا فإن لله ما في
السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما يا أهل الكتاب لا تغلوا
في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن
مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا
بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله
واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض
وكفى بالله وكيلا لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا
الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم
إليه جميعا فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم
ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم
عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا يا أيها
الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا
فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة
منه وفضل ويهديهم إليه صراطا مستقيما يستفتونك قل الله
يفتيكم في الكلالة إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها
نصف ما ترك وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فإن كانتا اثنتين
فلهما الثلثان مما ترك وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر
مثل حظ الأنثيين يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام
إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم
ما يريد يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر
الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون

فضلا

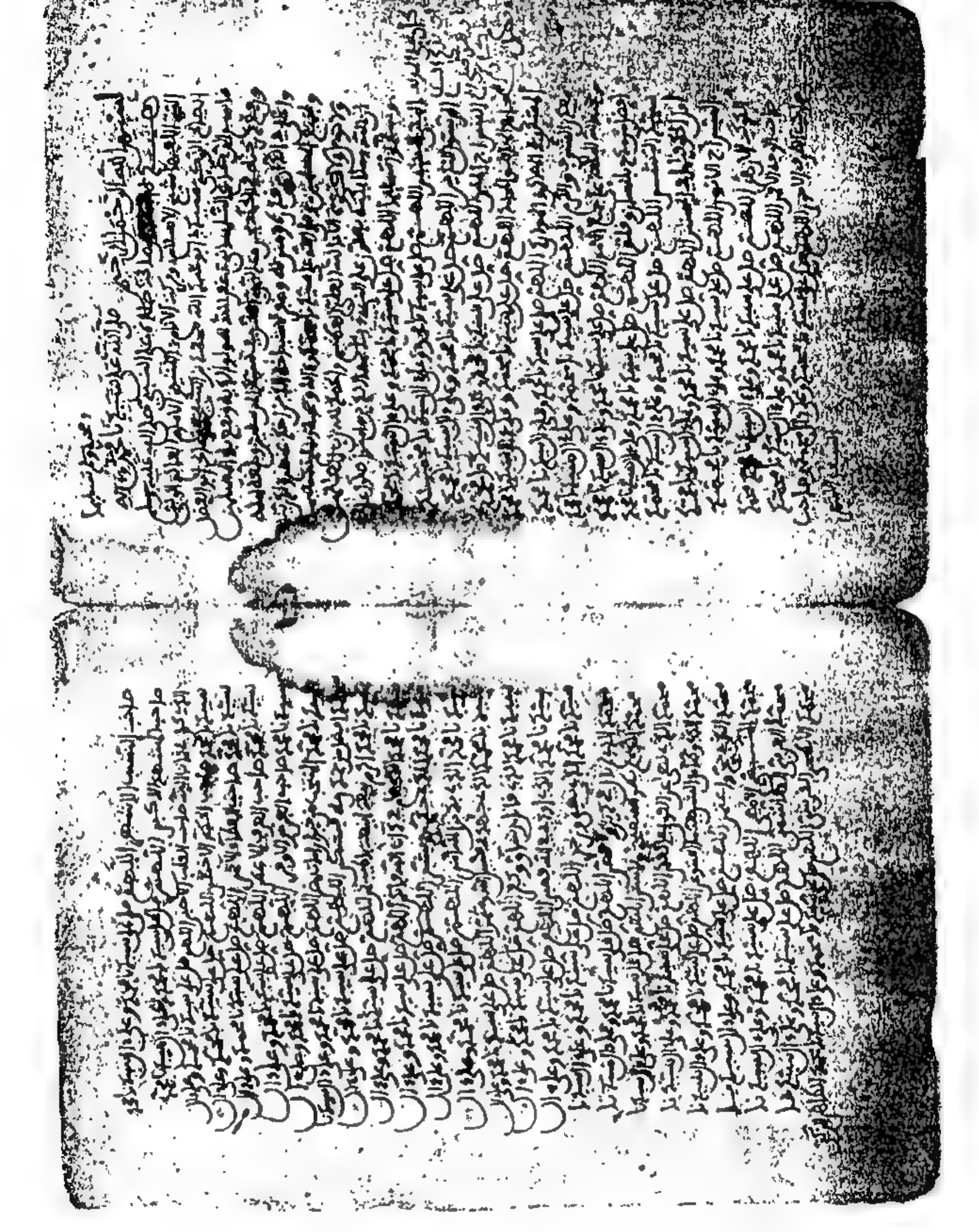
-المخطوط الأول: مصحف مخطوط برواية ورش عن نافع.



المخطوط الثاني: كتاب الوعظ والأدب والحكايات والأمثال، لمعمر ...

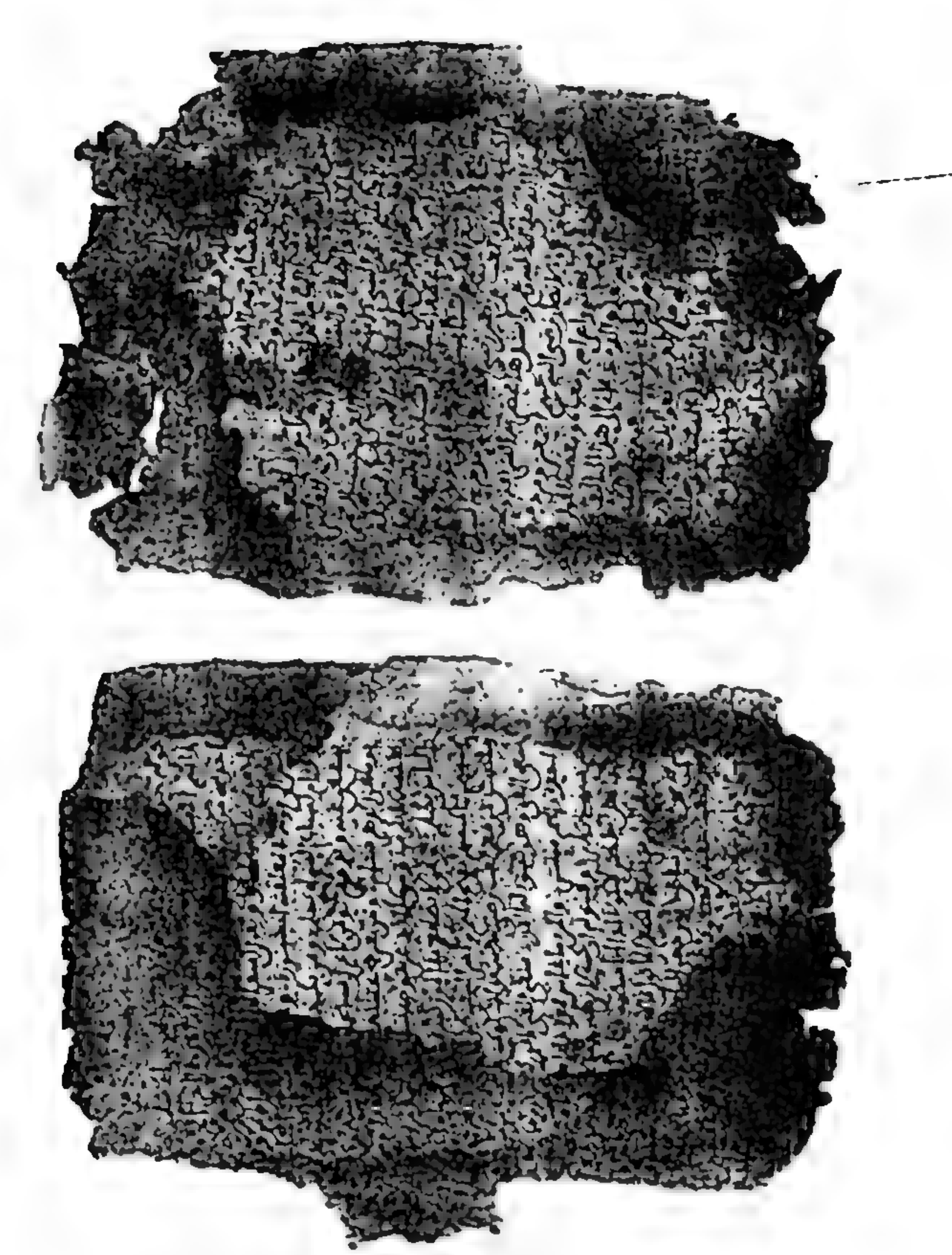


-المخطوط الثالث: كتاب في سيرة الصالحين، لمجهول



-المخطوط الرابع: كتاب في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

للشيخ أبي عبد الله محمد أبو الفضل قاسم الرصاع التلمساني



-المخطوط الخامس: كتاب في شرح وإعراب لقصيدة كعب بن زهير، لمؤلفه، عبد الله بن يوسف بن هشام.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام

على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وبعد

فالعوامل في النحو على ما ألفه الشيخ الفاضل

عبد القاهر بن عبد الرحمن أبو محمد الجرجاني

رحمه الله مائة عامل لفظية ومعنوية

فاللفظية منها على ضربين سماعية وقياسية

فالسماعية منها أحد وتسعون عاملا والقياسية

سبعة عوامل والمعنوية منها عددان

فالسماعية

فالسماعية منها تتنوع على ثلاثة عشر نوعا

النوع الأول

حروف تجر الاسم فقط وهي سبعة عشر حرفا أحدها

الباء من حروف الجر ولها معان أحدها الإلصاق نحو

مررت بزيد أي التصق مروري بموضع يقرب منه زيد

والثاني للاستعانة نحو كتبت بالقلم أي استعنت في

الكتابة بالقلم والثالث المصاحبة نحو خرج زيد

بعشيرته أي خرج زيد بصحبة عشيرته والرابع

المقابلة نحو بعت هذا بهذا والخامس التعدية

أي قابلت هذا بهذا

وا وباء تاء كاف لام رب
منذ مذ وعلى حتى إلى خاشا
عن في من خلا حتى

-المخطوط السادس: كتاب العوامل في النحو. لعبد القاهر الجرجاني.

قائمة البيبليوغرافيا

قائمة البيبليوغرافيا

*القرآن الكريم برواية ورش عن نافع

I-المصادر

1-المخطوطات

-أبوعبد الله محمد بن الشيخ الصالح أبو الفضل قاسم الرصاع التلمساني ،كتاب في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ،غير محقق.

-عبد الجليل القيرواني، تنبيه الأنام في بيان علومقام نبينا محمدعليه الصلاة والسلام، غير محقق.

– عبد الله بن يوسف بن هشام ، شرح واعراب القصيدة كعب بن زهير ، غير محقق.

– عبدالقاهر الجرجاني ، العوامل في النحو ، غير محقق.

– مجهول ، ألفية بن مالك بشرح الماكودي ، غير محقق.

– مجهول ،كتاب في سيرة الصالحين ، غير محقق.

– مجهول ،كتاب الوعظ والأدب والحكايات والأمثال ، غير محقق.

2-الكتب :

-ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس نشر C-J- Iornbergub Salire ،1843

-ابن أبي الضياف (أحمد) ،إتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس وعهد الأمان ،ج2، ط2 ، الدار التونسية للنشر ،تونس 1977.

-ابن خلدون(عبد الرحمن)، المقدمة ،تاريخ *العلامة* ابن خلدون ،ج2 ،الدار التونسية للنشر ، تونس 1984.

-ابن خلدون (عبد الرحمن)،كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربرومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ،ج7 ،منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات ،بيروت، لبنان 1971.

-ابن مرزوق التلمساني (محمد)، المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريا خيسوس بغيرا ،الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر1981.

ابن مريم ، البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، ط1 ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر1986.

- أبو راس الجزائري (محمد)، فتح الإله و منته في التحدث بفضل ربي و نعمته ،"حياة أبي راس الذاتية و العلمية " ، تحقيق و تعليق محمد بن عبد الكريم ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر1990.

- الإدريسي (محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس) ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، المجلد الأول ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر1994.

- بن ميمون الجزائري (محمد)، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية ، تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم ، ط2، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، (ب، ت).

- بن عودة (المزاري)، طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و إسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر ، تحقيق و دراسة ، يحيى بوعزيز ، ج1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1990.

- الزياني (محمد بن يوسف) ، دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران تقديم و تحقيق المهدي البوعبدلي ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر1978.

- المقريزي (تقي الدين أحمد) ، المواعظ و الإعتبار بذكر الخطط و الآثار ،ط1 ، دار الطباعة المصرية ، بولاق ، القاهرة 1270 ه.

- الوزان (الحسن بن محمد الفاسي) ، وصف إفريقيا ، ترجمة عن الفرنسية ، محمد حجي و محمد الأخضر ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1983.

II- قائمة المراجع .

1- المراجع باللغة العربية.

1-1 . الكتب :

- إبراهيم حسن (حسن) ، تاريخ الاسلام ، ج3، ط1 ، القاهرة 1968.

- إبراهيم عمار (قلدور) ، زاوية سيدي محمد بن عمر- تاريخها و نشأتها- ط1 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، وهران1997.

- أحمد الشامي (صالح) ، الفن الإسلامي إلتزام و ابتداع ، ط1 ، دار القلم 1990.

- الألفي (أبوصالح) ، الفن الإسلامي - أصوله ، فلسفته ، مدارسه - دار المعارف ، مصر (ب،ت).
- أندري جوليان (شارل) ، تاريخ إفريقيا الشمالية ، ترجمة ، محمد مزالي والبشير بن سلامة ، ج2، ط2 ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1978.
- بروكلمان (كارل)، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة ، أمين بنيه و منير البعلبكي ، ط1 ،دار العربية للملايين ، بيروت 1988.
- بلحميسي (مولاي) ، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني ، ط2 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1981.
- بن عبد القادر بن علي (عبد الملك) ، الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية الحاكمة بليبيا ، ج1 و ج2 ، ط1 ، مطبعة دار الجزائر العربية ، دمشق 1966.
- بن عمرو الطمار (محمد) ، تلمسان عبر العصور ، دورها في سياسة و حضارة الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984.
- بن عيسى المستغانمي (عبد القادر) ، مستغانم و أحوازها عبر العصور، تاريخيا و ثقافيا و فنيا ط1 ، الطبعة العلوية بمستغانم 1996.
- بوعزيز (يحيى)، مدن تاريخية - وهران - المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية 1985 .
- التازي (عبد الهادي) ، جامع القرويين ، المسجد و الجامعة بمدينة فاس ، مج2 ، ط1 دار الكتاب اللبناني 1973.
- الجيلالي (عبد الرحمان) ، تاريخ الجزائر العام ، ج2 وج3، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1982.
- حاج صادق (محمد) ، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق للإدريسي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1983.
- حاجيات (عبد الحميد)، أبو حمو موسى الزياني ، ط1 ، الجزائر 1974.
الحيدري (إبراهيم)، إثنولوجية الفنون التقليدية ، دراسة سوسيولوجية لفنون و صناعات فولكلور المجتمعات التقليدية ، ط1 ، دار الحوار ،سوريا 1984.
- دودو (أبو العيد) ، الجزائر في مؤلفات الرحالة الألمان ، ط1 ، الجزائر 1975.

– الرفاعي (أنور) ، تاريخ الفن عند العرب و المسلمين ، ط2 ، دار الفكر 1977.
– سعد الله (أبو القاسم) ، تاريخ الجزائر الثقافي ، 1500 – 1830 ، ج1 ، ط3 ، دار الغرب الإسلامي ، لبنان 1998.
– سعد الله (أبو القاسم) ، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث " بداية الإحتلال " ط2 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1982.
– سعيدوني (ناصر الدين) ، المهدي (بوعبدلي) ، الجزائر في التاريخ ، العهد العثماني،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1984.
– سعيدوني (ناصر الدين) ، عصر الأمير عبد القادر ، ط1 ، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، الكويت 2000.
– سعيدوني (ناصر الدين) ، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني ، 1792 – 1830 ، ط2 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1985.
– العريني السيد (الباز)، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، بيروت 1968.
– عكاشة (ثروت) ، القيم الجمالية في العمارة الإسلامية ، ط1 ، دار المعارف ، القاهرة 1981.
– عقاب الطيب (محمد) ، لمحات عن العمارة و الفنون الإسلامية في الجزائر ، ط1 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1990.
– فون مالتسان (هاينريش) ، ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا ، ترجمة ، أبو العيد دودو ، ج1 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1976.
– لعرج (عبد العزيز) ، الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1990.
– لمعي مصطفى (صالح) ، التراث المعماري الإسلامي في مصر ، ط1 ، دار النهضة العربية ، دمشق 1966.
– ماتز (آدم)، الحضارة الإسلامية ، تعريب محمد عبد الهادي أبوريدة ، ج1 ، ط1 ،دار لكتاب العربي 1971.
– محمد حسن (زكي)، فنون الإسلام ، ج3 ، دار الرائد العربي ، بيروت 1981.

- محمد الكيحلاوي (محمد)، المدارس المغربية ، دراسة أثرية معمارية ، في ، مجلة العصور ،مج6 ، ج1 ، دار المريخ للنشر ، لندن 1971.
- مرتاض (محمد) ، الخط العربي و تاريخه ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1994.
نسيب (محمد) ، زوايا العلم و القرآن بالجزائر ، ط1 ، دار الفكر ، الجزائر (ب،ت).
- نويهض (عادل) ، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر ، ط3 مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف و الترجمة و النشر ، بيروت 1983.

2-1. الأطروحات و الرسائل و المذكرات الجامعية.

أ- الأطروحات :

- بسنوسي (سيدي محمد الغوثي) ، الأصول العميقة لمعايير التناسق في العمارة الإسلامية ، أطروحة جامعية لنيل شهادة دكتوراه دولة في الثقافة الشعبية ، قسم الثقافة الشعبية ، جامعة تلمسان 2000.
- لعرج (عبد العزيز) ، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية ، أطروحة جامعية لنيل شهادة دكتوراه دولة في علم الآثار ، معهد علم الآثار ، جامعة الجزائر 1999.

ب- الرسائل :

- لقريز (العربي)، مدارس السلطان أبي الحسن علي ، مدرسة سيدي أبي مدين نموذجا دراسة أثرية فنية ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الثقافة الشعبية ، قسم الثقافة الشعبية ، جامعة تلمسان 2001.
- الواليش (فتيحة)، الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر رسالة ماجستير في التاريخ الحديث ، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر 1994.

ج- المذكرات :

- بن يلول (محمد) ، جيلالي (فتيحة)، دراسة عمرانية لمدينة عتيقة ، حالة مازونة من التكامل و الإندماج إلى الفوضى العمرانية ، مذكرة تخرج لنيل شهادة مهندس دولة في التهيئة العمرانية ، قسم الجغرافية و التهيئة العمرانية ،جامعة وهران 1998.
- خرباش (إبراهيم) ، مونوغرافية حول أرشيف مازونة ، مذكرة ليسانس في علم المكتبات و العلوم الوثائقية ، معهد علم المكتبات و العلوم الوثائقية ،جامعة وهران 1993.

- الظريف (مصطفى) ، كرارمة (خالد) ، دراسة التوسعات العمرانية الحديثة لمدينة مازونة ، مذكرة تخرج لنيل شهادة مهندس دولة في التهيئة العمرانية ، قسم الجغرافية والتهيئة العمرانية ، جامعة وهران 2001.
- عباس (محمد) ، الدور العلمي و الإجتماعي و السياسي لمدرسة مازونة الفقهية ، دراسة مونوغرافية ما بين القرنين الخامس عشر و التاسع عشر ، مذكرة تخرج في علم الإجتماع السياسي ، قسم علم الإجتماع ، جامعة وهران 1997.
- مري (مباركة) ، بوشاقور (يمينة) ، جامع عين البيضاء ، دراسة أثرية معمارية ، مذكرة تخرج لنيل شهادة الليسانس في علم الآثار ، معهد علم الآثار ، جامعة الجزائر 1994.

3- الدوريات:

-البصائر، جريدة أسبوعية تصدر عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر، الأعداد (1-6)، 2002.
-التاريخ ، مجلة تصدر عن المركز الوطني للدراسات التاريخية ، النصف الأول من سنة 1986.
-الخبر، جريدة يومية ، 18 جوان 2001، عدد 3390، فبراير 2002.
-الدراسات التاريخية ، مجلة تصدر عن قسم التاريخ، جامعة الجزائر، عدد 09، 1995.
-الرأي، جريدة يومية، عدد 1258، 12 جوان 2002.
-سرتا، مجلة تصدر عن معهد العلوم الإجتماعية، جامعة قسنطينة، عدد خاص، 1980.
-العربي، مجلة شهرية تصدر عن وزارة الثقافة، الكويت، عدد 516، نوفمبر 2001.
-العصر، مجلة تصدر عن وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، عدد 11، أكتوبر 1997.
-غيليزان أحداث، دورية تصدر عن ولاية غيليزان، عدد7، ماي 1995، عدد8، جوان 1995.
-الفجر، جريدة يومية، 17 جوان 2001.

4-1 الدراسات و الملتقيات:

-البوعبدلي (المهدي)، الثقافة و التوجيه بالجزائر ، في أشغال مؤتمر الفكر الإسلامي الجزائر 1970.
-حملاوي (علي)، العناصر الزخرفية بمدينة سدراتة (ورجلان)، الملتقى الثاني للبحث الأثري و الدراسات التاريخية، أدرار من 29-05 إلى 02-06-1994.

-عبد الله محمد شيحة (مصطفى)، دراسة مقارنة بين المدرسة المصرية و المدرسة اليمنية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مصر من 22 إلى 25 أفريل 1991.

-عبد الفتاح عاشور (سعيد)، العلم بين المسجد و المدرسة ، في، تاريخ المدارس في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1992.

-عطا زبيدة (محمد)، مكتبات المدارس " خزانة الكتب في العصرين الأموي و المملوكي" ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر 1992.

-لعرج (عبد العزيز)، دراسة تحويل و ظيفي لمدرسة سيدي أبي مدين، المرحلة الأولى للمشروع التمهيدي، الورشة التقنية للهندسة المعمارية و الترميم (ATAR)، أرشيف مديرية الثقافة بتلمسان 1999.

-هني (عبد القادر) ، التعريف بمازونة، بمناسبة انعقاد إطارات الولاية بمازونة، الإثنين 31 أكتوبر 1983.

2- المراجع باللغة الأجنبية

2-1 باللغة الفرنسية:

-Belhamissi (Moulay), Hostoire de Mazouna, une petite ville, une longue histoire , société national d'édition de la diffusion , Alger 1981.

-Berque (Jaques), Retour de Mazouna (Annales économiques, sociétés, civilisations) 27ème Année N°1 , Janvier , Fevrier 1972

-Flaurencier (Marcel), Terre Algérienne (Mémoire d'un colon), édition France Afrique, Alger 1932

-Calissot (René), Abdelkader et la nationalité Algerienne, in, « R.H. » T, 89, 1965.

-Loukil (Youcef), Mazouna (Ancienne capitale du DAHARA),imprimerie Algérienne , 1912.

-Marçais (Georges) , l'art musulman, presses universitaire de France, Paris , 1962.

-Marçais (Georges), L'architecture musulmane d'occident, Paris, 1954.

-Merad (Boudia A), la formation sociale Algérienne précoloniale, OPU, Alger, 1981.

-Merouche (Lemenouar), les berranis à l'époque turque et au début de la période coloniales, original d'une communication , presentée au colloque sur la classe ouvrière dans le monde Arabe, organisé par L'O A.T 1979.

-Onesime (Recluse), Zaouia de Mazouna, Berceau de l'ordre des Senoussis - Algérie et Tunisie,- Librairie Hachette, Paris 1909.

-Oumlil (Ali), « Ibn khaldoum et la société urbaine » in « la ville arabe dans l'islam » 1982
-Sari (Djilali), les villes precoloniales de l'algérie occidentale, Nedroma-Mazouna- Kalaa, Société National d'édition de la diffusion, Alger 1978.

2-2 باللغة التركية

-Faik Reçit UNAT tarihleri hicri Miladî Tarihe çevirme Kilavuzu tûrk Tarih Kurumu basimevi-ankara 1988

مواقع على الإنترنت:

- www.edumet.tn
- www.islam-online-net
- www khayma com
-www.maghrebmed.com
- www.members.tripod.com
- www torathi.com

الفهرسة

فهرس الموضوعات

الصفحة

المقدمة

المدخل: التعريف بمازونة

الفصل الأول: نشأة المدرسة وتطورها بالمغرب الإسلامي حتى نهاية العهد العثماني

الفصل الثاني: التعليم والعلماء بمدرسة مازونة في العهد العثماني